مذكرات

تيري إيغلتُنْ

حارس البوابة

ترجمة أسامة منزلجي





المؤلف: تيري إيغلتن
ترجمة: أسامة منزلجي
عنوان الكتاب: حارس البوابة
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
الناشر: دار المدى
الطبعة الاولى: ٢٠١٥

Author: **Terry Eagleton**
Translator: **Ossama Manzalji**
Tittle: **The Gatekeeper**
Cover designed by: **Majed Al-Majedy**
P.C.: **Almada for media, culture & arts**
First Edition: **2015**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102-13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
www.daralmada.com info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
ص.ب: ٨٢٧٢
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

تيري إيغلتُن

حارس البوابة

ترجمة

أسامة منزلجي





مؤلف الكتاب

تيرانس فرانسيس "تيري" إيغلتُن مولود في ٢٢ شباط (فبراير) من عام ١٩٤٣. مُنظِّر وناقد أدبي بريطاني بارز، وهو الآن أستاذ جامعي شهير في الأدب الإنكليزي في جامعة لانكستر، وأستاذ في مادة النظرية الثقافية في الجامعة الوطنية في أيرلندا، وأستاذ زائر في مادة الأدب الإنكليزي في جامعة نوتردام. وإيغلتن أستاذ زائر في جامعات في أرجاء العالم. نشر أكثر من أربعين كتاباً، من بينها "أيديولوجيا علم الجمال" (١٩٩٠)، و"أوهام ما بعد الحداثة" (١٩٩٦)، و"مقدمة النظرية الأدبية" (١٩٨٣)، و"لماذا كان ماركس على صواب" (٢٠١١)، وفي عام ٢٠٠٩ وضع كتاباً يضم محاضرات عن الدين تحت عنوان "العقل، الايمان، والثورة: تأملات حول مناظرة عن الله".

في ذِكرى نورمَنْ فلتس

ـ ١ ـ

المؤبَّدات

الدير بناء منخفض، وآيل للسقوط، سقفه فيه من الحديد المموَّج أكثر مما في برج على الطِراز الغوطي. وهو مُقام بين أسوار عالية مُدجَّجة بكسارة الزجاج، رادعة بما يكفي لصد مُختلسي النظر، والمهووسين بالدِين، ومُطاردي الراهبات، والمتحرّشين جنسياً، والبروتستانت المتطرفين، والمُلحدين الساخطين. لكنَّ الأسوار أُنشئت أيضاً لحجز المقيمات داخله. لأنَّ هذا هو دير راهبات الكرمليت الحبيسات، اللائي ما أنْ تُصفَق البوابة خلفهنّ لا يرَين أحداً غير زميلاتهنَّ من الراهبات وبضعة كهنة وصِبية المذبح حتى آخر حياتهنَّ.

كنتُ حارس البوابة. وبوصفي خادم مذبح في العاشرة من عمري في مُصلّى الدير، كان يتوجَّب عليّ أنْ أحضَر حين تضع إحدى المبتدئات، في حوالي التاسعة عشرة من عمرها، الخمار وتختفي داخل المكان إلى الأبد. أولاً ترتدي ثياب عروس كرمز لزواجها من المسيح، ويُقصّ شعرها قصيراً جداً تحت الخِمار الأبيض المُخرَّم. وأحياناً، طبعاً، يكون شهر العسل مُخيِّباً للآمال. ومن ثم تقودها زميلاتها من الراهبات بعيداً لكي تعود بعد ذلك وهي تضع خِماراً أسود وترتدي ثوباً من قماشٍ خشن وبُني اللون خاص بطائفة الكرمليت. وقد سمعتُ لاحقاً عن امرأةٍ شابة رفضت الانضمام إلى الكرمليت واختارت بدلاً عنها

طائفة دينية تسمح بارتداء البنطلون القصير ماركة ماركس وسبنسر. وعلى الرغم من أنني لا أعرف شخصياً بناطيل راهبات الكرمليت القصيرة، إلا أنني واثق من أنها مُحرَّمة، وهي من النوع الذي يُسبِّبُ حِكاك الجلد، وتُثبَّت بأقفال من فولاذ، لأنَّ الطائفة لا تفوّتْ أية فرصة لإماتة الجسد.

ويصل الأسقف، وهو عجوز غرِيب الأطوار من كيلدير يسير بخطوة عامل أخرق ويحمل وجه سكير، لكي يرأس المراسم. ويُعيِّن أحدنا، نحن صِبية المذبح، لحمل قلنسوته المتدلّية، وهي قبعة البَلَش العالية التي يعتمرها في مثل تلك المناسبات، في حين يحمل صبي آخر صولجانه أو عصاه الذهبية الرمزية. ونحمل تلك الأدوات بواسطة أربطة حريرية بيضاء ملفوفة حول أكتافنا، لأنَّ الأصابع القذرة للصِبية تُعتَبَر مُدنَّسة جداً. ويحتاج الأسقف إلى تلك العصا في لحظات مقدَّسة مختلفة معيَّنة في أثناء المراسم، ولما كان من الصعب توقُّع تلك اللحظات فإننا نبقى يقظين لنتلقَّى الإشارة من سيد المراسم، الذي عليه أن يتحلّى بما يكفي من الرشاقة ليمُدّ يد المساعدة للأسقف في اعتمار قبعته دون أنْ يُسقِط قلنسوة الجمجمة.

كان علينا أن نبدو غاية في الأناقة، بما أنَّه في إحدى مناسبات ارتداء مثل ذلك الثوب رمى أحد صِبية المذبح الصغار، الذي أربكته الإيماءات النزقة لسيد المراسم على صدغيه، آخر آثار العقلانيّة المدنية إلى الريح وانتهى به الأمر إلى أنْ اعتمر هو نفسه وبكل وقار القلنسوة الغنية بالزخارف، في مُحاكاة سرياليّة للمراسم. وكانت مهمَّة الصبي حامل الصولجان الحسّاسة هي تسليم الأسقف نسخته المُزخرفة، الضخمة من عصا الراعي المعقوفة في وقتٍ واحد مع الركوع على إحدى ركبتيه وتقبيل الخاتم الأسقفي. وفي وقت لاحقٍ من حياتي، حين وصفتُ هذا

المشهد من الحركات البهلوانية لبعض الأصدقاء اللاأدريين[1]، أدركتُ من ضحكهم البذيء أنَّ عبارة "الركوع وتقبيل الخاتم الأسقفي" لها معنى أكثر فسقاً مما بدا لي وأنا في سن العاشرة.

حالما تُرتَّل الـ Te Deum (تسبيحة الشكر) تنتهي المراسم، وتصبح الأخت بملابسها الجديدة جاهزة في قاعة استقبال الدير لوداع عائلتها. القاعة، التي تُشبه الأرض المُشاع أو مكان يفصل بين مُختلى الراهبات والعالم الخارجي، كانت عبارة عن غرفة جرداء تماماً مشطورة من الأرض وحتى السقف بمُصبَّعة من الحديد الأسود. هناك أبواب موصدة خلف المُصبعة من جانب الراهبات، ونتوءات رمزية بارزة بصورة مشؤومة منها باتجاه الزائر. وجانب الراهبات من الردهة موصول بأحشاء الدير المُعقَّدة، بينما الجانب الآخر مفتوح عبر باب مزدوج إلى العالم الخارجي. وهذان البابان الخارجيان يجب إغلاقهما قبل فتح الباب خلف المُصبّعة، وهذه إحدى قواعد المكان العديدة المُلغّزة.

كان عملي في مثل تلك المناسبات أنْ أواكب والدَيّ الشابّة إلى الردهة لمقابلة ابنتهما للمرة الأخيرة. فيركعان بحياء على الجانب المُدنَّس من المُصبّعة، من ناحية بدافع التقوى، ومن ناحيةٍ أخرى لأنه لا يوجد ما يجلسان عليه، في حين تركع ابنتهما المتزوجة حديثاً وهي تبتسم على الجانب المقدَّس، وقد رفعت خِمارها إلى الخلف، وترافقها أمّ موقَّرة يكون خِمارها مرخيّاً. إذ يبدو أنَّ الكاثوليكية في المقام الأول هي مسألة ركوع. كان المشهد يُذكِّرُ قليلاً بحديقة الحيوان، وكأنَّ المخلوقة الغضة الكامنة وراء القضبان هي من نوع غريب،

---

(١) اللا أدريين: هم المنتسبون إلى مذهب اللا أدريين، وهي فئة دينية تعتقد بأنَّ الله وطبيعته وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها.

شبه منقرض، والأم الموقَّرة هي حارستها الفخور وأبويها زوج من المتحمّسين الوقورين للحيوانات. ثم، بعد تبادُل بضع كلماتٌ فاترة ببطء بين الأبوين والإبنة، تومئ الأم الوقور بتحفُّظ لي، كضابطٍ يُعطي إشارة تابع لفريق تنفيذ الإعدام، فأُمسكُ باب الردهة وأبقيه مفتوحاً ليخرجَ منه الأم والأب، ويُغيّبان ابنتهما عن أنظارهما إلى الأبد بينما هما يتلمّسان طريقهما ويشهقان في طريق خروجهما من المكان كائنين من الشحاذين العميان. كان لابد من القيام بالمهمة الكريهة.

على الرغم من مظهر الدير الكئيب من الخارج، إلاّ أنه كان غوطيّ الطراز على طريقته الخاصة. كان في الحقيقة يتألّف من مساحتين منفصلتَين مربوطتين بمهارة بمفصل؛ الجزء الداخلي المختوم من مساكن الراهبات، ومن ثم، في الخارج هناك المُعتزَل، وبضع غُرَف عامة، ومُصلّى صغير مُتاح للسكان المحليين، ومن ثم شُقق الأخوات غير المترهبنات الحقيرة. هاتان المساحتان تلتقيان عند ما يشبه خطّ الصدع في الأقراص الدوّارة، والأبواب الخفية، والحجرات السرّية، والخزائن الصغيرة التي يمكن الوصول إليها من الجانبين، بحيث أنَّ البناء برُمَّته كان أشبه بـ trompe l'oeil (صحن الأذن)، ببيتٍ للمجانين في أرض المعارض أو كلوحةٍ للرسام إيشر[٢] Escher. وكأنَّ العالم المألوف قد ينفتح في أي لحظة على كونٍ بديل، لا يبعُد عنه إلا بمقدار بضعة إنشات لكنه ناءٍ بشكل يعصى على الوصف. كان يبدو كصورةٍ معقولةٍ للحياة الدينية.

كان أيضاً صورة لحياتي المنشقّة وأنا طفل. فتارةً تراني ألعب لعبة المطاردة واللمس خارج الدكان الذي عند ناصية الشارع، وتارة

---

(٢) موريتس كورنيليس إيشر (١٨٩٨-١٩٧٢): رسام هولندي بأسلوب الغرافيك. المترجم

أخرى أتسلّل عبر ثقب أسود لألجَ عالماً نائياً مُذهلاً، حيث لا يمكن لأصدقائي من البروتستانت أن يلحقوا بي وحيث يتوقف العقل الدنيوي عن العمل فجأةً. لقد كان الدير حقيراً وغير مألوف في وقت معاً، دنيوياً ومُفعماً بالغموض، يمتزج فيه عبق البخور مع رائحة مرق الملفوف والصبايا اللواتي يتكلّمن بلكنة أهل مانشستر، وأسماؤهن الحقيقية ربما هي ميري أوكنر وأغنس بيرن ولكنهن أصبحن الآن الأخت تيريزا ماريا المُكرّسة للصليب المقدّس والأخت فرانسس جوزيفا حاملة الزهرة الصغيرة، وينمن على ألواح خشبية، ويستيقظن قبل الفجر لكي يُصلين ودائماً يشعرن بالجوع.

وموقع المكان على مشارف مانشستر جعله يبدو أشد غرابة، كما لو أنَّ المرء يُصادفُ قلعة حقيقية مُحاطة بخندق وسط ممفيس. كانت هناك أدراج تنزلق دون إحداث أي صوت إلى الداخل حين تُسحَبْ من خلف أحد الجدران، وأقراص دوَّارة تدور بصورة مخيفة من دون أي وساطة إنسانية ظاهرة، وعيون العذارى السجينات تراقبُكَ من خلال ستائر لا تُري إلا من جِهة واحدة. والأدراج والأقراص الدوّارة توجد في الغالب في غرفة المقدَّسات، وهي موقع آخر للعبور بين العالمين الداخلي والخارجي. هنا كان الكاهن وخدم المذبح يرتدون أردية القداس، بينما الأخت الحافظة للغرفة، المُستترة كالشبح خلف جانبها من الجدار، تضع أوانٍ لازمة للقداس داخل درج ينزلق فجأةً وينفتح كما يحدثُ في الأفلام المرعبة السخيفة. ويقوم كاهنٌ أو اثنان من الكهنة الأكثر لؤماً بتسلية صِبية المذبح بادّعاء الرعب حين يخرج الدرج فجأةً، فيُشهرون مسدسات خيالية أو يتظاهرون بالإصابة بحالة غريبة من الانسداد التاجي.

كان هناك قرص دوّار في الجدار من أجل الأغراض الأكبر حجماً لإدخالها أو إخراجها من المُعتَزَل، وكان هذا يتضمَّن بين حينٍ وآخر

كلب حراسة الدير، تيموثي. فكلاب الحراسة لازمة للأديرة لزوم الأخمِرة. أحياناً كنتُ أضطرُ إلى إقحام تيموثي إلى القرص الدوّار لكي يُنقَل إلى داخل المُعتَزَل، وكأنه لازم للقيام ببعض الشعائر البهيمية السرّية. وكنت أسمع الأخت الحافظة تغمغمُ "Deo gratias (شكراً لله)، يا تيري" عبر الجدار، وكانت تلك بحق وسيلة مقدّسة لقول "هاي"، فأجيب على ذلك بـ "Deo gratias، يا أختاه، تيموثي قادمٌ إليكِ الآن". ثم أضعُ الكلب على القرص الدوّار الخشبي المُشقّق وأدفعه لينتقل من جانبي بينما تشدّه هي من جانبها. ويختفي عن الأنظار، حزيناً ودامع العينين، وهو المخلوق الذَكَر الوحيد الذي يخترق المُحتَجَز. لعلّهنّ كنَّ يعصبنَ عينيه لدي وصوله إلى الطرف المقابل. وقد اضطررتُ مرةً أو مرّتين إلى أن أكبح إلحاحاً مجنوناً لأقفز بنفسي على القرص الدوّار، متراخي اليدين وأدلدلُ لساني، أدمدمُ وأريِّل وأنا أُجذَب إلى الداخل.

على كامل جدار حَرَم المُصلّى كانت هناك مصبّعة أخرى مزوَّدة بمزيدٍ من النتوءات الرمزية، ومن خلفه كانت الأخوات يصغين إلى القداس عبر ستار أحادي الرؤية من القماش الأسود الباهت. وكان ذلك يعني أنَّ في استطاعتهن مشاهدة خُدّام المذبح ونحن نتسكّع حول المذبح؛ في الحقيقة كنا الذكور الوحيدين، وإنْ كان ذلك بالمعنى المعتدل للكلمة، الذين شاهدوهن في حياتهن. و لم يكنَّ يعتبرنَ الكاهن رجلاً. أما نحن فلم يكن في استطاعتنا أنْ نشاهدهن. أو على الأقلّ أنا كنتُ أشاهدُ فقط أفواههن، حين كنَّ يتلقّين العشاء الربّاني. كنتُ أقف بجانب الكاهن عند بابٍ صغير في المُصبّعة، وبينما الأفواه تتقدَّم واحِداً إثر آخر وبسرعة في تلك المساحة المظلمة كنتُ أحملُ طبق العشاء الرباني الفضي الثقيل من تحته كفوطة صلبة، على استعداد للإمساك بأية قطعة من خبز القربان تسقط. وبعد فترة تآلفتُ مع تلك

الثلاثين أو ما يُقاربها من الأفواه، التي بعضها متغضِّن وقليل الأسنان، وأخرى رطبة وحَسَنة الترتيب، كتآلفي مع الأحرف الأبجدية.

لم يبدُ أنَّ أياً من الأفواه تزيّنه لحية، ووجدتُ ذلك غريباً. لأنني كنتُ مُقتنعاً بوجود راهبة ذات لحية بنيّة اللون في المكان، لأنني لمحتها وأنا مرتعب في إحدى تلك المناسبات النادرة التي سُمِحَ لي فيها بولوج الفناء المؤدي إلى المُعتَزَل. كانت إحدى الراهبات العجائز مريضة، فرافقتُ الكاهن حين حمل إليها القربان المقدَّس، وهو يؤرجح مِبخرةً أو يحمل شمعة مُضاءة، لم أعد أذكر أيَّهما. وكان هناك بابان كبيران بحجم باب مرآب يؤديان إلى أعماق الدير، وبينما كنا نقترب أنا والكاهن منهما انزلقا مُنفتحين بشكلٍ غامض من الداخل، كما تُفتَح الأبواب عادةً في الأفلام السينمائية. وفي أثناء اجتيازنا لهما، لم أستطع مقاومة إغواء يشبه غواية زوجة لوط في الالتفات وإلقاء نظرة إلى ما كان خلف البابين. فرأيتُ، أو خُيِّلَ إليَّ أني رأيتُ، راهبة بدينة في منتصف العمر ذات بشرة نموذجية هي مزيج من لون المشمش والكريما، ولكن مع شعيرات قاسية بُنيّة اللون كالتي عند الخنزير تنبت من ذقنها. وربما تلك اللحظة من الرعب الخنثوي هي ذِكرى زائفة، وربما لا: فإنْ كان لراهبة شعر في وجهها، فمن الإثم بالنسبة إليها أنْ تقوم بعملٍ يدل على الغرور كأنْ تنزعه.

المرة الوحيدة التي تحدَّثتُ فيها مع راهبة كانت حين علَّمتني الأخت أنجيلا اللاتينية التي أحتاجها لخدمة القداس. كنتُ أجتمعُ بها مدة ساعةٍ في الأسبوع في الردهة، فتركع في جانبها من المُصبّعة وأنا أركع في جانبي، ويكون خِمارها مرفوعاً بما أنَّ سني لم يكن يتعدّى الثامنة أو التاسعة. ولو أنَّ مرحلة البلوغ حلَّتْ عليَّ فجأةً على هيئة نوبة من الارتعاشات، مُخشِّنةً صوتي ومُبثِّرةً وجنتيَّ، لسقط الخِمار متكوِّماً عند قدميها كستارة الأمان. وما أن نبتت شعرةٌ على ذقني، حتى لم يعُد

يُسمَح لي برؤية شعرهن. وكان للأم أنجيلا لَكْنة أهل مانشستر الفاترة التي تفرضها الأنظمة وبشرة لون المشمش والكريما، يشبه تقاطع "شارع كورونيشن"[٣] مع "صوت الموسيقى". كانت سليطة، مباشِرة بفظاظة، وكانت ستُصبح مثاراً للضحك، لو أنها تعيش في عالم آخر.
وبعد سنوات، بعد أنْ اكتسبتُ بعض الشمعة كلاهوتيّ يساري، عدتُ لمقابلتها، وعلى الرغم من أنني كنت قد تجاوزت سن البلوغ بشكل واضح إلا أنها رفعت خمارها. لكنَّ ذلك لأنَّ الكنيسة الكاثوليكية كانت تتقاذفها أمواج الإصلاح التي ضربَتْ حتى هذا الموقع الأمامي للمذهب التقليدي المتنسّك. حيّتني بأسلوبها الودّي الجاف المعتاد، لكنَّها عبَّرَتْ عن أملها في ألاّ أكون "راديكالياً متطرّفاً"، مع أنني واثق من أنها كانت تعلم أنني كذلك. كان الولد ذو الوجه الشاحب الذي صحَّحَتْ له لفظَه لكلمةِ "laetificat" بكل لطف قد دُفِنَ إلى الأبد تحت مظهر المثقَّف المُشاكس الذي قصَّ شعره على طراز يوليوس قيصر. في هذا الزمن المضطرب، كانت الطوائف الدينية تتصارع فيه لتجنِّد وتخسر رعيةً بأقصى سرعة، كما يقفز الرهبان والراهبات واحداً إثر آخر عبر الجدران المزوَّدة بكُسارة الزجاج ليعثروا على أزواجٍ وزوجات لهم، وأعمالٍ في المجال الاجتماعي وبنطلونات ماركس وسبنسر. كان الأمر أشبه بنسخة كنسية من "الهروب من كولديتز"[٤].

كانت هناك أختان من غير الراهبات في الدير، واحدة خرساء، صمّاء ومُتهكّمة، والأخرى تعاني من داء الربو، وخَنوعٌ ومُحبَطة على

(٣) شارع كورونيشن: عنوان لمسلسل تلفزيوني إنكليزي طويل ظلّ يُعرَض على الشاشات الإنكليزية على مدى سنوات حتى أصبح تراثاً - المترجم
(٤) الهروب من قلعة كولديتز: في الأصل قصة تحولت إلى فيلم سينمائي تحكي عن عملية هروب في أواخر الحرب العالمية الثانية من قلعة كولديتز، وفي عام ١٩٧٣ تحولت إلى لعبة بأوراق اللعب والنرد. المترجم

الدوام، تقوم بالمشتريات، وتؤدي المهام وتعمل بصورة عامة كصِلة وصل بين العالَمين الداخلي والخارجي. وفيما عدا ذلك، كانت الراهبات يتّصلنَ بالعالم الخارجي فقط من خلال الشمس والمطر. ولا تعرف الأخوات المعتزلات أبداً مَنْ أصبح رئيس الوزراء أو ما هو التلفزيون، بما أنّهنَّ لا يقرأن الصحف اللهم إلا التفاهة البابوية المعنونة بكل تواضع "الكون" (يُحكى عن المؤلف الكاثوليكي هيلير بيلوك إنه حصل ذات مرة على تصريح بوصفِهِ مراسلاً صحفياً بحضور مؤتمر عالي المستوى وذلك بأنْ أبلغَ حارس الباب بكل رِفعة أنه يمثِّل صحيفة "الكون"). ولو أنَّ حيازة القنابل الذرية جعلت أوروباً أرضاً يباباً، لما علِمَتْ الراهبات أي شيء عن هذا الأمر إلى أنْ يبدأ الغبار الذرّي بالتراكم في طريقهن. وفي الحقيقة، لم تكن أيٌّ منهنّ قد سمعت بالقنابل الذرية أو بالفيس بريسلي أو بالسائل المُنظِّف، أو استعملَتْ جهاز هاتف أو حتى أدركت أنَّ الهند لم تعُد تشكِّلُ جزءاً من الإمبراطورية البريطانية. والتعامُل المحدود مع العالم الدنيوي الذي كُنَّ في حاجةٍ إليه لبقائهنَّ انتُدِبَتْ له الأخوات الدنيويات. وقد طمأنَتْ إحدى تلك الأخوات أمي، التي كانت مولعة بالتردُّد على الدير، بأنها حين تصعد إلى السماء سوف يأتي إليها ولداها اللذان فقدتهما وهما طفلان كرجلَين ناضجين. وحتى أمي الورِعة وجدت أنَّ من المناسب أنْ تتعجَّب متسائلةً كيف استطاعت تلك المرأة أنْ تحصل على تلك المعلومة الفذّة.

كان والدي يقوم أحياناً بأعمال غريبة في الدير، وفي إحدى المرات اندفعَ إلى داخل الحَرَم في أثناء أداء القداس فانقلَبَتْ إحدى الشمعات واندلعَتْ النار في مفرش المذبح. وعلى مدى بضع لحظات درامية كان بشكل كامل على مرأى من الأخوات من وراء ستارتهن، وكان ولاشك أوّل حيوان مُذكَّرٍ خِلاف تيموثي ونحن صِبية المذبح تلمحه بعضهنّ على مدى ثلاثين عاماً. وكما ذكرتُ، لم يكُنَّ يعتبرن الكهنة

رجالاً. وبعض خَدَم المذبح المتقدمين أيضاً لم يكونوا يعتبرون أنفسهم من الرجال، على الأقل بالمعنى غير الأصيل للكلمة. وكان هناك رجل أيرلندي ذو فكين طويلين وهزيلين وخدّين غائرَين مع لمسة معتدلة من الهَوَس الديني ويبدو دائماً أنه يكره خلع الرداء الكهنوتي بعد انتهاء القدّاس، ويقضي بعض الوقت في النافذة يُعجَب بنفسه قبل أن يخلع غفّارته مع تنهيد. وطبعاً لم تكن هناك مرايا في الدير. كانت الراهبات شبيهات بدراكولا في كراهيتهنّ لها.

قيل إنَّ راهبة عجوزاً أبتُليَتْ بالندبة، على الرغم من أنَّ كلمة "ابتليتْ" بعيدة أكثر مما ينبغي عن الوَرَع. وكأغلب المصابين بالندوب، بدت معرفتها التشريحية أقل من دقيقة، بما أنه قيل أنها كانت تحمل ندوبَ جِراح المسيح على كفّيها، في حين أنَّ الصَلبْ كان ينبغي أنْ يحدث حتماً في الرسغَين. وليس لديّ أدنى شك في أنَّ ديراً مملوءاً بالعوانس المُحصّنات دائماً يمكنه أنْ يولّد المعجزة الغريبة، بما يتّصفنَ به من خراب نفسي طويل الأمد يمكن لمراهق واحد أنْ يُحدِثه. إلاّ أنَّ أعظم معجزة لصالحه كانت ترويض توم مكورميك.

كان مكورميك عاملاً أخرق أيرلندياً يعيش بالقرب من الدير، وكاثوليكياً مُرتداً سيئ السمعة. وحتى في تلك الأيام التي سادها الورع كان وجود كاثوليكيّ مرتدّ أمراً مقبولاً تقريباً؛ كان أشبه بكونكَ قروياً ينتمي إلى نادٍ في المدينة، لا تزال مُسجَّلاً فيه ولكن لا أحد يراك كثيراً. وكانت عبارة "كاثوليكي مُرتدّ" هي اللقب المناسب المُطمئِن إلى أنك لم تترك الكنيسة حقاً؛ إنه ببساطة ينقلكَ من إحدى الفئات الأنطولوجيّة إلى أخرى، شيء أشبه بالتخلّي عن رتبة النبالة والبقاء في مجال السياسة. على أي حال، إنه يضعكَ ضمن مجموعة متميزة جداً. ومن الأفضل الاحتراق مع غراهام غرين على مشاركة الجنة مع بنغ كروسبي.

لم يكن مكورميك قد حضر أيَّ قدّاس منذ سنين، وكان سكيراً

حتى أسفل قدميه. ولكن في أحد أعياد الميلاد، ومع اقتراب منتصف الليل سمع مع زوجته وهما نائمان نواقيس الدير تُقرَع. كانت في الحقيقة تُقرَع من أجل قدّاس منتصف الليل، وكان قد أعيد تفعيل ممارسته من جديد مؤخراً. لكنّ زوجة مكورميك استنتجت من ذلك أنَّ الدير يحترق، ودفعت زوجها إلى أنْ يرتدي ملابسه ويهرع لمدّ يد العون. ونزل بساقيه المتيبّستين ليجد المصلين يتوافدون أرتالاً بكل خضوع إلى المُصلّى، ورحّبت به الأخوات المدنيات المبتهجات كأنه الطفل المعجزة. ولما لم يستطع أنْ يتراجع، بقيَ لحضور القداس، ومنذ ذلك الحين أصبح طقساً يمارسه في كل عيد ميلاد. لكنه لم يكن يحضر قداس أيام الآحاد، مُعتبراً ذلك بلا شك تصرُّفاً مُغالياً قليلاً، بالإضافة إلى كونه ضاراً بوضعه المنحرف باعتدال ككاثوليكي مرتدّ. وكان لزوجته معجزتها الخاصة قبل ذلك بسنوات، حين غرقت السفينة التي تحمل ابنها في الأطلسي خلال الحرب العالمية الثانية، وسمعته يناديها. وبدت قابلة للتصديق أكثر بكثير من فكرة الحَبَل بلا دنس.

أحياناً يتحدَّث الناس عن الحياة الرهبانية بأنها هروبيّة. وعدم التعامل بالنقود ميزة تقتصر على الملوك والزُهّاد. ولكن في حين أنَّ عدم معرفة أنَّ أوروبا قد أزيلَتْ عن الخريطة هو نوعٌ مُرفَّه من الجهل، هناك مغزى آخر يُعتبَر فيه التواجد في دير هروباً كالتواجد في سجن وورموود سكرَبس[٥]. إنَّ الهروب الحقيقي سيعني الخروج، وليس

---

(٥) وورموود سكربس: في عام ١٩٩٠، قامت حركة تمرد في هذا السجن بسبب سوء الأحوال والمعاملة الوحشية. وطلب حاكم السجن، جون مكارثي، الذي أطلق على السجن "مزبلة العقاب"، إما إجراء تحسينات على ظروف السجن أو إقفاله. وفي عام ٢٠٠٤ أعلنَ أنَّ تحسينات جمّة طرأت على السجن وأصبح النزلاء يُعاملون باحترام. ولكن بعد صدور كتاب إيغلتن هذا، وفي عام ٢٠٠٨ أعلن من جديد أنَّ أحوال السجن قد تدهورت من جديد ... المترجم

المكوث. وسكّير آخر الليل الذي ارتقى ذات يوم جدار برلين من الغرب إلى الشرق في نوبةٍ من الشرود لم يكن يحاولُ أنْ يهرب. لقد كانت حياة تلك الصبايا أقسى من حياة خادمة منزل من العصر الفيكتوري. منذ البدء، كنَّ في معظمهنَّ، دون شك، صغيرات السن جداً حين وقَّعنَ للتضحية بالكثير؛ والأمر لا يشبه هجرهنَّ أصدقاءهن من نجوم الروك أو مِهَن رائعة كجراحين في مجال الأعصاب. معظمهنّ كنَّ سيعرفن القليل من الراحة في المنزل؛ وغالبية الكاثوليك الإنكليز، حينئذٍ كما الآن، كانت من سلالة طبقة العمال الأيرلنديين وليس من أقران إيفلين وو . وشجبهنَّ العالم عائدٌ ربما إلى الجهل كما إلى الشجاعة؛ كان يمكنهنَّ أن يتحرَّرنَ منه لأنهنَّ كنَّ كالممتنعين عن شرب الخمر، يتعهَّدن بذلك. وقبول الخِمار كان وسيلة للنأي بالنفس عن الوقوع في الرذيلة، بما أنَّ الدير يقدِّمُ بضع فُرَص لاقتراف إثمٍ مُثير.

لعلَّ أروقة المكان كانت تعجُ بالشبق والنكد، وتضجُ ببقايا حفلات العربدة السحاقيّة وتفسُد بعفنِ الطموحات الشائكة. لعلَّ تلك الأقراص الدوّارة المخيفة تُخفي تنافسات إجرامية وطقوساً فاسقة، وشعائر لا توصَف يُراق فيها دم الديوك وتُمدَّد مُرشَّحة غضّة وممتلئة على المذبح لكي تُشق أحشاؤها، بينما أخواتها الغريبات الأطوار يبربرنَ بكفرٍ بشذرات من القداس بطريقة عكسيّة بأصواتهنَّ الشماليّة اللكنة والمبحوحة. وأحد أنواع انصار مذهب ما قبل الحداثة سيهتمّ فقط بما إذا كنَّ يمارسن الجنس فيما بينهن. وحتى إذا لم يكنَّ يفعلنَ ذلك، فسوف ينشب بعض التشاحن والتراشق بالألفاظ البذيئة، والإزعاج، والمزاج العكِر والأشراك الجنسية، وشبكة كاملة مُعقَّدة من السياسة المجهرية.

ومع ذلك، من الصعب تنظيم إبادة جماعية أو عملية هروب لاجئين من سجن الدير، أو استعباد الأطفال البورميين غصباً. تلك

المراهقات الورعات المتأخرات لم يضعن الخِمار لأنهنَّ يبغضن العالم ويتجنَّبنَ الجسد، بما أنهنَّ أصغر سناً بالنسبة إلى مثل تلك الأشياء في المقام الأول. فالعالم الذي تخلّينَ عنه كنَّ في الغالب يتعلّقنَ به، فهو مكان الأبوين والأقارب، وليس الجشع والاستغلال. ولا يمكن إلاّ لدافعٍ غامضٍ للحب أنْ يقودهنَّ إلى هذه الحياة الخالية من الفرح، والقاسية كحياة عامل في منجم للذهب وجاحدة كحياة مُحصِّل ديون. وهنَّ يستيقظن مراتٍ عِدَّة في أثناء الليل، ويأكلن كالطيور، ولا يحتفظن بأية ممتلكات شخصية، ويحتجنَ إلى ما يكفي من القدرة على التحمُّل لقضاء ما تبقّى من حياتهنَّ محجوزات مع حفنة من مثيلاتهن من المعتوهات ضمن الجدران الكئيبة نفسها. كان الوضع أشبه باختيار التعرُّض للضرب داخل خزانة أدوات التنظيف على يد حزب الله.

إذن، غالبيتهنّ كنَّ يقفنَ ربما في منتصف المسافة تقريباً بين الشهيدات والمنتحرات. إنَّ الشهيد يتخلّى بكل حرية عن حياةٍ عزيزة، في حين أنَّ المُنتحر يتخلَّص من وجودٍ أصبح معدوم القيمة. والانتحارُ أيضاً مسألة شخصية، بينما الشهادة هي نوعٌ من تحويلِ المرء موته إلى قضية إجتماعية، هي وضعُهُ تحت تصرُّف الآخرين فلعلّه، ولنستخدم إحدى عبارات أودن، يتلطَّف في شجاعة الأحياء. ولعلَّ من الحمقَ اختيار التخلّي عما هو غالٍ عليك، ولكن على الأقل ليس هذا من شيَم أهل الضواحي. إنّ تلك النسوة تخلّين عن حياتهنَّ عن عمد، وهذا عمل يتطلَّب عبثيّة الدادائيين المتحدّية وليس حِسابات خبير التأمين أو حماسة المُصلِح المثالي الأحمق. وبنبذ طاقات هذا العالم، أضحتْ حياتهنَّ بلا معنى كأي عملٍ فنيّ. صحيحٌ أنه بوصفهنَّ نسوة ينتمين إلى حقبة خمسينيات القرن الماضي لم يكنَّ في الأساس ليستمتعنَ بالكثير من الطاقة الدنيوية؛ لكنَّ حياتهنَّ من حيث كونها دينيّة انتزعَتْ نقطة لصالحها من هذا العقم، حوّلتها إلى رمز جماعيّ.

وبما أنهنَّ مُحافظات بجبن، ككل الكاثوليك الإنكليز تقريباً في أيامهنّ، ما كنَّ ليعتبرنَ الحياة المتديّنة ذات سِمة سياسية بأية حال. في الحقيقة، لم تكن كذلك، على الأقلّ بأي معنى أورثوذوكسي للكلمة، وهذا بالضبط هو الجانب السياسي منها بمعنى أدقّ. إنهنَّ يُصلّين من أجل اهتداء روسيا إلى السراط المستقيم في حين أنهنَّ هنَّ أنفسهنَّ كنَّ من الشيوعيين، اللواتي يتجنّبنَ تقليدياً استخدام صيغة ضمير المتكلّم ويتكلمنَ بدل ذلك بصيغة الجمع، "أمّنا (الموقّرة)"، "كلبنا"، "صندوق قمامتنا". ولا شك في أنَّ كلٍ منهن تحتفظ بفرشاة أسنانها الخاصة، لكنهن لم يكنَّ يمتلكنَ ملابسهنَّ الخاصة، ولا حتى ملابس داخلية، ولا حاجة لهنَّ إلى مشط. ويؤمنَّ بحماس بوجوب خضوع الزوجات التام لأزواجهنّ، وكنَّ انشقاقيات متطرّفات قبل اختراع المُصطلَح بوقتٍ طويل. وتعهدنَّ بالتزام الفقر، والتبتُّلُ والطاعةُ تركهنّ متحرّرات من العوائق المادّية كأحد محاربي العصابات، الذي لا يحتمل أنْ يُعيقه أي رهن. كان هناك الكثير من الفقر المبتذل، الطوعي، في المنطقة المحيطة بهنّ، وهي مسقط رأسي بلدة سالفورد، التي لا تزال حتى اليوم تُعتَبَر البلدة الأسوأ على الصحة في المملكة المتحدة، ولم تكن في تلك الأيام تستطيع أن تفخر بطبقتها الفقيرة، ناهيك عن دار الأوبرا. ولكن حين نأخذ على كاهلنا بكل حرية ما يعتبره الآخرون شيئاً قاتلاً، ونختار خطأً ما تعتبر بقيّتنا أنَّ علينا فقط أنْ نتحمّله، تُحوِّله الراهبات إلى تقرير رمزي، ويرفعنه إلى الطاقة التالية. وبعيشهنَّ حياتهنّ، كنَّ يقُلنَ شيئاً عن حياتنا نحن. وبانسلاخهنَّ عن العالم كنَّ يتنبّأنَ بموتهن الخاص، يمُتن في كل لحظة؛ بحيث أنَّ انغماسهنّ التام في الموت، الذي هو بالنسبة إلى بقيّتنا مسألة إكراه، يصبح في حالتهنَّ نوعاً من الفعل الحُرّ.

لكنَّ أشد ما كان مُدمّراً فيهنّ هو إيمانهنَّ الراسخ بالعالم الآخر. هناك أنماط واقعيّة التفكير تؤمن بأنَّ هذا العالم هو أفضل ما نستطيع الحصول عليه، وبعضهم معروف بأنهم مادّيون والباقون مُحافظون.

ومهما كان ما يُطلقون على أنفسهم، فإنَّ الواقعيين الدُهاة الذين يدَّعون أنه لا حاجةَ إلى وجود عالم آخر من الواضح أنهم لم يقرؤوا الصحف. وبالمقابل، هذه النسوة أعترفنَ بطريقتهنَّ الغريبة الأطوار ببؤس التاريخ الإنساني، الذي كان يمكنهنَّ أنْ يطلقنَ عليه اسم إثم العالم، وكنَّ بهذا مُخالفات للمُحدثين الليبراليين ذوي العيون البرّاقة.

على الرغم من أنه قد يبدو أمراً مُنافياً للعقل في هذه الأيام البراغماتية، إلاّ أنهنَّ تشبَّثنَ بوجهة النظر الباطلة الظريفة القائلة بأنَّ هناك أكثر مما ينبغي من القسوة والاضطهاد في العالم بحيث يكون مجرد مُصادفة، أو يمكن حلّه بإجراء إصلاح تدريجي. وعلى هذا كنَّ غريبات الأطوار ومنحرفات، على الأقلّ من وجهة نظر المعتدلين، العاقلين، الذين يعتقدون أنّه ليس في العالم من التشوُّه ما لا يمكن للمسةٍ من مزيدٍ من التفاهم المتبادل، أو قليل من حقوق الإنسان أو بضعة أكياس من القمح أن تسوّيه. لا شيء يفوق واقعية الشارع هذه تطرُّفاً في واقعيته. إنها مرفوضة من قِبَل أغلب المحافظين المثقفين، وإنْ كان اليسار لم يرفضها للأسباب ذاتها. والراهبات، كالاشتراكيين وعلماء فيزياء الذرَّة، ولكن خِلافاً للبراغماتيين والوضعيين، لم يكنَّ من ضيق الأفق بحيث يُصدِّقنَ أنَّ ما شاهدنه من حولهنَّ هو كل ما يمكن أنْ يوجَد. بالنسبةِ إليهنّ، خطأ العالم عميق إلى درجة أنه يصرخُ طلباً لبعض التحوُّل التام، المعروف برطانتهنّ باسم الخلاص. فإذا لم يتحقَّق هذا، فمن المُرجَّح أنْ تزداد الأوضاع سوءاً.

على هذا الأساس، كانت نظرتهنَّ إلى التاريخ الإنساني، مهما كان رأينا في حلولهنّ، واقعية تماماً. وعادة تكون لائحة جرد الأشلاء مشكوكاً فيها. ولكن في عام ١٩٧٠ قُدِّرَ أنَّ عدد الميتات لأسباب إنسانية في القرن العشرين، وهو على المدى البعيد القرن الأشدّ دموية في العصور التاريخية كلها، وصلَ إلى أعتاب المئة مليون. وبعد

ذلك بثلاثين عاماً، سوف يحتاج الأمر إلى إضافة مزيدٍ من المذابح التي لا تُحصى إلى ذلك الرقم. لقد كانت قصة الإنسانية ضجيجاً واحداً متواصلاً من التقطيع والطَرْق، كما يؤكِّد أي تأريخ للعالم. ومن المُستبعد تماماً العثور على بضع حكايات. وخلال الدهور الأولى القليلة، لم يحدث أي شيء يستحق الذِكر، والشخصيات فيها مجرَّد رسوم تخطيطية بالنسبة إلى الكائنات البشرية المعقولة، الحَسَنة التكوين. ثم يرمي المؤلِّف، وكأنما توقاً إلى إطالة أَمَد انتباه القارئ المُنجرف، بآخر مُزَق الواقعية بلا خجل لتذروها الرياح، ضاغطاً بوقاحة خط قصته ليستخلص منها آخر قطرة من عنصر الإثارة. فترى جندياً قزماً من كورسيكا[٦] يغزو قسماً كبيراً من الكرة الأرضية، بينما فلاح جورجي مخبول[٧] يذبح ملايين من أهل بلده . وفي تحليقٍ خيالي متطرِّف بصورة سخيفة، يُقال إنَّ مجموع ثروة ثلاثة من أشد الرجال ثراءً في العالم يُعادل الثروة المجتمعة لـ ٦٠٠ مليون من أفقر الناس. وفي انحرافٍ عاطفي واهن في الحبكة ذُكِرَ أنَّ لا أقلّ من ٢٠٠ طفلٍ وليد في أفقر بلاد العالم يموتون في كل ساعة. ومع اقتراب الخرافة بتسلُّلٍ غريبِ الأطوار من مراحلها الأخيرة، يتهشَّم آخر تشابه مع وحدة الرواية إلى خليطٍ من الحروب، والمجاعات، والحكومات الاستبدادية والثورات، مع حبكات ثانوية تُترَك مُعلَّقة بلا مبالاة في الهواء، والحوادث نفسها تُكرَّر بغباء، والشخصيات يُعادُ تقديمها وخطوط قصص عقيمة في الأساس تُجهَض اعتباطاً. للوهلة الأولى لا أحد يُصدِّق أي شيء منه.

لا ريب في أنَّ صاحباتي الكرمليت لم يُصدِّقنَه. كنَّ بطريقتهنَّ الخاصة يمكن أنْ يتَّفقنَ مع هنري فورد على أنَّ التاريخ هراء، ولهذا كنَّ

---

(٦) قزم من كورسيكا: أي نابوليون بونابارت.

(٧) فلاح جورجي مخبول: أي الزعيم السوفييتي جوزيف ستالين.

حيثُ كنَّ. لا ينبغي الهروب من التاريخ؛ الدير ليس طوقَ نجاة وسط العاصفة. ولكن ينبغي أيضاً ألاّ نغيِّره؛ إذ لا يمكنهنَّ إصلاح العالم من دون أنْ يطأنه. لقد كان دورهن هو أنْ يُرمِّزنَ إذلال الذات المتطرِّف الذي يحتاجه العالم إذا أراد أنْ يكونَ عادلاً؛ كنَّ دلالةً ليس على ما ينبغي فعله، بل على المُدَّة التي سيستغرقها ذلك. وهذا، بلا شك، أحد الأسباب التي جعلت الليبراليين ذوي التفكير اليميني، بالإضافة إلى عددٍ كبير من الاشتراكيين، يعتقدون أنهم يُغالون قليلاً. وكذا قد يعتقد، دون أدنى شك، مناصرو مساواة المرأة بالرجل، أنَّ التضحية بالذات هي تقليدياً من اختصاص المرأة. انطلاقاً من وجهة النظر هذه، السِمة الوحيدة المُخلِّصة لتلك الراهبات هي أنهنَّ لم يكنَّ في خدمة الرجال. أو على الأقلّ كنَّ في خدمة رجلٍ واحد فقط، وهو، بما أنه غائب عن الأرض لحسن الحظ، لم يكن يحتاج إلى طبخ، أو غسل ملابس أو رفاهية الجنس.

طبعاً، هنَّ لم يُصدِّقنَ أنَّ التاريخ مجرَّد هراء. لأنها وِجهة نظر بروتستانتية أكثر مما ينبغي. في الحقيقة، ستكون هرطقة. وإذا كان الأمل في الإنسانية معدوماً، فما الداعي إلى النهوض مراتٍ عِدَّة في الليلة الواحدة للصلاة من أجلها؟ و ريموند ويليمز، في سياق كلامه في كتابه "المأساة الحديثة" عن أولئك الذين تمثِّل مخيّمات الموت بالنسبة إليهم الكفر بكل أمل، يُعلن أيضاً أنَّ هذا كفر على طريقته؛ إذ إنْ كان هناك أولئك الذين يُقيمون المخيّمات، فهناك أيضاً الذين يموتون في أثناء محاولة تدميرها. لقد قال ماركس عن التاريخ إنه كابوس، لكنه رأى أنه يجب أنْ تكون هناك طريقة للحلم به بحيث تسمح لك بالاستيقاظ. وطبعاً أسوأ كابوس هو الاعتقاد بأنكَ استيقظتَ وإذا بكَ تكتشف أنكَ ما تزال تحلم، وهناك العديد من الأمثلة السياسية حول هذا. ولكن إنْ كان يجب إبطال التاريخ، فإنَّ فعلَ ذلك ممكنٌ فقط من الداخل. إنَّ الإنجيل المسيحي يدعونا إلى التأمُّل في حقيقة

التاريخ الإنساني المتمثّلة في الجثّة المُحطَّمة لمجرم سياسي نُفِّذَ فيه حكم الإعدام. إنَّ الرسالة التي تنادي بها هذه الجثة، على حد قول اللاهوتي هربرت ماكيب، عنيدة؛ إذا لم تعرف الحب فأنتَ ميِّت، وإذا احببتَ فسوف تُقتَل. إذن، فهنا يرقد الأمل الكاذب، أفيون الشعوب، ثرثرة الخلاص العاطفية.

وقد قُدِّرَ لي لاحقاً أنْ أدرسَ التراجيديا في جامعة كمبريدج. ولكن بحلول ذلك الوقت كنتُ قد تعرَّفتُ إلى جثةٍ مُحطَّمةٍ، يائسة.

هذه العقيدة تتناقض مع أوهام أولئك الذين يتصوَّرون أنَّ المستقبل سيكون زاهياً كما الحاضر، ولكن بمقدارٍ أكبر. "إنه الحاضر بالإضافة إلى الكثير من الاختيارات"، كما علَّقَ أحدهم عن مذهب تعدُّدية ما بعد الحداثة. وسواء أكان المستقبل أسوأ أم لا، فسوفَ يكون حتماً من الشاق التعرُّف إليه. إنَّ المثاليين الغربيي الأطوار حقاً، أصحاب الرؤوس المدفونة بكل قسوة بين أيديهم، هم متوهمون دُهاة يعيشون حياتهم وكأنَّ صندوق النقد الدولي، وأفلام كلينت إيستوود والكعك المُحلّى برقائق الشوكولاة ستبقى رائجة حتى بعد ٣٠٠٠ عام من الآن. إنَّ أغزر الرؤيويين شَعراً، وصاحب أشدّ العيون ضراوة يبدو، بالمقارنة مع هذا الحس السائد المجنون، أشبه بليبراليٍّ فاتر. ويتساوى في سِمة الوهم الاعتقادُ بأنَّ الرأسمالية ستتوصَّل في نهاية المطاف إلى إطعام العالم كله. فإذا نشرَ اليسار السياسي مثل هذه السخافة الصريحة طِوال ما كان خصومه يروَجون هذه الكذبة، فسوفَ يُخرَس بصوتٍ عالٍ دون رحمة.

لقد عاشت الكرمليت وكأنَّ التاريخ يمكن أنْ يختفي داخل ثقب ضيِّق في أية لحظة، وهي الحقيقة البسيطة. ولكن إنْ فعلَ، فسوف يجدهنَّ خاليات الوفاض، أجساداً مُطهَّرة قدر الإمكان من الرغبة، وهكذا لن يُفاجئهنَّ وهنَّ غافيات. وكان في استطاعتهنَّ أنْ يمارسن

خدعةً ماكرة على الموت بتمثُّله في حياتهنّ، بتمثيل موتهنّ وبهذا يخدعْنَه بإرهابه. ولّما كنَّ في العالم وليس منه، أُصبحَ وجودهنّ نوعاً من المُحاكاة الساخرة؛ ولكنْ في أثناء محاولتهنَّ اكتساب أحد أشكال المُحاكاة الساخرة كنَّ في حاجة إلى تجنّب شكل آخر. لم يكنَّ مُضطرات إلى أن يُكافحن لجعل الحياة أفضل بالعمل السياسي أو بالقيام بالأعمال الخيرية، بما أنَّ هذا سيربطهنَّ بالعالم نفسه الذي يتبرّأنَ منه. وبدل ذلك، كان دورهنَّ هو أنْ يكنَّ شاهدات على زوال ذلك العالم، أنْ يتصوَّرنَ مُسبقاً في حياتهنّ موت التاريخ، وذلك بإعلانهنَّ بأسلوبٍ مسرحيّ يأسر العين قِلّة أهميته. كانت مهمّتهنَّ ببساطة هي الإشفاق على بلوى الإنسانية، والتماس الرحمة على الدوام لصالحها. لم يكن يُسمَح لأية نفحة من الأمل الإجتماعي المُسكنة، ولا لأيديولوجية أصحاب الفكوك العريضة عن التقدُّم، بالتمويه على حقيقة مدى فظاعة الأمور معنا، وكم سيستغرق منا إصلاحها.

* * *

بعد ذلك بسنين، قابلتُ مجموعة مختلفة كثيراً من الراهبات. كنَّ أخوات أميركيات ينتمين إلى طوائف دينية متنوعة، يبلغ عددهن المئتين، وكنتُ أدرّسهنَّ في دورةٍ لنيلِ شهادة الماجستير في الفنون في مكانٍ قريب من نيويورك. كان ذلك في نهاية حقبة الستينيات، وكان الجو يفور بالتمرُّد. كنَّ راهبات بطراز حديث ليس لهنَّ مظهر حيوان البطريق، ونصيرات لرموش العيون الاصطناعية وتشي غيفارا، ومملوءات بحِكمة العلاج النفسي وبالحماس الأميركي المُتعِب. بدا كأنه لا يوجد شيء لا يجدنه إيجابياً بصورة مُبهجة، بدءاً بكتلة من الشعر المُلبّد في البالوعة وانتهاءً بغطاء مركز الدولاب الصدِئ، وعندما تجمهرنا لنذهب إلى برودواي ونشاهد المسرحية الاستعراضية "شَعْر"، بما تحتوي من مشهد التعرّي المختلس لمدة عشر ثواني، واضطررنا إلى

كبح بعضهنَّ ومنعهن من ارتقاء خشبة المسرح والوثب في المكان. كان في استطاعتهن أنْ يشعرن بالروح القُدُس تُموجُ في فتّاحة القناني أو في كيس من رقائق البطاطا المقلية. وخِلافاً للأخت أنجيلا، كنَّ يتشقلبنَ في أثناء القداس، وأحياناً يصِلْنَ إلى الفصل الدراسي وهن مرتديات صحيفة نيويورك تايمز من أجل لفت الانتباه إلى أهمية التواصُل الإنساني. ويغنين مزيجاً غريباً من أغاني جون بايز والأداء الغريغوري المتعدِّد الأصوات ويستمتعنَ بكونهنَّ على سجيَّتهنّ.

لم يكنَّ متقشّفات، بل صبايا عصريات يضعنَ أحمر الشفاه وينتعلنَ الأكعاب العالية ويُدخِّنَّ ويشربنَ الكحول، كما لا زالتْ الأميركيات يفعلن حتى هذه الأيام، وبدينَ أنَّهنَّ يعتبرن الدين شكلاً مُتحرِّراً من العلاج النفسي. وكان هناك طبيب نفسي هولندي يُعطي دروساً ضمن الدورة، أخطأ في التقدير خطأً كارثيّاً بسماحِهِ لإِحدى الراهبات بأخذ مشورته على انفراد. وقبل انصرام الأسبوع تَشكَّلَ طابورٌ منهنَّ بحجم ملعب اليانكي أمام بابه. وقد سلّمنَ إطروحاتهنَّ لنيل شهادة معهد الفنون والمؤلَّفة من فيلم فيديو يُصوِّرهن وهنَّ في تماسٍ مع الطبيعة الأم، يعدين حول أرض مرج الحَرَم وهن ببنطلونات قصيرة وضيّقة إلى حدّ الدناسة، يركضنَ حافيات ويتجاوزن جذوع الأشجار أو يُصغين بانتباه إلى ما يهمس به العشب، وسرعان ما عِلِمتُ أنها إنَّه لم يُنفَّذ في الواقع بغرض حرمان أحد من نيل الشهادة، بما أنَّ الأخوات كنَّ مصدر دخلٍ مُربِح للمعهد. وفي القدّاس، كنَّ ينغمسنَ في عربدةٍ من العِناق والنعيق الديلاني[٨] يخرجنَ منه مضطربات الخُطى دامعات العيون وفي شبه تهيُّج جنسي، ويتوجَّهنَ في رتلٍ طويل إلى المذبح واحدة إثر أخرى

---

(٨) ديلاني: نسبة إلى الشاعر ديلان توماس، الشاعر الويلزي، وهنا إشارة ساخرة إلى طريقته في إلقاء شِعره. المترجم

وينَخَخْنَ النبيذ في كأس القربان من عصّارةٍ لليمون، لكي يُبيِّنَ قَداسَة المُبتذَل. وبدل تبادل المزيد من التحيات الدينية التقليدية، كنَّ يُغمْغمنَ بشعاراتٍ متبادلةٍ مثل "الخبز يرتفع" أو "إنه آتٍ، آتٍ!" التي وجدتُها ذات سِمة أُخرويّة وليس إباحيّة، وتبادلنَ نُسَخاً لقبضة قائم الخنزير لأداء تحية منظّمة القوة السوداء.

ذهبنا لزيارة برنامج هدستارت لأطفالِ مرحلةِ ما قبلَ الالتحاق بالمدرسة في منطقة منهاتن المحرومة كنسيّاً، ووضعَتْ إحدى الأخوات طفلاً أسود على ركبتها وأخذتْ تلحُّ بصورة مُبالغ فيها في طلب خيط وإبرة لكي ترفو تمزُّقاً في بنطلونه الجينز. وبدا ذلكَ بشكلٍ مُحرِجٍ أشبه بمحاولة إصلاح ضلع مكسور بالإسعافات الأولية، لكنَّ الأميركيين الأفارقة الذين يُديرون البرنامج أخذوا يتحركون في كل اتجاه على الفور من أجل إحضار عِدَّة الخياطة. وكان منَ الأعقل الاستفادة من تلك النسوة بدل شجب أوهامهن الليبرالية وإشباع غرورنا الذاتي. لقد كنَّ متحمّسات للخلاص، لكنّهنّ يعشن حياة شبيهة بعالم وودستوك حيث لا حاجة إليه. وفي تلك الأثناء كانت حكومتهنّ منشغلة في ذبح الفييتناميين: وبدا أنَّ الجميع يشعرون بالارتياح داخل أجسادهم، ما عدا ربما الفييتناميين. وكتبت إحدى الراهبات أطروحة لي تُقارن فيها بين روايتَيّ جزيرة المرجان[٩] وسيد الذباب[١٠]، ولاحظتُ وهي تناولني إياها أنها في الحقيقة لم تقرأ جزيرة المرجان. وبما أنَّ المعرفة في تلك الأيام كانت ثقيلة الوطأة وغير رائقة، جعل هذا المقالةَ تستحق العلامة الكاملة. ولعلَّ غالبيتهنَّ تخطّين الأسوار بعد ذلك ببضع سنوات، وهنَّ الآن عاملات في الشؤون الاجتماعية أو

(٩) جزيرة المرجان: رواية للكاتب الاسكتلندي ر. م بالانتاين.
(١٠) سيد الذباب: رواية وليم غولدينغ.

مديرات أعمال. ولما كنَّ مؤمنات بمناهضة الروح النخبوية التي تنادي بالمساواة بين البشر، انتهى بهنَّ الأمر إلى العطالة، كبروفيسورات الستينيات الراديكاليين الذين لابد كانوا يجلسون في المقاعد الأخيرة في صفوفهم الدراسية وثكناتهم.

بعد بضع سنوات، قابلتُ نوعاً مشابهاً من الثقافة حين كنتُ برفيسوراً زائراً في سان دييغو. بدا فصلي الدراسي الأول لطلاب ما قبل التخرُّج مؤلَّفاً من شبان شبه عرايا جاؤوا مباشرة من الشاطئ. وبدا أنَّ واحداً أو اثنين منهم ينتعلان زعانف، ولمحتُ ما بدا بصورةٍ مريبة أشبه بقناعِ الغطس مع أنبوبه. كان هناك جوّ عام من ألبسة الغطس وألواح التزلُّج. ألقيتُ أول مُحاضرة مُلتهبة، عنيفة لي، بدا أنهم قابلوها باستحسان بطريقتهم المنبهرة بأشعة الشمس، وعيونهم المشقوقة. وبعد انتهاء الحصّة، اقتربَ شاب لا يرتدي إلاّ بنطلوناً قصيراً حتى الركبتين، بلونٍ قرمزي، بخُطى مكتومة من المنصة العالية وشكرني من أجل الجلسة. قال "ولكن، أتدري، يا بروفيسور؟ إنكَ تبذل جهداً شاقاً "، ومضى يُعبِّر عمّا في دخيلته مع إبداء اهتمامٍ مؤثِّر بسعادتي قائلاً إنَّ أغلب أقرانه من الطلاب هم إما مخمورون أو مُخدَّرون، وأنهم لا يستحقون الطاقة التي أغدقتُها عليهم وأنا مُضلَّل.

كانت تلك أياماً متهوِّرة بالنسبة إلى الكاثوليكيين. وفي أعقاب مجلس الفاتيكان الثاني، اجتاحت الكنيسة موجة من التجدُّد الروحي. فتعرَّضَ الأساقفة للمُحاكاة الساخرة وانهالتْ عليهم الأسئلة، وضجَّ الناسُ العاديون مُطالبين بسماعِ اعترافاتهم وأصبحوا يُشفون كل مَنْ يقع تحت أياديهم، أمريضاً كانَ أم غير مريض. والكهنة الذين تبادلوا القبلات في السر طوال عقود بدؤوا يفعلون ذلك في وضَح النهار. وطرأتْ بعض التغيرات السريعة المذهلة على الشخصية، فأعاد الرهبان المتقشِّفون، المتحفّظون، فجأةً اكتشاف أنفسهم وأضحوا تروتسكيين

خشنين صافعي أفخاذ أو رموا عاداتهم جانباً إكراماً لارتداء الكنزة الفضفاضة والبنطلونات التي تُزرَّر عند البطن. أحياناً كانوا يظهرون وقد أحاطَ أحدهم بذراعه بتحدٍّ كتف راهبة متحرِّرة ترتدي ثوباً فضفاضاً، وتحمل سِبحة وتنتعلُ صندلاً، ولكن تبقى دون أدنى ريب راهبة بالوجنتين الورديتين، والشعر المعقول والتقاسيم المرحة. وبدأتْ قبلة السلام في أثناء القدّاس، حين تستدير وتعانق الغريب الواقف إلى جوارك، تدومُ طويلاً إلى درجة أنَّ الكهنة كانوا يتساءلون هل يفضّون الجمع بقرعِ جرس اليد.

وكما أخرجَ الفنانون البلفشيك الدراما من مسارح النخبة إلى المزارع وأفنية المصانع، كذلك أصبح القداس يُقام الآن في الحانات، والمطابخ، ومواقف السيارات وأحواض السباحة، وربما حتى في كشك الهاتف أحياناً. بعض المتحمّسين تقلَّدوا صلباناً من خشب حول أعناقهم بشكلٍ مزعج جداً بحيث بات من الصعب معرفة ما إذا كانت ذات فائدة عمليّة أم أنها مجرد زينة. ويظهر الزَبَد المائل إلى اللون الأسمر على أفواه الشبان في القداس، وربات البيوت المسحوقات اللواتي كنَّ من قبل بالكاد يُسمعنَ يقلن أكثر من "عشاءك سيبرد" بدأنَ يبربرن بهذيانٍ بكل اللغات. بدا الأمر للأذن الشكّاكة أنه بصورة مُريبة أشبه بنسخة مُحرَّفه من كتاب لغة المقاطعات المحلية الإنكليزية. كان الناس في كل مكان يتأمّلون، يسبحون في الهواء، ويستمنون بفرح. لم يعُد أحدٌ يُصدِرُ أحكاماً أخلاقية جازمة. وسُئلَ أحد الأساقفة ذوي الفكر المُتحرِّر عَلَناً بماذا يحكم على زوج متورطين في علاقة جنسية خارج رباط الزواج، فأجاب بأنه بدل إدانتهما من وِجهة النظر التقليدية المتغطرسة يودّ أنْ "يُجاريهما". وأجاب أسقف زميل حين سُئل السؤال نفسه، بأنه يودّ أن "يتعرّى أمامهما". وبعد أنْ اقتنعَ اللاهوتي الرئيس للكنيسة الكاثوليكية الإنكليزية بالتدريج بأنَّ الكنيسة لا تقلّ إحساناً كمؤسسة عن القديس كوينتن، تخلّى عن كل شيء باشمئزاز وفرَّ مع امرأة تُدعى فلورنس. وهدَّدَ عنوان

الصحيفة البابوية بالقول "البابا يقوم بزيارة فلورنس"، ولكن اتَّضحَ أنَّ المقصود هو مدينة فلورنسا. وبينما الطلاب ينفّذون الاعتصامات، كان المسيحيون التقدّميون يؤدون الصلوات على خشبة المسرح.

الكاثوليكيون الذين نظَّموا قداديسهم الخاصة كانوا يستخدمون شرائح الخبز الرخيصة من أجل القربان المقدَّس، في إيماء إلى التضامن مع المعدمين. وكانت تُقام المزيد من القداديس الفخمة بالخبز الأسمر الكامل أو بعددٍ من الكرواسانات اللذيذة. وأثار بضعة من الشبان الأتراك اللعوبين، التواقين إلى التماسّ مع الجماهير، الضجيج من أجل استخدام الهمبرغر والكوكاكولا في القربان المقدَّس، لكنَّ الآخرين أسكتوهم وأصروا على أنَّ هذه الأشياء غير مقبولة ليس لأنها غير تقليدية بل لأنها لا تشكّلُ طعاماً وشراباً. ثم، وبحركة ثورية، أصدر الفاتيكان مرسوماً تشريعياً يقرُّ فيه بالسماح باستخدام الخمر والخبز في القربان المقدس. في البدء كانت هناك مشاكل في تنفيذ هذا التشريع المثالي الجديد. وأحد الكهنة العجائز في كاتدرائية ويستمنستر، الذي كان يهتز بتأثير الهستريا في أثناء إقامته قداسه الأول بالخمر من أجل الناس، غالى بشكل غريب في المؤونة وملأ عِدَّة كؤوس قربان كبيرة منها. ولكنْ اتَّضحَ أنَّ عدد المصلين كان ضئيلاً في صباح ذلك اليوم، وبما أنّ كلاً منهم تناول فقط رشفة حييّة من السائل غير المألوف، وجد الكاهن نفسه يُعيد ملء ستة من كؤوس القربان المقدس وثلاثة أرباع الكأس من الخمر المُقدَّس إلى المذبح بعد التناول. وبما أنَّ ذلك كان دم المسيح، لم يستطع طبعاً أنْ يصبّه في المغسلة أو أنْ يضعه جانباً ليشربه لاحقاً. وبدل ذلك، وبدأ بكل احترام يعبُّه، كأساً بعد كأس، إلى أنْ تمسَّكَ بالمذبح ليحافظ على توازنه. وبعد انتهاء المراسم حملتنه مجموعة من الخُدّام إلى غرفة المقدسات وملابس الكهنة ووضعوه على كرسي، حيث يستطيع أنْ يقضي فترة احتفاله بالقربان المقدَّس نائماً.

* * *

كان الـ eminence grise (القوة المستترة) الكامنة خلف التيارات الأكثر سياسيّة لحركة التجديد هذه أخٌ دومينيكاني اسمه لورنس برايت. ولم أعلم إلاّ بعد أنْ أصبحنا أصدقاء بسنواتٍ عِدّة أنَّ اسمه في الواقع هو رونالد، وأنَّ لورنس هو اسمه الديني. جاء هذا كنسخة معتدلة من الهزّة العنيفة التي يتلقّاها المرء لدى اكتشافه أنَّ زوجته هي قاتلة مُحترفة، أو أنَّ عمَّته هي في الحقيقة أمّه . كان طويل القامة، رشيقاً، نصفه ملاك، ونصفه ساطير، وذا رأسٍ كبير بشكل غير مُحتمل، وشائب قشّي اللون، وعينين زرقاوَين كبيرتين، faux-naif (تنمّان عن سذاجة) وتفيضان بالشهوة، ومنخرين مُبهرين شبيهين بمنخري مهرّج وفم حسّي ناتئ. وكان يهدل ولا يتكلّم، ونجسمه طويلاً جداً، كثير العُقَد ومطاطياً وكأنه يُعاني من مشكلة دائمة في الاحتفاظ بأجزائه وقِطَعهِ المتعددة الشاردة. كان خبيراً له سخافاته الصغيرة، ويثب عليها وهو يُطلِق صرخة الابتهاج كنباتيّ اكتشف نوعاً نادراً من النباتات. كان يتَّصِف بسلوك المخيمات، الخبيث بشكل مهذَّب، مع أنَّ منشأه الشكل المربَّع وليس الشذوذ – إنْ كان في الإمكان التمييز بينهما في هذه الأيام، وكان يتسكّع بسخرية في شارعٍ تحفُّ به الثلوج وهو لا يرتدي إلاّ بذلة كنسية رثة وعلامته المميّزة وشاحُهُ الأزرق والطويل بشكلٍ سرياليّ. البذلة كانت شديدة القِصَر في الكُمّين، بحيث بدا أقربَ إلى يتيم ديكنزيّ متضخّم. كان وسطاً بين فاسق إدواردي والدكتور هو[11] Dr.Who، وبدا أنَّ سبب غياب شمسه كراهب عائد إلى ثقوب الديدان الكونية أو مثلث برمودا أكثر من كونه لغزاً.

في الواقع، كان قد بدأ لا أدرياً ملتزماً. وكان عالماً فيزيائياً في مجال

(١١) دكتور هو: اسم بطل المسلسل الذي يحمل الاسم نفسه، وهو مسلسل في الخيال العلمي يُعرَض على شاشة البي بي سي البريطانية منذ سنوات عديدة. المترجم

الذرة في جامعة أوكسفورد، وفي ذلك الوقت كان بكل وضوح يقف إلى أقصى يمين حزب المحافظين. ولكن جاء وقت وأصبحَ إنغليكانياً، ربما، كما رأى البعض، كردّة فعل لبعض الاستخدامات العسكرية لإنجازه العلمي. في الواقع، كان يعمل على إنجاز القنبلة النووية. ثم، بصورةٍ ما، انتقلَ من المذهب الأنغليكاني المحافظ إلى الكنيسة الكاثوليكية وسياسة الجناح اليساري. لعلَّ سبب هذا يعود جزئياً إلى صفاء بصيرته العقلية الذي لا يلين: وحالما أقنعَ نفسه بأنَّ الرأسمالية سيئة السمعة أخلاقياً، رمى بماضيه الكريه خلف ظهره برشاقة متميِّزة و لم يلتفت خلفه أبداً. ولكن، على الرغم من هيئة الـ flaneur (التبلُّد) الروحي التي يحملها، كان يكتنفه جوٌّ من الكمال، والذي ربما يُساعد على تفسير تلك التبدلات السريعة الغريبة للولاء. لقد كانت الكاثوليكية الرومانية بمثابة الابتعاد خطوة منطقية عن الأنغليكانية، وكونه توصَّلَ إلى أنْ يوسَم كاهناً و لم يكتفِ بالتهليل من مقاصير الكنائس مثَّلَ دفعةً أخرى للأمر إلى حدوده الصلبة.

إنَّ شيئاً يتَّسِمُ بالكراهية نفسها للموقع المتوسط قد يفسِّر انتقاله الصعب والغريب من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، على الرغم من أنَّ هذا أيضاً يتَّصِف بمنطقه الخاص. وبمعنى من المعاني، نقلَ ازدراءه الوايلدي لجماهير المدينة من احتقار النخبويّ إلى سياسة الثوريّ، وهو ما فعله وايلد حقاً. وكون لورنس اشتراكياً متحرّراً أمدَّه ببساطة بمجموعة جديدة كاملة من الأسباب ليجد الطبقات الوسطى مسلّية بشكلٍ لا يُقاوَم. وهكذا أمكنَ تحويل غطرسة الأرستقراطي إلى شجاعة متحرِّرة. لقد شاهدتُ ذلك يحدث على مرّ السنين مع عددٍ من الماركسيين في المدرسة الثانوية، الذين تربّوا على عدم الخوف من أحد بحيث يستطيعون بالتالي أنْ يضعوا هذه اللامبالاة التي يُحسَدون عليها في خدمة اليسار السياسي. وراديكاليّ طبقة العمال السابق هو الذي يتساءلُ ما إذا كان عليه أنْ يضع ربطة عنق للترويج لكتابٍ

أصدره الجناح اليساري. ولعلَّ لورنس كان واعياً لتنافره، بوصفِهِ مزيجاً عجيباً من برايدزهيد[١٢] وبوليفيا، وبطل رواية إيفلين وو آنتوني بلانش ومحارب من رجال العصابات. كان دون شك يعلم أنَّ هديله المتواصِل، وإقامته في خيمة وضحكه الساخر ستكون متنافرة بشكل غريب مع المكان في أثناء انعقاد اتّحاد العمال، لكنَّ الخصائص التي تعكسها هذه الأشياء كانت أيضاً تعني أنه لا يُمانع. على أي حال، كان الحزب الشيوعي البريطاني في ذلك الوقت، الذي كانت لنا نحن اليساريون الكاثوليك صِلة مضطربة وجيزة به، يعجُّ بالأنماط التي يمكن أنْ يُرشّحها مركز توزيع الأدوار لأداء الأدوار الثانوية كمُلاّك أراضٍ في المقاطعات، أو رؤساء كشّافة أو دونات ضليعين في الكلاسيكياتَ. في الواقع لقد كان بعضٌ منهم بالفعل رؤساء كشّافة وأساتذة جامعة ضليعين في الكلاسيكيات.

لعلَّ لورنس كان شخصاً غريب الأطوار في اليسار، لكنه مع ذلك مُنِحَ وِسام الرجلِ الآخر الذي تركَ أثره عليّ في أغلب الوقت، ريموند ويليامز. وقد قابلَه ويليامز لفترة وجيزة، وعلَّقَ لاحقاً على ذلك بأنه "رجل حقيقي". ولما كان ويليامز يكره أنْ يخلع صفة الحقيقي على غالبية مَنْ قابلهم في كامبريدج، كان ذلك تقريظاً صادقاً. ومثلي، شعر ويليامز بانزعاج من الأعراضيين[١٣] الفخمين لحياة الطبقة الوسطى الإنكليزية. في الحقيقة لقد أحزنني تصرّفه ذاك، لأنني أملتُ في أنه مع بلوغي سنّه الآن سيكون قد تضخّمَ لديَّ دافع لتحطيم وجه كل مَنْ ينهق بدل أنْ يتكلّم في المطاعم، ويتباهى بربطة عنقه أو يقول "نادراً"

---

(١٢) برايدزهيد: إشارة إلى رواية إيفلين وو (زيارة أخرى لبرايدهيد). المترجم
(١٣) الأعراضيون: هم المختصون في دراسة الإشارات والرموز، خاصة الصلة بين الإشارات المنطوقة وتلك المكتوبة وعلاقاتها بالعالم المادي أو بعالم الأفكار. المترجم

حين يقصد "حقاً"، وقد مثَّلَ ويليامز دليلاً مشؤوماً على أنني قد لا أفعل. لكنه كان من الدهاء بحيث يستشفّ سلوك لورنس المرتوني(١٤) الأنيق ويرى ما يكمن خلفه من التزام راسخ. كان يرى أنه ينتمي إلى فئة العميل السري الغندور الذي يُثيرُ جَلَبة حول نوع الخردل الذي يستعمله ولكنه يستطيع أنْ يقتلك بعود ثقاب. وطبعاً كان في استطاعة لورنس أنْ يهز أركان فِكر الناس بعنف في وقتٍ يبدو عليه أنه فقط يتسلّى، ولا يبرؤون من ذلك إلاّ بعد أسابيع.

على أية حال، وليامز نفسه كان يعلم كل شيء عن عبور إشارات الصف الدراسي. كان مصدر ذهول خفيف دائم لزملائه في كمبريدج، بما أنه على الرغم من أنه كان يتمتع بفكرٍ من الطبقة العالمية إلاّ أنه كان أيضاً يُطيلُ شَعره حتى ياقته، ويلفظ حرف "راء" كأهل كورنوول، ويرتدي كنزة ذات ياقة طويلة تُطوى ويبدو أقرب شَبَهاً بمزارع منه إلى أستاذ جامعة. لقد كان يمتلك الصوت الخطأ للنغم الرسمي الهادئ، والوجه الخطأ لوقفتِهِ الهادئة الرائعة. وحضوره ذاته شوَّشَ الفئات التقليدية، وكان تجمّع أقرانه من أساتذة الجامعة حوله مُتسائلين كتجمُّع علماء الحيوان حول دولفين يصلح صوته الرتيب المنخفض النبرة أنْ يكون تلاوةً للإلياذة.

على الرغم من هيئته الخليعة باعتدال، عاشَ لورنس حياةً بائسة، عيش الكفاف. لم يكن لديه عمل حقيقي داخل الرهبنة الدومكينيكية، ولكنَّ هذا كان يعني أنه استطاع أنْ يعيش حياة راهب حيوية حتى الزبى. وبوصفِهِ وسطاً بين أوسكار وايلد ورجل دين حرّ الحركة، ارتقى في أثناء مسيرته، مُتنقّلاً من إقامة الصلاة إلى التظاهر ضد الحرب بارتجالٍ متألّق. وقد سمحَ له ثبات الطبقة الراقية التي

(١٤) المرتوني: نسبة إلى القسم الجنوبي الغربي من مدينة لندن الكبرى. المترجم

ينتسب إليها أنْ يعيشَ دون ملاذ أو حنين إلى الماضي. وعلى الرغم من أنه بدا مكتفياً بذاته بدرجةٍ خارقة، فلابد أنه كان يشعر بالوحشة، ولكنه بقيَ رابط الجأش في هذا المجال. وكالعديد من رجال الدين، عوَّضَ عن فقدان وسائل الراحة التقليدية بكونه مُختلساً عالي المهارة، يستطيع أنْ يُريحكَ من ثمن وجبة مُكلِفة بالسرعة نفسها التي يقول بها كلمة eschatology (الإيمان بالآخرة وبالحساب)؛ لكنَّ الكاثوليكيين يفهمون أنَّ رجال كهنوتهم في حاجة إلى المواساة بسبب حرمانهم الجسدي، ولا يكرهون أنْ يمنحوهم بضع شلنات. وعندما كنتُ أسافرُ بالحافلة وأنا طفل مع والدي، ويصعد زوجٌ من الكهنة أو حفنة من الراهبات إلى الحافلة، كان والدي دائماً يدفع الأجرة نيابة عنهن، ويومئ لهنَّ بحياء بأنه سيفعل ذلك، على الرغم من إنهنَّ كنَّ واثقات تقريباً من أنهنَّ في حال أفضل بكثير ماديّاً منه.

لقد كان لورنس، في الحقيقة، انتقائيّاً نوعاً ما في حرمانه الجسدي، وانتهى به الأمر إلى إقامة علاقة سرية مع صَبيّة جاءت إليه لتلقّي إرشادات في الايمان الكاثوليكي. وكنتُ أعرفُ أمثلة عِدّة من هذا النوع من النتائج الروحية غير المرجوّة في ذلك الوقت. كان الأمر أشبه باستشارة طبيب نفسيٍ لمعالجة الإدمان على الخمر فإذا بكَ تجد نفسك في ورطة فخمة معه. وقد أخبرني كاهنٌ آخر بسخرية جادّة، وكان عالِماً سابقاً مثل لورنس وجدَ نفسه في مثل هذا الموقف، أنه بما أنه وزبونته كانا يناقشان تعليم الكنيسة فيما يخص الأخلاق الجنسية، اعتبرَ اتصالهما الجنسي بأنه "تطبيق عمليّ". وقد ذكّرني بالوقت الذي أوشكتُ فيه أنْ أتزوج من كاثوليكية، فقال لي الكاهن المحلي أنه بما أنني ترعرعتُ في الكنيسة، "فإنني لن أحتاج إلى الدروس الإثني عشر، بل فقط إلى ست". وبدت لي فكرة أنَّ في إمكان المرء أنْ يتلقّى دروساً في الزواج غريبة، وتساءلتُ ممَّ تتألّف. حتماً لا يجري تجريب الجنس في غرفة المقدَّسات؟ فن الطبخ، ربما؟

اتَّضحَ أنَّ الأمرَ يتعلَّقُ بإرشادات في لاهوت الزواج، على الرغم من عدم إيماني بتقديم الراهب أوراق اعتماد لاهوتية. وفي زيارتي الأولى إليه، مررتُ بشاب، من الواضح أنه كان يخضع للإرشاد نفسه، يخرج من غرفة الكاهن وعلى وجهه تعبير يائس مرتبك وواهن، بينما وقفَ الكاهن على باب غرفته يجأر خلفه بنبرة شمالية عريضة، "لا تقلق، الأمر كله لغز! كله لغز!". هذه الكلمات شكَّلَتْ الصيغة القياسية لشرح أية تفاهاتٍ أو أشياء مُنافية للمنطق مُباحة في المذهب الكاثوليكي. فإذا لم تتمكّن من تصديق أنَّ الله يرتدي حمّالة للأعضاء التناسلية من قماش الطرطان، تستطيع أن تواسي نفسك في التفكير في كيف ولماذا كان ما فعله لغزاً مُغلقاً. وقد سمعتُ ذات مرة هذا الكاهن نفسه يُلقي موعظةً حول ارتقاء يسوع إلى السماء، بدأتْ بالكلمات التالية: "هناك الكثير من الأشياء نودُّ أنْ نعرفها عن ارتقاء ربّنا، مثل كيف نجحَ في فعل ذلك؟". لم تكن بالضبط نبرة صوت لورنس برايت اللاهوتيّة العالية.

أصدرتْ مجموعةٌ منا، غالبية أفرادها من غير المتخرّجين الكاثوليك من جامعة كمبريدج، تلبيةً لاقتراح من لورنس، صحيفةً كاثوليكية يمينية تُدعى سلانت، استمرَّ صدورها طوال أغلب حقبة الستينيات وسبَّبَتْ شيئاً من التوتُّر في الأديرة. وفي النهاية تبنَّتْ مجلّة إباحيّة اسم المجلة، بل التصميم نفسه في الواقع، ولمحها لورنس ذات يوم في واجهة محل في حي سوهو وقام بمرح بتوزيعها على المُحرّرين السابقين. واليوم يكتب الناس أطروحةً لشهادة الدكتوراه غريبة الأطوار حول اليسار الكاثوليكي، الذي أعتقد أنه يخرج من النسيان. ولكن لورنس برايت هو الذي حرَّرَني أخيراً من استقامتي البابوية العنيدة. لقد كنتُ اشتراكياً، أؤكد لك، لكنني كنتُ توّاقاً إلى معرفة إلى أي مدى يستطيع كاثوليكي أنْ يميل نحو اليسار دون أنْ يسقط عن الحافّة. فسألتُ لورنس، الذي أجابَ بهديلٍ وبإيماءةِ فارس، "أوه، إلى أبعد ما تشاء".

بدا أنه لا يوجد حافّة أصلاً. وجواب العهد الجديد عن سؤال ديفيد لودج "إلى أي مدى تستطيع أن تذهب؟" هو، طبعاً، ليس بعيداً بقدرٍ كافٍ. والكاثوليكي وحده يعتقد أنَّ الأمرَ يتعلّق بالجنس.

توفي لورنس متأثِّراً بسرطان المعدة وكان لا يزال صغيراً جداً. توفي بطريقته الشجاعة، الرشيقة، الدالة على حسٍ سليم كامل. وقُبيلَ موته قام بزيارتي في أوكسفورد مع شريكته، عازفة الأرغن الراسخة. راقبتُه يقفُ وحيداً في مصلّى الكلّية وهي تعزف إحدى المقطوعات المفضَّلة لديه على الأرغن، مُطأطأ الرأس، محدودِب الكتفَين، ولا يزال يرتدي زيّه الكهنوتي الرث على الرغم من اختلافه مع المعتقَد، يبدو عاديّاً كعلامة استفهام متطاولة. كان يعلم أنه يحتضر، مع أنني لم أكنْ أعلم. سوف يبقى دائماً واقفاً هكذا، يُصغي وهو محني الرأس، في بالي.

- ٢ -

الكاثوليكيون

الفتى الذي كان أوَّلَ مَنْ كشفَ لي عن حقائق الحياة كان بروتستانتياً بكل وضوح، لأنه بدا أنه لم يقرأ أي شيء من الكتاب المقدَّس. وبينما أخبار التناسُل البشري التي يقف له شعر الرأس تُغيرُ على أذنيّ الشائنتَين، لجأتُ إلى الحماية الوحيدة المتوفرة لي. أجبتُه بعنف "حسن، ربما هكذا يفعل البروتستانت... "

وكما أنَّ الدير لم تكن له إلاّ صِلة واهية بالواقع، كذلك الأمر مع الكاثوليكية في العموم. بدا أنَّ مذاهبها السرّية لم تعد قابلة للتطبيق في الحياة اليومية أكثر من قدرة عِلم المثلثات على كَيّ بنطلونك. وكالسحر، كان نظاماً عالي التحديد لكنه يُشدِّدُ على الذات بشكلٍ تام، مع كل الصفاء الاستثنائي للهلوسة. والكاثوليكية ليست عن الأعمال الطيبة بقدر ما هي عن كيفية الإبقاء على الجمر في مِبخَرتك مُشتعلاً وإلاّ أمضيتَ خمسين عاماً أخرى مما قُدِّرَ لكَ من عمر في المَطْهَر؛ ليست عن الإحسان بقدر ما هي عن الشمعدانات. لقد كنا ورِعين وقُساة القلوب، ذوي فِكر متزمِّت وخسيسين، نعيش بطهارة ووثنيين. كانْ هناك دقَّة مجنونة في نظام الايمان الكنسي، كما في كتب الجغرافية المدرسية التي تسجِّل علوّ قمة جبل إفريست بأنها بالضبط ٢٩٠٠٦ قدم، أو مثل قائمة مواعيد تحرُّك القطارات في محطة السكة الحديد في منطقة متداعية من العالم التي تُعلن أنَّ موعد مغادرة قطارٍ ما بأنه الساعة ٠٣، ١١ صباحاً. إنه يشبه الدقّة المجنونة للمُصاب

بالذُهان الذي حساباته الرياضية معصومة عن الخطأ، ولكنه يُنفّذها وهو جاثم على إفريز النافذة على علوّ ثلاثين طابقاً. وبالنسبة إلى البعض، قد يبدو هذا وصفاً معقولاً لنظرية الأدب.

هذا كله أفرزَ نوعاً من العُصاب الفكري، كالتساؤل إنْ كان إعلان البابا عن عصمته الخاصّة عن الخطأ نفسه معصوماً عن الخطأ. وكمعظم الأطفال الكاثوليك، أدليتُ باعترافي الأول وأنا في سن السابعة، الذي تحكمُ عليه الكنيسة بطريقةٍ سابقةٍ للفرويدية بأنه سن التعقُّل. لكنني كنتُ قلقاً بشأن المدى الذي يجب أنْ أعود إليه في الماضي لكي أتذكّر آثامي، بما أنني لم أكن متأكّداً بالضبط متى، من الناحية العِلميّة، يمكن القول إنَّ عيد ميلادي السابع قد بدأ، أو ما إذا كان يمكن لعملٍ ارتُكِبَ في لحظةِ صيرورةِ هوية عاقلة أنْ يكون آثماً. لقد كان كوناً بيكيتياً[١٥]، في وقتٍ واحد صارماً وعبثيّاً. كان كل شيء نهائيّاً ومُراوغاً، في مزيجٍ غريبٍ من الغموض والشفافية.

لعلَّ بهذا المعنى كان العالم المعتاد للطفولة شديد الوضوح، بما أنَّ الطفولة هي مزيج من الحقائق البديهية وعجز مُرعب عن الإحاطة بما يجري. وكما قال بيكيت، أيضاً، كان عالَماً من الطقوس الإلزاميّة، وليس من الأعماق المتألّمة. وبروحٍ مُعاديةٍ بعمقٍ للديكارتيّة، قمتَ بالعمل اللازم وسوف تتبعه حالة العقل المناسبة. وكما في تقنية التمثيل عند لورنس أوليفييه، تقومُ بالبناء من الخارج ونحو الداخل، وهكذا تبقى على خِلاف مع النظام الاجتماعي مما يجعل من الداخل معبوداً. أبقي جمرَكَ مُشتعلاً وبخورَكَ جافاً وثِقْ بأنَّ الباقي سوف يُوهَب لك.

وهكذا، تصبح مُرتاباً بالوهج الدافئ، باليقين البديهي، وبالخبرة

(١٥) بيكيتياً: نسبة إلى الكاتب الأيرلندي صمويل بيكيت. المترجم

الخاصة المعصومة عن الخطأ. كان لابد من مناقشة الحقيقة علناً لصالحها، واحترام التفكير، ومعايير الحالات الداخلية تكمن فيما تفعل. كان يمكنكَ أنْ تُعمّد طفلاً وليداً يحتضر في الرَحِم بإقحام حقنة مملوءة بالماء إلى مهبل الأم، بما أنَّ المهمّ هو الفعل نفسه، وليس العلاقات الإنسانية أو قرائن المعنى. وهكذا كان السحريّ والماديّ يتحالفان بقوة. وذات يوم أحد عنصرة، قابلَ كاهنٌ كاثوليكي أعرفه في الشارع نظيرَه الأنغليكاني، الذي رفعَ يده مُحيّياً وناداه بابتهاج: "المسيح قام". وقد علّقَ الكاهن على هذا لاحقاً سرّاً بشكلٍ بيّنٍ: "لوطي تافه". لم يكن الدين يتحمّل التعامل معه بقذارة وبصورة شخصيّة؛ كان أقرب شبهاً بإطلاق سفينة منه بالوقوع في الحب، ومجموعةٍ من الشعائر العامة يجب أداؤها بدقّة. وخِلافاً للكاهن الأنغليكاني، لم يكن المرء يصفع يدَ أحدهم بكلتا يديه في اللقاء الأول ويُحدّق إلى عينيه بنظرة خالية من المعنى.

كانت كراهية الكاثوليك للمذهب الذاتي يتماشى وحساسية الطبقة العاملة من التباهي الشعوري، وكلاهما كانا مُدعّمين بتفان أيرلندي للقبيلة بدل الفرد. والتوجه للاعتراف كان خالياً من أية إثارةٍ للعاطفة كشراء رطل من الجزر. وحتماً لم يكن يتّصِف بأي معنى من معاني الاعتراف وإلاّ للاحظته أوبرا وينفري . كان الضغط المتطرّف المُوجّه إلى الممارسة المادّية، وإلى الأبعاد الفرديّة الرمزية، والجمعيّة والعامة، منضفراً مع تجرُّدِ صلب جدير بجعل حتى الستالينيّة تبدو عاطفيّة. وعارضَتْ الكنيسة بشدّة كل ذاتيّة زائفة، وكانت لا مبالية بالمشاعر الفردية كما بالاضطراب العقلي. وإحدى المحاولات لأنسنة الدين التي أتذكّرها هي عن الكاهن الذي حاولَ أنْ يقنعنا بالتخلُّص من الأفكار النجسة وذلك بتذكيرنا بأنَّ "العذراء المباركة أيضاً كان لها ثديان ". وكان ذلك علاجاً فعّالاً للشبق المراهِق مثل حثّ سكّير على تذكُّر اللمعان الأسمر المصفرّ لكأسٍ من ويسكي غلينفيديتش.

كانت الكاثوليكية عالماً يجمع بين الفكر الدقيق والرمزية الحسّية، بين التحليليّ والجماليّ، لذلك لم يكن من باب المُصادفة أنني لاحقاً أصبحتُ منظّراً أدبيّاً. لم يكن هناك تضارب بين العقل واللغز. لم يكن هناك خطر من اغتيال الله، أو قصيدة، بالتحليل. فإذا شجّعتكَ النزعة العالميّة لإيمانك على معاملة الخاص بخشونة، فإنَّ كل تلك الأيقونات المُزخرفة تُذكِّرُكَ بما يمكن أنْ يُرى ويُعمَل، بالعالم المادّي كعنصرٍ دالّ أو كَسِرّ مقدَّس. إلاّ أنها مع ذلك كانت تلك ثقافة لا إنكليزية بعمق. وكونَكَ كاثوليكياً لم يكن يعني بالضرورة أنَّ عليكَ أنْ تكونَ إنكليزياً، كما أنَّ اليهودي ليس كذلك. إنهما معاً ثقافتان بديلتان، كنقيضٍ لكونكَ، مثلاً، أبرشيّاً، وهذا لا يمثّل أية ثقافة.

ولكن على الرغم من أنكَ أنتَ نفسك كنتَ تشكّلُ أقلّية، فإنكَ لم تنشأ لكي تجلّ المزهوّ بنفسه أو المفرط الحساسية بشكلٍ مُحبَّب، أو لكي تبتهج لفكرة وجود مثل هؤلاء الناس الغريبي الأطوار، أو تستحسن بصخَب مَنْ يقف منفرداً. كان المرء إنكليزياً أكثر بطريقة ليست مُثيرة كثيراً للإعجاب، لأنَّ ما وجده ملايين الرجال والنساء مناسباً للإيمان به عبر القرون بدا مرشداً أفضل إلى الحقيقة من الأفكار المُزخرفة التي حلُمَ بها المتوحّدون الغريبو الأطوار بين ليلة وضحاها. لكنَّ المرء لم يكن ليبرالياً إنكليزياً في استساغة الأغلبيّة بوصفها فضيلة بحدّ ذاتها، أو في الاعتقاد بأنَّ العالَم سيكون غريباً إذا خطرتْ الفكرة نفسها على رؤوس الجميع. على العكس، كان يعتبر أنَّ العالم سيكون رائعاً إذا خطرت الفكرة نفسها على رؤوس الجميع. كان يعلم أنَّ العالَم يتطلَّب وجود الأنواع كلها، لكنه اعتبرَ هذا من سوء الحظ وليس فضيلة.

لعلَ هذا ليس موقفاً بدائياً كما يبدو. فإذا كان التنوُّع الثقافي يشكّلُ جزءاً مما يجعل الحياة تستحق أنْ تُعاش، فإنه أيضاً أوصلَ عدداً هائلاً من الحيوات إلى نهاية دموية. والدعوة إلى الاحتفاء بمثل هذا التنوُّع

هي الآن الكليشه الوحيدة التي تردّدها أفواه المُنظّرين والسياسيين، ولكن فقط حين يُسلِّم بوجود التبايُن الثقافي، بدل إقراره بتحدٍّ، لن يعودَ مصدراً للصراع. ومن المُرجَّح أيضاً أنَّ عدداً أقلّ بكثير من الناس كان سيُذبح أو يتعرَّض للإهانة لو أنَّ البشر جميعاً كانوا من السود، والمثليِّين جنسياً، ومن الإناث منذ البداية، بعيداً عن بضعة ذكور والمستقيمين جنسياً هنا وهناك للمحافظة على النوع. وإقرار التبائن الثقافي دون الإشارة إلى أنَّ الثمن الرهيب الذي كان علينا أنْ ندفعه هو نوعٌ من العاطفيّة الليبرالية التي تدرَّبَ الكاثوليك، على الرغم من كل انحرافاتهم، على اكتشافها.

إنْ كنتَ قد نشأتَ كاثوليكياً، فأنتَ تفتقرُ إلى كل إحساس غريزي بالحساسية الليبرالية. وإذا كانت هذه خسارة ثقيلة، فإنها أيضاً تسمح لكَ برؤية مكمن الخطأ. لم تكن الأحاديث تعجُّ بالمؤهَّلين المتوترين عصبياً أو ملغومة بالمُتنصّلين المتردّدين. لم تكن هناك فضيلة معيَّنة في التردُّد. إنكَ لا ترتاب في إيمانك لبرهة، ليس لأنكَ ثابت بصورة رائعة بل لأنه ليس هناك ما يمكن الشك فيه، إلاّ إذا شككتَ في وجود شعر العانة أو في الأرقام الصمّاء. إنَّ الايمان يلتصق بما ترى أنكَ تعجز عن الابتعاد عنه، مهما بذلت من جهد. وما نرى أننا نعجز عن التخلّي عنه حتى ونحن نحتضر، حين تكون أنفسنا التي نتخلّى عنها، يُحدِّد هويتنا؛ وعموماً ليس هذا في يدنا اختياره، كما نختار قبعة أو تسريحة شعر. ولكن لا يمكن الايمان بما لا يمكن منطقياً إنكاره. ولا يمكنكَ أنْ تشك في التزامكَ الشخصي بالله لأنه لا التزامَ شخصياً لك اتجاهه، كما أنه لا التزامَ شخصياً لك اتجاه قنال بناما أو مفهوم حَسَر البصر. إنكَ لا تُقدِّرُ شيئاً لأنكَ اخترته، بل تختاره لأنكَ تعتقد أنه قيِّم. ولاحقاً، حين كنتُ طالباً في جامعة كمبريدج، غازلت قليلاً الوجودية، ولكن تلك كانت فقط طريقة طنّانة لإعلان أنني مُبتئِس، ومُرتبك في أواخر

مراهقتي، كما كان حال ما بعد–البنيويّة بالنسبة إلى جزء من الجيل اللاحق.

إذن يستطيع المرء أن ينتقل بحرّية تامة، من الكاثوليكية إلى الماركسية دون الاضطرار إلى المرور بالليبرالية. والممر من عقيدة الترنتيّة(١٦) إلى التروتسكيّة أقصر مما يبدو. والمدرسة التي كنتُ ألتحق بها أنجبت مُحامياً في المحاكم العليا اشتراكياً بارزاً، ومُنظِّماً يعمل دواماً كاملاً للمجموعة الماركسية العالمية، والعضو اليميني الأهم في الهيئة التنفيذية لاتحاد المعلّمين الوطني، وحفنةً من الفلاسفة الراديكاليين والاقتصاديين، وأنا. والأصدقاء الذين يكتشفون اليوم أننا جميعاً كنا نلتحق بالمدرسة نفسها يتصوَّرون أنها كانت المكان الذي يتخدَّر فيه التلاميذ ويتدلّون وهم حُفاة من الأشجار طوال النهار، ويصوتون للقضاء على دروس الفيزياء، يجلسون أزواجاً على المرج ويُطلقون على أساتذتهم أسماء جين وسام. لكنَّها كانت مجرَّد مدرسة ثانوية كاثوليكية مغمورة تنقل بتهوُّر حسّاً من الغربة الثقافية إلى طلاّبها، بالإضافة إلى بعضٍ من الأدوات المفاهيمية يمكنهم بواسطتها أنْ يُضفوا المعنى إليها.

على الرغم من الأوتوقراطية الجاهلة التي تتصِّف بها كنيستهم، فإنَّ الكاثوليكيين هم المرشّحون الأوائل لليسار السياسي. إنهم في المعتاد، على الأقلّ في بريطانيا، من جماعة المهاجرين من الطبقة العاملة، وتعلّموا أنَّ يُقدِّروا الفِكر المتماسك، وأنْ يشعروا بالارتياح مع الأبعاد الرمزية، الجمعيّة، للوجود الإنساني، ويحترسوا من مذهب

---

(١٦) الترنتيّة: نسبة إلى التئام مجلس الكنيسة الكاثوليكية ما بين عاميّ ١٥٤٥ و١٥٦٣ في مدينة ترينت، حيث اتخذ موقفاً موحّداً ضد البروتستانتية، وشدد على المعتقدات الكاثوليكية التقليدية وصاغَ المبادئ المناهضة للإصلاح. المترجم

الذاتانيّة[١٧]، ويفهموا أيضاً أنَّ الحياة الإنسانية مؤسساتيّة في أساسها، ويجلّون التراث المشاعي ويفضّلونه على الإلهام الفردي، ويعتقدون أنَّ الأشياء كئيبة بصورة مُرعبة ولكن يمكن أنْ تكون أفضل بدرَجةٍ تفوق التصوُّر. وكالإشتراكيين، هم في أسفل السافلين وبعيدون عن الذوق الليبرالي-التقدُّمي، وممتلئون بالأمل أيضاً. وورثوا أيضاً تراثاً عقيماً من الفِكر الأخلاقي والسياسي، وهم ليسوا خائفين من التفكير بطموح. وبوصفهم يمثّلون المؤسسة الثقافية الأطول بقاءً على مدى التاريخ، واستطاعوا أنْ يعبروا أناى جيوب الفراغ والزمان، يعرف الكاثوليك الكثير عن التغيُّر التاريخي، ولكن أيضاً الكثير عن الاستمرارية. بتلك السُبُل كلها، أنماط قليلة يمكن تجنيدها لمراتب مذهب ما بعد الحداثة بسهولة أقل. ولا يمكن إنكار أنَّ دفعهم إلى الايمان بالعِصمةِ البابوية وبرفع مريم العذراء إلى السماء بعد موتها، ناهيك عن تعلُّم تبرير التعذيب والوحشية الأخلاقيّة، وتعرّضهم للاغتصاب الجنسي على أيدي الكهنة أو الضرب على أيدي الراهبات الساديات، كان ثمناً باهظاً لهذا التعليم، ولكن يجب تلقّي الركلات مع النقود.

لكنَّ الكاثوليكيين أيضاً يميلون نحو اليسار بسبب مقتهم الغريزي لليبراليّة، وهو معاً أمرٌ مُثير للإعجاب ومُعيق. إنهم يصلُحُون فاشستيين جيدين، وهو نوع اجتذبته الاشتراكية إليها بأعداد كبيرة. وأحد مصادر ارتباك اليسار أنَّ مشروعه المعقول جداً يمارس سحراً لا يُقاوَم على أولئك الذين يحتاجون إلى حلّ عقدة الأب عندهم أوتناقضهم الكلاينيّ[١٨] Kleinian. إنَّ أي مذهب إشتراكي يفشلُ

(١٧) الذاتانيّة: مذهب فلسفي يُقيِّم المعرفة كلها على أساس من الخبرة الذاتيّة.

(١٨) الكلاينيّ: نسبة إلى العالمة النفسية ميلاني كلاين (١٨٨٢ - ١٩٦٠) رائدة التحليل النفسي للأطفال. من بين ما ادّعتْ أنَّ العدوانية الجنسية وعقدة أوديب تبدأ مع الأطفال من سن السنتين على عكس ما قاله أتباع فرويد. المترجم

في أنْ يقوم على أساس الإرث الليبرالي العظيم، الذي يُقرِّظه ماركس أيَّما تقريظ، في الغالب سيتضح أنه مفلس. لذلك يحتاج الكاثوليك واليساريون إلى أنْ يتعلَّموا من الليبراليين عن الطبيعة المُبهمة، المُشوَّشة للأشياء، عن سحر الفرق الدقيق والتفرُّد، وصعوبة إطلاق الأحكام المُحدَّدة، ونفاسة السريع الزوال والهشّ، والحياء المَرَضي للحقيقة. والليبراليون، من ناحية أخرى، يحتاجون إلى أنْ يتعلَّموا أنه حين يتعلَّق الأمر بالصراعات السياسية الكبرى التي تُمزِّقُ عالمنا، لا مجال لاتّخاذ الموقف الحكيم المتوسّط. في كلِ من هذه الحالات يقفُ أحدٌهم تقريباً على الجانب الصائب وشخصٌ آخر على الجانب الخطأ؛ وبالتمسُّك بهذا المُعتَقَد، يُصبح اللا- ليبراليّون على الجانب الصائب.

لقد كنا نحن معشر الكاثوليك طبعاً أقلّية في إنكلترا؛ لكننا لم نُقدِّر جيداً الهامشيين والأقلّيات، على غِرار ما فعلته ما بعد الحداثة لاحقاً. على العكس، نحن الذين احتكرنا الحقيقة، والغالبيّة هي التي حادت عن السراط المستقيم. كانوا المنحرفين عن مذهبنا الأورثوذكسي، والمحيط المُنتفخ لمركزنا الضعيف. وبينما كنا نتكئ بهدوء على معتقداتنا الميتافيزيقية اليقينيّة، كانوا هم يتخبّطون في الظلام الخارجي ويثرثرون بتفاهات مثل التسامح الديني وفكرة أنَّ المسيح ربما لم يكن ابناً وحيداً. وكالعديد من الأقليات، جمعنا بين العجرفة وجنون العَظَمة، والرضا عن الذات الذي يشعر به المُختارون والقلق الخبيث للذين لا يشعرون بالأمان. وجمعنا أيضاً بين انشقاق اللا منتمين وإرادة المُحافظين للانتماء. كان الأمر أشبه بكون المرء مُحافظاً مِثلياً أو بورجوازياً راقياً أسود البشرة. أو، بحق، مثل عضو نقابيّ في السَتر. والملكة لم تكن أبداً تخصّنا بقدر ماكانت تخصُّ البروتستانت، وكان هناك دائماً نعيقٌ أجوف في تهليلنا الوطني، مجرَّد نِفاق معتدل.

مدرستي الثانوية التي تقع في شمال إنكلترا كان يُهيمن عليها بشكلٍ كامل تقريباً أساتذة ورجال دين أيرلنديون، بالإضافة إلى

تلاميذ أيرلنديين من الجيل الثاني. لكنني لم أكن أعي أنَّ أسماء مثل دويل أو فاريل أو أودواير ليست غريبة بأي معنى من المعاني، بما أنّني لا أتذكّر أنَّ كلمتيّ "أيرلندي" أو "أيرلندا" قد استُعمِلتا طوال فترة دراستي. طبعاً لا: لأنَّ مهمّة أولئك الرهبان ضِخام الأيدي، النحيلي الأجساد، الذين هم أنفسهم لاجئون من مزارع صغيرة في مقاطعة كلير أو كيري، كانت أنْ يُزيلوا آخر آثار القذارة من أرواحنا ويُرسلوننا إلى إنكلترا الطبقة الوسطى. وفي ظل تلك الظروف لم يكن من الحِكمة التزوُّد بمعرفة حميمية بالهرولة، أو بالكشف عن حقيقة أنَّ المرء يعود إلى المنزل في المساء إلى والديه مع نبرة كلام أهل ووترفورد. لقد كنا أيرلنديين، ولكن لم نكن نعلم ذلك، حتى وإنْ كان معظمنا ينحدرُ من عائلات أضخم بشكلٍ مُحرِج من أصول السلوك الاجتماعي الإنكليزي.

أرسلتنا المدرسة إلى بريطانيا البورجوازيّة مع نجاحٍ نُحسَدُ عليه. وكان فيها أستاذ جغرافيا بارز جداً كان يمدّنا بقليلٍ من الجيولوجيا كنشاطٍ جانبيّ، وذات يوم كان منهمكاً في إبلاغنا بأنَّ قطعة معيَّنة من الصخر عمرها ملايين عديدة من السنين، وإذا بصبي صغير في آخر غرفة الدرس، ذي لكنة لانكشر الريفية الشديدة الغلظة حتى أنها أشبه بهرولة شخص ألباني منذ درس الإنكليزية الأول، يرفع يده ويسأل: "من فضلك يا سيدي، كيف لكَ أنْ تعرف ذلك؟". سُرَّ الأستاذ وومضَ بشرارة نادرة من الاهتمام العقلي، وأعطى شرحاً قصيراً عن التأريخ الكربوني. والصبي المعنيّ، الذي يستقرّ الآن في الولايات المتّحدة، هو أحد أبرزْ أخصّائيي البراكين في العالم، وحين تصادفَ أنْ طرتُ بالقرب من أحد البراكين النشطة في الولايات المتحدة، كدتُ أكون متأكِّداً من أنه كان جاثماً في إحدى تلك الطائرات العلمية الصغيرة التي كانت تغطّي وجه السماء من حولنا. ولاشك في أنه الآن يعرف كل شيء عن كيفية توصّلنا إلى معرفتنا.

مدير المدرسة، الأخ داميان، كان أبيض الشعر ذا تاريخ سادي ينحدر من بلدة أيرلندية مغمورة اسمها باليجيمسدوف، التي إنجازها الآخر الوحيد كان إنجاب جَدّ هنري جيمس. لكنَّ مساعدتها في تنشئة أحد أعظم روائيي العالم لم يكن تعويضاً كافياً أبداً من جهة البلدة لإنجاب الأخ داميان. لاشك في أنه كان ينبغي أن يُخنَق عند ولادته، أو أنْ يُدفَن حيّاً في طفولته في أحد المستنقعات الشاسعة النائية. كان يتمتَّع ببنية جسدية ضخمة وبشرة متورّدة لمزارع أيرلندي، ولكن كان عليه أنْ يبذل جهداً عضلياً لتشويه الصِبية الصغار بدل أن يبذله في إخراج حبّات البطاطا. وكان هناك أخٌ فلاح أيرلندي آخر، يُشبه قليلاً ديك حبش مذهون، يُعلّم الحفر على الخشب، وقد دارت شائعة تقول إنَّ ألواح الأرضية الخشبية لغرفة الحفر على الخشب تُخفي عدداً من الجثث الغضّة حديثة العهد، وقد حُفِرَ على لحمهم بالأزاميل تشكيلات تُستَخدَمُ في السحر والتنجيم مألوفة لدى الماسونيين أو فرسان الهيكل.

أمضى داميان حياته كمسؤولٍ عن التنمية الروحية للأطفال، وكانت مقدرته على الفهم الإنساني يُعادلُ ما لدى سلحفاة. وعلى الرغم من أنه لم يُنزِل عملياً سراويل هيئة تدريسه ويضربهم بعنف على مؤخراتهم، إلاَّ أنه عاملهم بكل الطرق الأخرى التي عاملَ بها الأسلاف الأوائل، بحيث أنَّ الأساتذة والطلاب على حدٍ سواء أصبحوا في فريقٍ غير مُعلَن مملوء بالكراهية والخوف. كان يصل إلى ذروة الفخر حين يُحبِط النزعة الفردية الآثمة لديه وذلك بعدم معرفته لأي من تلامذتهِ باسمه. وبما أنَّ عِدَّة آلاف من التلاميذ مرّوا من تحت يديه، وهذا ما حدث لغالبيتهم حرفياً، كان ذلك إنجازاً يُعادلُ اكتشاف كوكبة جديدة من الأنواع البيولوجيّة. كان لا مبالياً بالأفراد كلامبالاة مسؤولٍ عن المراحيض، ويعتبر طلابه ببساطة كمصادر كامنة لتحقيق المجد الأكاديمي. وبسبب قلقه من أنْ يغرز الأساليب الإنكليزية في

أذهان القطيع الغاليّ، دفعنا إلى لعب الرغبي، وغناء النشيد الوطني، وإلى تسجيل أعمال آبائنا بأسلوبٍ لا غبار عليه. وأذكُرُ صمت والدي الخانق والمفاجئ، وهو جالس في حالة انتباه مُذعن أمام هذا الهولة الأخلاقيّ في غرفة مكتبه، حين سُئِلَ على عَجَل عمّا يعمل ليكسب لقمة عيشه، وأجابَ بصوتٍ عالٍ بشكلٍ غير طبيعي بالكذبة الوحيدة التي سمعتها تخرج من بين شفتيه.

كانت مدرسةً ناجحة بكل المعايير، مُفلسة أخلاقياً، بإرسالها طلابها الغريبي الأطوار إلى جامعة كمبريدج، وهو أمرٌ كان عندئذٍ ينطوي على مُخاطرة كإطلاق صاروخ إلى القمر في الأيام الأولى لعلمِ الصواريخ، وعموماً يُهيّئ أبناء آيرين[١٩] الموهوبين ليُصبحوا نجوماً إنكليز. وأخيراً تقاعدَ الأخ داميان ولجأ إلى جماعة دينية في دبلن، وهناك أمضى أيامه الأخيرة وهو يُرعِب المُبتدئين الصِغار. وقد قرأتُ نعيه في إحدى الصحف، ولاحظتُ كيف تمّ تجنُّب الاعتراف بأنه كان ابن حرام مُثيراً للتقزُّز بالتركيز بحياءٍ على نقائه. وأخيراً، يستطيع العالم أجمع أنْ يقول عن الصبي المُنحدر من باليجيمسدوف كم كانت ياقته الإكليريكية نظيفة. وقد سمعتُ لاحقاً أنَّ أخوته في جماعة دبلن رفضوا أن يتحلّقوا حول فراش احتضاره لكي يُصلّوا لراحة روحه، وهي حركة صدّ مُذهله كما لو أنَّ العائلة المالكة تخلّتْ عن سباق الخيل. لعلَّ أقرانه من الكهنة استنتجوا بعقلانيّة أنه لا فائدة من الصلاة من أجل أية روحٍ ذات هوية مُلفّقة بوضوح كروحه. وفي الموت كما في الحياة، بقيَ يُمثِّل الكثير من حقيقة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

وهكذا، كبرتُ وسط السرّية والنِفاق، والرفض المُطلَق، والغرابة الغوطيّة، وإيماءات التطرُّف، والعذارى مع عناقيد الزنجبيل، وشعائر التقشُّف والتضحية بالذات، والموت-في-الحياة. لا ريب في أنَّ هذا

(١٩) آيرين: الاسم الذي تُكنّى به أيرلندا في الأساطير.

كله قد ساعدَ في تشكيل ميلي السياسي لاحقاً، ولو فقط لأنه كان بعيداً عن عالم إنكلترا الطبقة الوسطى البروتستانتية كبُعد جبال أفغانستان. ولكن هناك الكثير يُقال لصالح عقلانية سكان الضواحي، والكثير من الخطر في العيش بالقُرب من الحافّة. إنَّ من قبيل الكذب الحديث القول إنَّ التطرُّف مُحترَم بحد ذاته، بقدر ما أنَّ من قبيل الأسطورة المُحافِظة القول إنَّه يجب تدليل العاديّ ipso facto (بحدّ ذاته). إنَّ الاشتراكية والمسيحيّة هما في وقتٍ واحد عقيدتان دنيويتان وأُخريتان، تُعلّيان من شأن الحياة العادية ولكنهما تسعيان إلى إعادة تشكيلها. فبالنسبة إلى الايمان المسيحي، حب الله هو قوة تدميرية، عنيدة، تندفع بعنف إلى العالم، تمزِّق العائلات، تخلع الجبابرة عن عروشهم، وترفع الوضيع وتترك الغني خالي الوفاض. بمثل هذه السخرية الثورية أو عكسها يُعرِّف يهوه عن نفسه في العهد القديم.

في الوقت نفسه، ليس هناك ما يُماثل هذا المعتقد في تطرّفه الدنيوي. وبالنسبة إلى المسيحية، لا يتمُ خلاص المرء بعبادة أو شعيرة دخيلة، بل بنوعية صِلاته العادية، الخالية من السحر، مع الآخرين، بإطعام الجائعين وحماية الأرامل واليتامى من عنف الأثرياء. وكان على يهوه أنْ يُثابر بهياج على تذكير شعبه الذي يمارس العبادة بشكل يُثير الملل، وينتهز كل فرصة تُتاح له لكي يهرب ويُشكّل بضعة أصنام. وكما اقترحَ تشارلز تيلر[٢٠]، فإنَّ التوكيد على الحياة العاديّة منشأه الروحانيّة اليهود-مسيحية. ولعلَّ الفكرتين - عن حياة الروح بوصفها قضية نهائية، وكشيء متواضع وغير متميِّز - تجتمعان في المذهب المسيحي الطريف بحيث عندما يأتي المسيح، فسوف يُحوِّل العالم انطلاقاً من أساسٍ معرفيّ وذلك بإجراءِ تغييرات صغيرة.

* * *

(٢٠) تشارلز تيلر (ولد عام ١٩٣١): فيلسوف كندي. من كتبه "منابع الذات".

في النهاية، رفضتُ التعاون، ولكن ليس بالضبط. فقد رحت أتنقَّل بين معارض النداءات الداخلية الدينية، والتلال التي تضربها الرياح التي أنشأتْ فيها كل طائفة دينية في البلاد مربطاً لها وحاولتْ أن تجمع أعضاءً جُدداً. فتجد هناك الطائفة الوحيدة التي تضم كهنة توائم، وتماثيل بالحجم الطبيعي لأفارقة يشعون بالنور، وملابس نسائية خفيفة للراهبات تشدّ على الخصر حتى أنكَ لتشعر بأنكَ تستطيع أنْ تلتقطها وتهزّها كأجراس سوداء صغيرة، وقرقعة حبّات مسبحة كارتوسية[٢١] كبيرة بحجم كُرات اللحم والنهيق المتواصل بلهجة أهالي دبلن في محاولة لدفعك إلى تقديم السباغيتي طوال العمر لمجموعة من الذين يسوطون أنفسهم في المايل إند رود . ثم، فجأةً، إذا بمدير نداءات داخليةٍ دينيةٍ يعي غزارة الإنتاج، ومتملّق، يوزّع صوراً للقلب المقدَّس خِلسةً وكأنها صورٌ إباحيّة، يُسقِط شلناً في كأسي وبحركة سريعة يُقدِّم لي عرضاً تجريبياً، عبارة عن رحلة بِغه–أو–أعِده إلى معهد لاهوتي يقع بالقرب من أوكسفورد، وقد دُهِشتُ قليلاً إذ وجدتُ أنَّ الدارسين في المعهد يتلفّظون بكلمات ممنوعة ويعزفون على القيثارات.

لم يكن وصولي إلى المعهد اللاهوتي يبشِّر بالخير. لم أكن قد تجاوزت الثالثة عشرة، وكنتُ أقوم بأول رحلة بالقطار وحدي، وزدتُ من الضغط العصبي على رحلتي بوصولي متأخّراً عِدَّة ساعات، بُعَيد منتصف الليل. كان المكان، وهو عبارة عن منزلٍ ملتوي الأطراف ومتراميها مبنيّ على الطراز الفيكتوري ومتعدِّد الطوابق، يغوص في الظلام، وكانت قد بدأت تثلج بهطلٍ خفيف. قرعتُ الجرس الحديدي المزخرف على الباب الأمامي، وبعد مُضيّ ما بدت عشر

(٢١) كارتوسية: نسبة إلى طائفة رهبانية متقشفة أسّسها القديس برونو في عام ١٠٨٤ بالقرب من غرينوبل في فرنسا. المترجم

دقائق أو نحوها رأيتُ مصباح نور يُضيء في أعلى المنزل. وبعد قليل أطفئ النور من جديد، وأضيئ مصباحٌ آخر في النافذة التي تقع تحته مباشرةً. هذا التبادُل باتجاه الأسفل بين النور والظلام تكرَّر، وفهمتُ أنَّ أحدهم يهبط بئر السلّم. مرَّتْ فترة أخرى طويلة من الزمن قبل أنْ أسمع صوت عَبَث بالسلاسل والأقفال وفُتِحَ الباب واسعاً. وعلى العتبة وقفَ رئيس المعهد، ذو رأس كبير بدرجة هزليّة يشبه مُعربداً في مهرجان الماردي غرا، يبدو عليه الغضب، ويرتدي منامةً بلون أحمر داكن يعوزها الذوق ويعتمر قلنسوة كهنوتيّة سوداء ثقيلة تتدلّى بتهوُّر.

قدَّمتُ نفسي وتلعثمتُ باعتذار، لكنّه استدار على عقبيه منصرفاً وغاص في ظلام الردهة. افترضتُ أنَّ من المطلوب أن أتبعه، وخطوتُ خلفه قابضاً على حقيبتي. كنتُ متعوِّداً على التعامل مع رجال الدين المُشاكسين. قادني بخطى رشيقة عرجاء على طول رواق ضعيف الإضاءة إلى أنْ وصلنا إلى بابٍ خشبيّ محفور. تصوَّرتُ أنه يُخفي بئر سلَّم يؤدي إلى غرفتي، لكنَّ نفحةً واهنة، مألوفة من البخور البائت، هبَّتْ من الباب حين فتحه مع صرير، وأدركتُ أنَّ هذا هو المُصلًى. وفوجئتُ حين سألني مدير المعهد على عَجَل إنْ كان يهمّني أنْ أتلو صلاةً قبل أنْ أخلو إلى نفسي. لعلَّ المقصود من ذلك أنْ يكونَ نوعاً من العقوبة على تأخُّري في الوصول، أو ربما كان عادة مُتَّبعة في المكان. وكان آخر ما أرغبُ فيه هو الصلاة، لكنَّ موقفي لم يكن يتحمَّل رفضي. كان سيبدو أشبه برفض دعوة على العشاء قُدِّمَتْ إليك. مدَّ يده إلى خلفية باب المصلّى وأدار مفتاح النور، وحيّاني تحية مساء مُقتضبة ومشى بخطوة متشامخة على طول الرواق.

جلستُ على أقرب مقعد خشبيّ في المصلّى وحاولتُ أمحو من ذهني صورة هبوط مدير المعهد بغضبٍ أخرس الدرَج. كان نور المصلّى يخفقُ بعنف، رامياً ظِلالاً على الأصنام الغريبة المصفوفة على

طول الجدران، وبعد دقيقة أو نحوها انطفأ تماماً، وتركني وسط ظلام دامس. نهضتُ واقفاً على قَدَميّ، وتلمّستُ طريقي لا أرى شيئاً منَ مقعدٍ خشبي إلى آخر إلى أنْ بلغتُ الباب. فُتِحَ الباب بسهولة، ولكن حين أغلقتُه خلفي لطمَ وجنتي برفق شيٌ بارد ورطب. كانت رقاقة ثلج. كنتُ قد اجتزتُ الباب المؤدي إلى خارج المكان، وسمعتُه للتو ينغلق خلفي. وعلى بُعد بضع ياردات كان الباب الأمامي، بجَرَسِه الحديدي المزخرف، ينتظرني.

فُتنتُ خلال فترة مكوثي الوجيزة في المعهد بالأخ كينيلم، وهو أخٌ عجوز لطيفٌ جداً، أبيض الشعر وشديد الابتهاج حتى بدا وكأنه قد أُرسِلَ إلى المكان من مركز توزيع الأدوار التمثيلية. وطوال عقدَين من الزمن كل ما كان يفعله هو أنْ يضع الملاعق عند كل وجبة طعام، وكان يفعل ذلك بدقّةِ ممرّضةٍ موسوسةٍ في موضع إجراء العملية. وعلى مدى ساعة أو ساعتين في صباح كل يوم كان يتنقّل بخطى متمهّلة ومتثاقلة بين الموائد الطويلة في حجرة الطعام، يُهمهمُ بترتيلة بينه وبين نفسه وهو يضع ملعقةً بعد أخرى في مكانها المعيَّن. لم يحدث أبداً أنْ وُجِدَتْ ملعقة في غير وضعها المتعامد مع حافة الطاولة، أو أقرب بمقدار ميليمتر أو أبعد من جارتها السكين من أي زميلاتها. وبين وقتٍ وآخر، كان كينيلم يتلقّى بلطفٍ تشجيعاً لكي يمدّ مجال نشاطاته ليشمل السكاكين والأشواك أيضاً، ولكن حين كان يُعْرَض عليه هذا الاقتراح يُجيب بتحديقٍ صافٍ ينمُّ عن عدم فهم، كما يُحدِّق أحد المواطنين الأصليين بأحدِ علماءِ عِلم الإنسان.

وقد قُدِّرَ له، دون أي قصد، أنْ يُعلّمني عن المعنى الضمني للحياة الكليريكية أكثر مما فعل أي إنسان آخر. ولاحظتُ أنه على الرغم من كسله المَرَضي كان ينطوي على توقٍ خاص إلى مساعدة الأناث اللواتي يزرن المكان بين حين وآخر على ارتداء معاطفهنَّ، وهو نشاط

كان يسمحُ له بالعبث بأثدائهنَّ. وكان ينجو بأفعاله تلك لأنه كان ينفّذها بفضاحة وليس باختلاس، بحيث أنَّ مَنْ يشاهد ذلك العجوز الخرِف وهو يضخ بصفاقة ثدي امرأة سوف يرفض ببساطة أنْ يُصدِّق عينيه. والكاثوليك التقليديين رفضوا أنْ يصدّقوه لأنهم افترضوا أنه، بوصفه اكليريكياً، لابد أنْ يكون مقدَّساً، في حين أنَّ الكاثوليك الأكثر حِنكة رفضوا أنْ يُصدِّقوه لأنهم افترضوا أنه، بوصفِهِ اكليريكياً، يجب أنْ يكون مثلياً جنسياً. في الواقع، هو وأنا كنا العضوين الوحيدين السويِّين جنسياً بين الجماعة، على الرغم من أنه كان أكثر وعياً مني بكثير بالحقيقة. أما فيما يخص بقية الإخوة، فإنَّ الإجابة عن السؤال كيف يمكن الفصل بين الرجال والفتية هي، كما تقول النكتة، بالعَتَلة. وبعض الكهنة كانوا مدمني كحول عطوفين، أو، قدّيسين سكارى، إنْ صح التعبير.

على الرغم من مظهره الشيخوخي، الورع، إلاَّ أنَّ كينيلم كان ناجحاً مع النساء بصورة مدهشة. وكأنَّ مظهره كان نوعاً من الواجهة، كبنطلونه. وكالعديد من أعضاء المعهد، كان حلّ كينيلم لقضية ارتداء البنطلونات تحت رداءه الرهباني أم لا هو ارتداء بنطلون بأزرار فقط، يُثبَّت بمطّاط من تحت الرُكبتين. وكان معروفاً على سبيل التنكيت في المعهد بـ "بنطلون المُتهتّك "، بما أنَّه مُفضَّل من الأشخاص الذين يُقدِّمون عروض التعرّي الجنسي الذين يرتدونه مع معطف مَطَري ولا شيء آخر. لكنني صادفته ذات مرة وهو يسير مُختالاً في مركز المدينة مرتدياً قميص هاواي مُبهرجاً وبنطلون جينز أبيضَ ضيّقاً، وامرأة شابة تتعلّق بذراعه. وكدير الكرمليت، كان بمثابة عالَمين مُثبَّتَين معاً بمهارة، وكان من المستحيل ملاحظة موضع الوصل.

كنتُ قد افترضتُ قبلَ ذلك أنَّ ما لديّ من حوافز جنسية ستتلاشى عند رسمي كاهناً، كحب الشباب أو كالولع بكعكة الراوند، بحيث

يمكن للمرء أنْ يتخلّص من الشهوة الجنسية كتخلُّصه من الطفح الجلدي الشديد. إنَّ الفرق بين الشبان والشيوخ هو أنَّ الشبان ما يزالون يؤمنون بمفهوم النضج. لكنَّ الكنيسة علّمتني التعقُّل، وعلى الرغم من أنه لم يكن لديَّ اعتراض معيَّن على التبتُّل وأنا في سن الثالثة عشرة، فقد بدا لي أنه من نوع الأشياء التي قد تحدث لي، كنمو لحيتي أو إصابتي بانفصام الشخصية. وقد ساهمَ أيضاً أخٌ علمانيّ يبدو عليه الاكتئاب، صادفتُه في مطابخ المعهد الكهنوتي بعد ظهر أحد الأيام وهو يُفرِغُ أوعية عملاقة مملوءة بالفاصولياء في راقودٍ للطبخ هائل بصورة سورياليّة ويُحرّكها باكتئاب بملعقة خشبيّة كبيرة الحجم، كعملاقٍ في حكاية خرافية، أقولُ، ساهمَ في تنفيري من الحياة الدينية. سألني بنبرة صوت مرعوبة، تشي بالشك، "لا أظنكَ ستفعل ذلك، هل ستفعل؟"، وكأنني أعلنتُ عن نيّتي في القفز من السطح أو إقحام إصبعي في قاطعة شرائح لحم الخنزير المُقدَّد. وبعد ذلك بوقتٍ قصير عدتُ إلى موطني إلى أبويَّ الخائبي الأمل، وأنا كاهن أفسده التدليل.

- ٣ -

مفكِّرون

تخيَّلْ زائراً من الفضاء الخارجي يفتقرُ إلى مفهوم الجمع بين أنواع مختلفة من البضائع. على كوكبه، بعض الناس يشتركون في مسابقات القفز الطويل، في حين يجمع البعض الآخر تماثيل صغيرة من حجر اليشَب ويُصمِّمُ آخرون حدائق على طِراز الروكوكو، ولكن لا أحد يحلم في عمل هذه الأشياء كلها معاً. لدى وصول هذا الزائر إلى حضارتنا، يبدأ بتخيُّل أنَّ عليه أنْ ينتقي من بين البضائع كما يفعل في موطنه، إلى أنْ يكتشف أنَّ هناك بضاعة بعينها على الأرض تسمح له بالتحرُّك بين كل تلك البضائع الأخرى ببذلِ أقلّ جهد. إنها نوع من البضاعة الجيدة جداً أو قُطارة سحرية من الأخرى كلها، واسمها النقود.

بعد اكتشافه هذا بوقتٍ قصير يلمُّ الغريب دون شك بحقيقتين أخريين حول النقود، وهما متلازمتان بلا تلاؤم. واحدة هي أنَّ السعي إليها يتطلَّب تكريس طاقات كل إنسان طوال الوقت تقريباً، بينما الأخرى هي أنها تُمتَلَك باحتقارٍ عميق. وسوف يبيِّن له سماسرة البورصة ذوو المبادئ السامية الغريبَ أنه لا يستطيع أنْ يأخذها معه، ويُبلغه كبار موظفو الشركة أنَّ أفضل الأشياء في الحياة مجّانية. ويُخبره المحللون النفسيون أنَّ النقود هي شكلٌ راقٍ من الخراء، بينما سيصرّ السكارى المُبربرون المتكئون على البار إلى جانبه على أنَّ القمر يخصُّ الجميع. وسرعان ما ستبدو النقود للزائر أحجية ميتافيزيقية، هي لا

شيء وكل شيء معاً، ضعيفة وكليّة القدرة، وقِطعٌ صغيرة مُبهرجة من المعدن يقتل الرجال والنساء بعضهم بعضاً مع ذلك لتكديسها.

أحد تفسيرات هذا التناقُض هو أنه على الرغم من أنَّ النقود ليست كل شيء، إلاّ أنها حالة لا غِنى عنها في كل شيء تقريباً. فمثلاً، ليس صحيحاً أنَّ الحب أو غروب الشمس مجاني، بما أنه لا يمكنكَ أنْ تُقيمَ علاقةً محترمةً أو تخوض تجربة جماليّة إذا كنتَ تتضوَّر جوعاً. ليس صحيحاً أبداً أنَّ البشر لا يُقدَّرون بثمن، كما تعي شركات التأمين جيداً. إنَّ المال هو قُدرة القُدُرات، شديد التقلُّب والتبدُّل من ناحيةِ أنه يجلب معه وعداً بتنوُّع لا حدود له. إنه الردهة الضيّقة، التافهة وغير الهامة بحدّ ذاتها، التي تُتيح لكَ بلوغ عددٍ مُذهِلٍ من الحجرات الرحبة. وإذا كان هو أساس كل شيء تقريباً، فذلك لأنه ضمناً فعلاً كل شيء. وحقيقةُ أننا نجلُّ المال ليس بحد ذاته وإنما لِما يجلبه هي أحد أسباب كون أكثرنا قابليّة للرشوة يستطيعون أنْ يُعلنوا بصدق، وأيديهم على قلوبهم، أنَّ المال ليس هاماً كثيراً. هناك بحق عدد هائل آخر من الأشياء في الحياة غير المال، والمال هو الذي يُتيحُ لنا بلوغ أغلبها.

لم يكن يوجد الكثير من مثل هذه الأحجية الميتافيزيقية في خمسينات القرن الماضي في سالفورد. كان الأولاد في مدرستي الابتدائيّة أحياناً من شدة الجوع بحيث يلتهمون كمية كبيرة من جذور الشمندر على الغداء، ثم يتقيّؤونها من جديد بكتلٍ حمراء على مقاعدهم الدراسية. وكثير منهم كانوا يواجهون معاقرة الخمر وممارسة العنف الجسدي الرهيب في المنزل، ويقطرون بكل أنواع المعرفة الجنسية المرعبة، والخفيّة. كنتُ أوليفر تويست ضعيفاً، شاحب لون الوجه بين أولئك الأقوياء القذري الرُكَب، مُعفى من تنمّرهم المنتظم فقط لأنني كنتُ دائم المرض. وأيضاً تصادفَ أنْ كنتُ أتقاسمُ المقعد الدراسي مع رئيس الصف، الفتى الذي كان في مقدوره أنْ يهزم

الآخرين كلّهم، وعشتُ تحت رعايته وحمايته. وكان الفتية يبدون في حالة دائمة من العدوانيّة الهذيانيّة، وكانت حياتهم محكومة إلى حدٍ بعيد بشعائر الروكوكو كحياة راهب ترابيّ[٢٢]. و لم يكن هناك أي هراء عقلاني لتحتاج إلى سببٍ لإثارة قتال، تماماً كحاجتكَ إلى سببٍ لتضرط. كان الفتية مدفوعين بولاءات قبليّة ضارية، وينطوون على حسٍ بالشرف والالتزام برباط الدم جدير بقوّاد من باليرمو، وعلى سلسلة من التجارب محدودة ومُكرّرة كتجارب خفّاش الفاكهة.

بعضهم بدوا منيعين ضد الألم الجسدي كمدخنة المدفأة. كان في مقدورهم أنْ يتحمّلوا أي قدرٍ من اللّكم والضرب بالعصا، ليس أيٌّ منها على يديّ مُعلّمة معروفة باسم مس أرسيول، التي يمكنني الآن أنْ أستعيد تكوين اسمها الحقيقي الذي هو مس هورسهول. كان في استطاعتكَ أنْ تسحق خِصاهم بملْزَمَة دون أنْ يتذمّروا، لكنهم يعوون دون عزاء إذا تمزّقَ قميصهم في أثناء قتال، بما أنَّ هذا يعني مواجهة غضب الوالدين اللذين لا يملكان أية نقود لشراء قمصان جديدة لهم. وكنتُ الطفل الوحيد الي يرتدي معطفاً في المدرسة، بسبب صحّتي العليلة، التي كانت تُبرزني بشكلٍ شرير وكأنني وصلتُ إلى المدرسة في بنتلي وأنا أتأبّط وجبة غداء من الكافيار. وقد جعلني المعطف هدفاً لممارسة العنف كما لو أنَّ شعاراً مرفوعاً ساخراً ببذاءة مُعلّق على صدري، مع أنه أيضاً كان يُشير إلى أنني كنتُ مُعاقاً أخلاقياً، وبذلك منعَ عني العدوانية التي يُثيرها. وكأنَّ ذئباً يُقدّمُ عنقه إلى منافس له في سياق قتال. لم يكن في المدرسة غرفة لإيداع المعاطف، بما أنه لم يكن هناك معاطف خلاف معطفي. ومرحاض الفناء كان نتناً، شيئاً فاسداً

---

(٢٢) ترابّي: هو أحد الرهبان المنتمين إلى دير لا تراب، الممتنعين عن الكلام. المترجم

جديراً بشحّاذ من بومباي أنْ يُفكِّر مرّتين قبل أن يستخدمه. وحتى لو استخدمه، لم يكن في المدرسة كلها مكان ليغسل فيه يديه بعد ذلك. كان السلوك الصحي بالنسبة إلينا غريباً غرابة هايديغر . وفي العُطل كان بعض الفتية يذهبون إلى ما كان يُعرَف بمعسكر الخبز والمربى، بما أنهما كانا الغذاء الوحيد الذي يحصلون عليه هناك، ومن أجل تدفئة أسرتهم في الشتاء كانوا يستخدمون حجر آجر مُحمّى في الموقد. كنا إحدى العائلات القليلة التي تستحمُّ، مع أنَّ الحمّام كان عتيقاً جداً ولا يصلح للاستعمال.

كانت مدرسة من النوع الذي قد لا يقابل معظم التلاميذ فيها أكثر من ثلاثة أشجار في وقتٍ واحد إلى أنْ يصلوا إلى آخر عشرينيات أعمارهم. وحتى حين كنا نفعل، كانت لدينا قناعة مفادها أنه ما أنْ تشاهد شجرة أو زهرة فكأنكَ شاهدت الكثير منها. ومعظم أقربائي يجدون أنَّ الأزهار الحقيقية هي نُسخٌ مخيّبة للآمال عن الأزهار الاصطناعية. لم يكن هناك الكثير من الطبيعة في المدينة. كان هناك نهر، ولكن حتى السمك المعلَّب لم يكن يستطيع أنْ يعيش فيه. وكانت أخبار الطبيعة، أخبار عالم لا يتكوَّن من حجارة آجر وسخة، تتسرَّب إلينا بين حينٍ وآخر، ولكن كانَت تبدو بعيدة بُعد سَسِكس أو المشتري. كان من الصعب معرفة وظيفة الطبيعة. وحتى لو أنها قد قفزت إلى أحضاننا لما عرفنا ماذا نفعل بها. في العموم بدت أقرب إلى النفاية. كان في إمكانكَ أن تُمضي وقتاً طويلاً وأنتَ تنتظر منها أنْ تفعل شيئاً. وهذا لا يعني أنَّ عائلتي كانت تهدر الوقت في التحديق إليها، إلاّ بقدر ما يمكن أنْ نجلس ونحدِّق إلى أنابيب المياه لساعات.

في هذه الأيام أنا أؤمن بحماس بالطبيعة، ولكن ليس بأي معنى ووردزوورثي . وعلى الرغم من أنني لا أزال أجد من الصعب التمييز بين شجرةٍ وأخرى، وعلى الرغم من حبي لأوسكار وايلد، إلاّ أنني

مقتنع بأنَّ ما بعد الحداثيين مُخطؤون في كونهم شديديّ الهيام بالمبنيّ، بالمُبتَكر، بالتشكُّل الذاتي. إنهم يُعمّمون، في موقفٍ مُعارضٍ بورعٍ للحقائقِ الكونية، الحياةَ في مانهاتنٍ على العالم أجمع. على العكس، إنَّ ما يحكم حياتنا في الغالب هو المُعطى، الاعتياديّ، العطالة المحض للتاريخ، والظرف، والإرث. وقد علّقَ أحد أبطالِ شاؤول بيلو الروائيين قائلاً إنّ التاريخ هو كابوس كان خلاله يُحاولُ أنْ ينال قسطاً من النوم. والإيمان الراديكالي الظاهري بالتغيُّر المستمر، بالتحرُّك، والمرونة، هو وهمٌ يخدمُ إلى حدٍ بعيد الوضع الراهن. إنَّ الرأسماليّة تتخيَّل بعجرفة أنَّ كلَّ شيءٍ ممكن، والاشتراكية تعترف بأسلوبها الأكثر ماديّة، وتواضعاً، بثقل الإرث والظرف. ويبدو أنَّ غالبية الأميركيين نشؤوا على الاعتقاد المتغطرس بأنّه يمكن للمرء أنْ يُحقق النجاح إذا حاولَ؛ والولايات المتحدة هي مجتمعٌ مُبتلٍ بالمأساة ولكن دون تسامُحٍ مع الفشل. والماديّون، بالمقارنة، واعون لمدى ضيق هامش المناورة. ولو أنَّ التغيير منوط بالإرادة، لما تحقَّقَ أبداً. والإرادة، قبل أي شيء، هي نِتاج تاريخي مثل أي شيء تصارعُ لتتحول إليه. والتغيير يحدث أيضاً لأنَّ فيه أثراً من ضرورة. حتى اللهفة إلى الحرية هي نوع من النكبة، كما سلَّمَ حكّام الإمبراطوريات السابقين منذ زمن بعيد.

* * *

لم تكن معرفة القراءة والكتابة أقوى سِماتي في مجتمع طفولتي؛ لقد كان عالماً لم يعد يفهم كيف استطعتَ أن تكسب قوتك بمجرد تأليف الكتب وكأنكَ تقول إنك ألّفت أحدها بإخراج الشمع من أذنيك. وذات يوم تعثَّرَ جدّي لأمي الأيرلندي مصادفةً بنظّارة في الشارع، فوضعها على عينيه وبقيَ يضعهما حتى آخر حياته. لكنه لم يكن في حاجة إليها، بما أنَّ بصره كان سليماً وعلى أية حال لم يكن يُحسِن القراءة. لقد بدت فقط كإضافة بارعة إلى وجهه. كان يطلب مني وأنا

طفل أنْ أقرأ له بصوتٍ عالٍ تفاصيل عن عدد من البورصات والأسهم من الصحيفة. لم يكن يفهم معلومات ذلك العمل المبهم أكثر من فهمي له، ولكنْ أعتقدُ أنه كان يضمرُ وهماً خاصاً به بأنه سمسار بورصة. وقد سألته ذات مرة متى ترك المدرسة، فأجابني ببراعة: "في الرابعة إلا ربع". وفي نحو عمر التاسعة أو العاشرة تملّكني يقينٌ بأنَّ عليَّ أنْ أقرأ الكلاسيكيات، مع أنه لم تكن لديَّ أي فكرة عن معنى الكلاسيكيات، وما إذا كانت عبارة عن كتاب أم عِدّة كتب، كتباً من تأليف كاتب واحد أم عدد من الكتّاب أم ماذا. رافقتني أمي، التي كانت مثلي ليس لديها أدنى فكرة عن الكلاسيكيات، إلى دكان يبيع الكتب المستعملة يقع في قلب مانشستر، وهناك استعرضتُ بحرَج المكانَ بعض الوقت ومررتُ بمجموعةٍ قديمةٍ من الأعمال الكاملة لديكنز. وأعتقد أنها كانت معروضة للبيع بخمسة جنيهات، ولكن بائع الكتب سمحَ لأمي بأنْ تضع وديعة مقدارها شلنين ونصف وتُسدِّد باقي الثمن على دفعات أسبوعيّة. لا أزال أحتفظ بالكتب على رف كتبي.

قرأتُ الكتبَ بين نوبات الربو، وفترات الهذيان، والصلوات التي أقدّمها من أجل إطلاق سراح أي روح منبوذة في مَطْهَرٍ أبعد ما يكون عن الباب. وتعلّمنا، في نوعٍ من التقسيم الخارق للعمل، أنْ نُصلّي لتشكيلةٍ غريبة من القديسين، مع أنني لاحقاً، وبما أني متمرِّد مولود بالطريقة الطبيعية، رفضتُ أنْ أتعامل مع لجانٍ فرعيّة وتوجَّهتُ مباشرةً إلى الإدارة. استمتعتُ بروايات ديكنز دون أنْ أفهمها حقاً، غير مُدركٍ أنني أصيرُ أشد شخصيات ما بعد الحرب أصالةً، وجزءاً من الأسطورة الحديثة على غِرار العالم المجنون أو الشقراء الغبية، والفتى الذي نال المنحة الدراسية. كنتُ ألتهمُ "دومبي وولده" في حين كان زملائي في الصف لا يزالون يُكافحون مع كتاب "بيب هو كلب".

ولكن استطعتُ أنْ أشعر منذ ذلك الحين بغموض أنَّ هذه النفاسة

الهشّة كانت عجزاً بقدر ما كانت ميزة. كانت ترتبط بإبهام بمَرَضي، والمرض والذكاء معاً يُساهمان في عزل المرء عن الحياة العامّة. وحين قيلَ لي إنني نجحت في الانتقال إلى المدرسة الإعدادية المحلّية، كنتُ لتوّي جيّد الاطّلاع على التعقيدات الخطيرة للمناسبة. كنتُ أعلمُ أنه لو كانت النتيجة مختلفة لأمضيتُ البقية الباقية من حياتي في سالفورد المنطقة الصناعية الخاصة بالطبقة العاملة، لا يتوفَّرُ لي فيها وقت بين مناوبات المصنع لأنهي قراءة "منزل كئيب". وبعد ذلك ببضع سنوات عدتُ، كطالبٍ في السنة الثانية في جامعة كمبريدج، إلى سالفورد لأعملَ في مصنعٍ محلّي للصابون خلال عطلة فصل الصيف، وقابلتُ مصادفةً بعضاً من أصدقاء المدرسة القدامى يؤدون أعمالاً بدوام كامل هناك. تبادلنا النظرات، بارتباك حتماً، عبر فجوة هاوية التَّفاوت الاجتماعي. كانوا مُقيمين مدى الحياة؛ وكنتُ عابرَ سبيل إلى أهدافٍ أسمى، وكان المصنع يصنع صابوناً يُدعى "البَشَرَة المَلَكيّة"، وبعض رفاقي في العمل كانوا يعتقدون أنَّ كلمة "Leather" هي اللفظ الأنيق لكلمة "Lather".

ولكن على الرغم من أنَّ سالفورد هو موضوع كتاب عنوانه "القذارة التقليدية"، إلا أنه يمكن أنْ يفخَر أيضاً بإرث ثقافي متميِّز. في ثلاثينات القرن العشرين، كان مأوى لجماعة الدعاية اليسارية تُدعى "البوق الأحمر"، اكتسب سِمعةً يُحسَد عليها في أرجاء حركة الطبقة العاملة الأوروبية كلها. وفي الفترة نفسها أصبح مأوى لمغني شعبي شيوعي عظيم اسمه إيوان مكول، كان متورطاً عميقاً في حركة النضال الاشتراكي في المدينة. وعبر مكول أبدت جون ليتلوود من ورشة المسرح، وهي رائدة في التجريب الثقافي في الايست إند في لندن، اهتماماً شديداً بالمكان، ولاحقاً نصحَتْ كاتباً مسرحياً شاباً من الحي القريب لمدرستي، اسمه شيلاغ ديلاني صاحب "مذاق العسل"، بإنشاء دار مسرح شعبي في المدينة.

إنَّ أمي تتذكَّر الشاب والتر غرينوود، مؤلف الرواية الواسعة الانتشار "حب بالإعانة"، وهو يسير متأنّقاً بملابسه الجديدة في طريقه إلى بيغ سموك . وحين كانت صغيرة شاهدت أيضاً ل. س لاوري وهو يرسم على جانب الطريق. وكان هناك مكتب مراهنات يُدعى مكتب فيني وكان ابن السيد فيني ألبرت قد فاز بمنحة إلى الأكاديمية الملكية للفنون الدرامية، وكانت ظاهرةً فريدة في تلك الأيام. وفي الغالب أنَّ والده لم يُعطِ ذلك أي أهمية. ولكن ما ساعد الأمر أنَّ نبرات أسلوب كلام الطبقة العاملة كانت قد بدأتْ تصبحُ هي الموضة السائدة، وجعل ألبرت من نفسه بروليتارياً شاباً مُشاكساً في فيلم "مساء السبت وصباح الأحد" . وقد رأيته يعود إلى المنطقة ليمثل دور لوثر في مسرحية جون أوزبورن التي تحمل الاسم نفسه، ويشاهده أقرباؤه الفخورون به. لاوري، ديلاني، فيني: كان تأثير الهجرة الأيرلندي جليّاً. وسانفورد أيضاً هي مأوى الموسيقي بيتر ماكسويل ديفيز والمخرج مايك لاي.

هذا لا يعني أنَّ المكان كان خالياً من المحافظين. وقد شاعت حكاية مفادها أنَّ اجتماعاً عُقِدَ في مجلس المدينة كان يُحاول أنْ يتوصَّل إلى اتفاق حول طريقة لتلميع صورة المدينة، وهي مُهمةٌ كانت في رأيي تتطلَّب القليل من تدخُّل العناية الإلهية. وأخيراً اقترحَ أحد أعضاء المجلس إقامة عدد من معابد الباغودا في الحديقة العامة المحلية. وقوبل الاقتراح بموافقةٍ عامة، إلى أنْ نهضَ محافظ المدينة بتثاقل عن مقعده. وزمجر "لا بأس أبداً من إقامة تلك النُصُب في الحديقة العامة، ولكن ما أُريدُ أنْ أعرفه هو ما يلي: مَنْ الذي سيُطعِمُ المساكين؟". كان هذا هو المحافظ نفسه الذي، بينما كان يُعِدُّ لقيام شخصية رفيعة المقام بجولة في قاعة الفن في المدينة، طمأنه بفخر بأنَّ أعمال المعرض كلها "رُسِمَتْ باليد".

في وقتٍ لاحقٍ من الحياة، أفرطتُ في التعويض عن معرفتي غير

المؤكَّدة للقراءة والكتابة في بيئتي المبكّرة. وفي حين أنَّ الأكاديميين الآخرين يبدون قلقهم لكوني غير مُنتج بقدرٍ كافٍ، لطالما شعرتُ بالحرج لكوني عكس ذلك. وبدل أنْ أجدَ نفسي عاجزاً عن تأليف الكتب، وجدتني عاجزاً عن التوقف، إلى درجة أنَّ بعض الناس تساءلوا إنْ كنتُ في الحقيقة أشكّلُ لجنةً. والواقع، أنّه في أيام طيش الأكاديميات الإنكليزية، حين كان نشر الكتب يُعتَبَر قليلاً من سوء التربية، حُرِمتُ من وظيفةٍ أو اثنتين بسبب تلك الرذيلة. وفي حين كان زملائي يكافحون لاسترضاء ناشريهم، بطمأنتهم بأنَّ المخطوط سيُسلَّم في غضون عام ونصف من الزمن، كان عليَّ أنْ أخفي عن ناشريَّ أنّني انتهيتُ من كتابته منذ سنتين كاملتين.

لاشك في أنَّ هذه مشكلة مشينة يمكن أنْ يبتلي بها المرء، وأشبه بسفاح القربى والشهوة البهيمية لا يمكن له أنْ يُناقشها مع أي شخص آخر. والزملاء الذين حاولتُ أنْ أبوح بعجزي لهم بدا عليهم الاشمئزاز والإنهاك وأداروا ظهورهم لي، وكأنني أتذمّر من كثرة مالي أو من وسامتي الطاغية. ولعلَّ هناك في مكانٍ ما من العالم كُتّاباً مجهولين، حيث يمكن لغزيري الإنتاج أنْ يجتمعوا سراً ضمن مجموعات مساعدة صغيرة، وتستطيع أنْ تُعلِن دون خجل أنها تملَّتْ ببحثٍ نظريّ أو أنجزت على عجل أربع مقالات دفعةً واحدة. وسوف يبدأ المرء، دون شك، بالاعتراف بأنَّ الإنسان يعجز عن إطفاء جهاز الكومبيوتر، وبأنَّ الإحجام عن التنقيح لأكثر من بضعة أيام يتطلّب مساعدة قوّة أكبر من قوته. وقد يتعلّم، في الوقت اللازم، أنْ يختصر فقرة أو فقرتين في اليوم، أو أنْ يتّصل بأحد رفاق المعاناة طلباً للمساعدة حين يشعر بقدوم رواية ثلاثيّة المستويات. ولكن في تلك الأثناء، بعد أنْ تُحدِّد كل مجموعة عاجزة اعتمادها المالي، وعلاقاتها العامة وجماعتها السياسية، نبقى نحن المفرطون في الإنتاج منبوذين وغير مقبولين، نشعر بصمت الامتعاض المُخيِّم على المجتمعين ونحن نتمشّى بحياء في القاعة،

نحاول بشكلٍ يُثيرُ الشفقة أنْ نتظاهر بأننا أكاديميون غير منتجين، مُحبطون نفسياً وطبيعيون.

إنني أكتبُ بغزارة لأنني أستمتعُ بذلك، كما قد يستمتعُ الناس بالوصال الجنسي وبأكل كبد الدجاج، ولم أتمكَّن أبداً من تجاوز فضيحة أنني تلقَّيتُ مالاً مقابل أنْ أفعل ما أجده مُرضياً. وقد وجدَ والدي، الذي ظلَّ يعمل على امتداد ثلاثين عاماً في مصنع هندسي لم تمدّه أبداً بأية لحظة سارة، أنَّ فكرة الاستمتاع بممارسة العمل هي أشدّ ما يمكن تخيّله من طوباويّة سامية. لم يستطع أنْ يُدرك أنَّ هناك ما هو أشدّ روعة منها. وذات يوم سوف ينفخ أحدهم ولاشك الصافرة لنا نحن أكاديميّو الأدب، ويكشف اللثام عمّا خفيَ، ويُلفِتُ انتباه أحد البيروقراطيين إلى حقيقة أننا في الواقع نتلقى نقوداً مقابل قراءة القصائد والروايات، كما يتلقّى المرء نقوداً مقابلِ أخذ حمّام شمس أو الإساءة إلى النفس. عندئذٍ تُكشَف الحقيقة المُشينة أمام عالم يميل إلى الشك، وساخر، بحيث أننا ونتيجة لخطأ إداريّ غير عادي عُومِلنا طوال قرنٍ من الزمان أو نحوه على مُعاملةَ الباحثين في مجال مرض السرطان أو الفقر الذي خلّفه الاستعمار.

المفكرون الذين نشؤوا من الطبقة العاملة قد يستمتعون بهذا النوع من الأعمال أكثر من أولئك الذين يعتبرونه جزءاً من حقّهم في المولد، لكنَّ ذلك لا يعني بالضرورة أنهم دائماً يقدّرونه عالياً. في الحقيقة، هناك أسباب خاصة تتعلّق بخلفيتهم حول لماذا قد لا يفعلون ذلك. وأولئك المنحدرين من الهامش الاجتماعي هم الأقلّ احتمالاً أنْ يكونوا عقلانيين أو مثاليين، ويُضخّمون دور الأفكار. وقد يتساءلُ المرءُ ما الذي فعلته الأفكار من أجلهم؟ وهذا ينطبق خاصةً على النساء، اللواتي تجعلهن ظروفهن المادية في العموم أقلّ عفوية في مثاليتهن من الرجال. وعموماً الرجال، وليس النساء، هم الذين يشدونكَ من

مرفقك حين تحاول أنْ تشق طريقك الملتوية خلال حركة المرور في الجادّة الخامسة ويطلبون منك إبداء آرائك حول علم الظاهرات. ولكن ربما هذا ينطبقُ أيضاً على أولئك المثقفين الذين برزوا من ظروفٍ أقلّ ثراءً. على المرء أنْ يكون مُكرّساً بعمق لفكرة العقلانيّة، ويتصرّف كقيِّم على العقل في عالم من القِوى اللاعقلانيّة المميتة. إنَّ "ratio" مسألة تتعلّق بالنسبة، والنّسبة مسألة تتعلق بالعدل. ومع ذلك هناك جنون في العقل أيضاً، والعقل ليس جوهرياً جداً بالنسبة إلى الحياة الإنسانية، وهذا لا يعني أنَّ ما هو جوهري بالنسبة إليها ليس عقلانياً. فمن الأسهل وصف هذا التفكير المزدوج بدل التعايش معه.

لذلك فإنَّ معظم ما يهمّ من الفلسفة هو أيضاً ضد الفلسفة. والمُعادين للفلسفة هم أولئك الذين يجدون الفلسفة إشكاليّة لأسبابٍ مذهلةٍ فلسفياً، وليس فقط أولئك اللا مبالين بها مثل شير وبرات بيت . وبطريقةٍ مشابهة، اللا سيرة ذاتية لا تعني فقط ألاّ تكتب سيرتك الذاتية، وهي ممارسة متفشّية بصورة مدهشة، بل أنْ تكتبها بطريقةٍ تفوقُ في براعتها تلهُّفَ وادّعاءَ ذلك الجنس وذلك بإحباط رغبتكَ في استعراض ذاتك ورغبة القارئ في ولوج حياتك الداخلية. حتى داخل بعض الفلاسفة التقليديين جداً هناك فيلسوف مُعادٍ يُكافح للظهور إلى العلن. كتب بليز باسكال يقول "أنْ تجعل من الفلسفة نوراً يعني أنْ تكونَ فيلسوفاً حقيقياً"، وبوصفِهِ الرجلَ الذي أعطى العالم أول حقنة، وساعة اليد، والآلة الحاسبة وخدمة الحافلة العامة، إلى جانب ترسيخ نظرية الفراغ، تتسم كلماته بنبرة إقناع قوية. لقد بدا سقراط، أبو الفلسفة، أشبه بالمهرج، متهكماً ويدّعي الجهالة. لا يمكن أنْ يوجد فلاسفة محترفون إلاّ إذا كان هناك أيضاً طبّاخون وبنّاؤون. وفقط على خلفيّةِ فائض اقتصادي يمكنكَ أنْ تروّج لنخبةٍ من المفكرين يعملون على مدار الساعة؛ وقبل بلوغ تلك النقطة، كان على المفكرين أنْ يعملوا مع الصيادين. كان يمكن لمقولة "أنا أفكّر، إذاً على أحدهم أنْ

يؤدي العمل الشاق" أن تصلح شعاراً لهذا المنحى من التساؤل. وقد طوَّرَ الفيلسوف الألماني فيخته نظريةً سمّاها الأنانية المتسامية؛ ولكن كما لاحظَ أحدهم ذات مرة، يودّ المرء أنْ يعرف ماذا كان رأي السيدة فيخته في ذلك. ومقولة "هو يفكر، إذاً هي تؤدي العمل القذر" جدير بأنْ تصبح شعاراً لا بأس به للدعوة إلى المساواة بين الجنسَين. أو ربما "هو يفكر، إذاً هي لا يُسمَح لها بذلك".

إنَّ بعضاً من أشد المفكرين إبداعاً كانوا أولئك الذين أقرّوا بزيف حياة العقل وكشفوا عنها بإيماءة واحدة. وقد علّقَ سيموس هيني[٢٣] ذات مرة أنه بينما الشِعر يمتزج بكيانه كله على أحد المستويات، إلا أنه يشعرَ بلا مبالاة كاملة اتجاهه على مستوى آخر. ضمن ذلك التحفُّظ، يمكن سماع خلفيته كمزارع صغير من ديري تتكلّم. ماذا لو أنَّ الآخرين أكسبوك بتضحيتهم رحابةَ التفكير التي قد تغريك بخيانتهم؟ أليست هذه هِبة ملوّثة؟ أهي خبز أم حجر؟

من ناحيةٍ أخرى، عرفتُ مفكرين من الطبقة العاملة يتعاملون مع الأفكار بجدّية مفرطة. وقد نشرتُ ذات مرة كتاباً أهديته إلى أكبر اثنين من أولادي، وقد دُهِشتُ حين قرأتُ نقداً للكتاب كان مُكرَّساً بدرجةٍ كبيرة للهجوم على الإهداء. وقد سمعتُ عن نقّاد لم يذهبوا أبداً إلى أبعد من قراءة مقدّمة كتاب ما، ولكنَّ رفضَ بذلِ الجهدِ لتجاوزِ الإهداء كان دلالةً على وجودِ ذُرى جديدة من المحاولة الأدبية. كان الكتاب دراسة ماركسية تعلن عن نفسها، وقد اعترضَ الناقد، وكان ستالينياً استعاد عافيته، على اسمَيّ طفلَيّ اللذين اعتبرهما اسمين يخصّان

(٢٣) سيموس، أو شيموس، هيني (١٩٣٩ - ٢٠١٣): شاعر، وكاتب مسرحي ومترجم ومُحاضِر أيرلندي. حاز على جائزة نوبل للآداب في عام ١٩٩٥. المترجم

الطبقة الوسطى، واعتبرَ أنَّ ذلك يتنافرُ مع منحى الكتاب السياسي. وعلّق بسرور بأنه ربما كان ينبغي أنْ أطلق على طفليَّ اسميّ سِيدْ وألبرت. وتصادفَ في ذلك الوقت أنْ كنتُ أدرّس لندنياً من الطبقة العاملة من كلية رسكن في أوكسفورد، كوكنياً صغيراً مُشاكساً تنحّى بي جانباً كمَنْ يُعِدُّ لمؤامرة وسألني عمّا أنوي أنْ أفعله بشأن النقد. ماذا أمامي أنْ أفعله؟ سألته وأنا أهزّ كتفيّ باستخفاف. أجاب بصبرٍ نافد "كلا، ما أقصده هو ماذا ستفعله بخصوصه هو؟". أعطيته الجواب نفسه. قال "اسمع، فقط أصدِرْ أمرك وسأخبر الشباب، اتفقنا؟ أعني، إنهم ليسوا في حاجة إلى أنْ يعرفوا مَنْ يكون الشخص اللعين، أليس كذلك؟ فقط أعطِ أمرك، يا رفيق".

كان فرغوس أحد معارفي ومثقفاً آخرَ من الطبقة العاملة. كان يعملُ نادلاً في إحدى كليات كمبريدج حين كنتُ زميلاً باحثاً شاباً في كلية أخرى، وتقابلنا للمرة الأولى في حانة حيث كان فرغوس يقضي معظم ساعات راحته. كان من سكان غلاسكو، ضخمَ الجثة ويبدو عليه الذعر، وذا أنفٍ محمرّ إلى درجةِ أنه أصبحَ أشبه بمؤسسة في كمبريدج، إلى جانب شرب الشاي في غرانتشستر والمقامرة في الباكس. وأنفه لم يكن في الواقع فقط محمرّاً بل يشبه نظاماً معقّداً من العُقَد الصغيرة، والندوب والشقوق، وضربات مفاجئة مستوية وأخرى مائلة ذات منظور كلوحة تكعيبيّة، يستحيل على العين أن تستوعبه كظاهرةٍ واحدة موحّدة. وبدا، بأنظمته الفرعية المعقّدة من النتوءات والمناخير المتعددة الطبقات، أنه يتفوّق على أي منطق بسيط ثلاثي الأبعاد، كشكلٍ متخيَّل محض لا يعرفه إلا علماء الأساطير والرياضيات. وبالكاد يستطيع فريقٌ من رسّامي الخرائط يعمل ليلاً ونهاراً أنْ يضع خريطةً تبيّنُ تضاعيفه المجعّدة والمتورّدة. وكُتل اللحم التي يتوقّع المرء أنْ تسقط بهدوء بميلٍ طبيعيّ نحو المنخرين تغيّر رأيها فجأةً وتتجه إلى أعلى من جديد، قبلَ أنْ تستوي لتغدو سطحاً ذا فوهة

ضارباً إلى الحمرة. وبدا أنَّ الشعر ينبت ليس فقط من منخريه بل من كل سُم في كامل أنفه، وهو كثيف بدرجةٍ تسمح بتمشيطه يومياً. وكما أنه لا وجود لحدودٍ طبيعية للمعرفة، كذلك لم يكن هناك في المبدأ نهاية لاستكشاف أنف فرغوس، الذي كان يُرى تحت أضواء متنوّعة ومن زوايا مختلفة تكشف عن قسمات جديدة فاتنة لم تكن تُرى من قبل.

طوال سنوات كنتُ وفرغوس نسكر دون أنْ يعرف أيٌّ منا شيئاً عن الآخر أو ماذا يعمل. ثم دعاني أحدهم على الغداء في كليةٍ أخرى، وحين اندفعَتْ يدٌ منتفخةٌ وترتعش تحملُ لوحاً من الجبن بيني وبين مضيفي، استطعتُ أنْ أشعر مع ومضٍ خافت من التمييز أنَّ فرغوس كان على الجانب الآخر منه. رحنا نتبادل التحديق بدهشة خرساء ومرتبكة، كأخوين يتصادمان داخل ماخور. وذات مرة علِمَ فرغوس أنني عرفت ماذا يعمل، فشعرَ بأنه مُكره على إقناعي بأنه أكثر من مجرَّد عضو بسيط في هيئة موظفي الكلية و لم أجد مشقة في تصديق ذلك. فأثناء عمله في كلية بارزة، قدَّمَ الجبن إلى عدد كبير من أساطين وسائل الإعلام ووزراء الحكومة، وكان لديه عدد معظمهم. وكان أحد الكتاب المشهورين يثرثر ذات مساء على المائدة المرتفعة بلكنته الإنكليزية الممتازة، على سبيل تسلية الصحبة بنكتة تتضمن مُحاكاة ساخرة ضعيفة لشخص اسكتلندي. وحده فرغوس المراقب بصمت، الذي كان يعرف ذلكَ الرجل وهو صبي مثله في غلاسكو، أدركَ أنَّ هذا اسكتلندي يحاكي بسخرية رجلاً إنكليزياً يُحاكي بدوره رجلاً اسكتلندياً. وهكذا أقام علاقات في أماكن راقية، وذات مرة، حين أوشك البابا أنْ يقوم بزيارة بريطانيا، تنحّى بي جانباً بسرّية ليُعلمني بأنه يُفكّر في جلب قداسته إلى الحانة إذا ما تصادفَ ووطأ أرض كلّيته. وتخيّلتُ أنَّ ذلك سيكون ظهوراً بعيد الاحتمال، ولكن إذا ما كان هناك مَنْ يستطيع أنْ يجلب البابا إلى حانة فهو فرغوس.

وصبَّ دفقاً لا يتوقف من الكلام المُقنع، كان فيه الخط الفاصل بين الواقع والخيال واهياً إلى أقصى درجة بحيث لم يكن من الممكن تمييز القدر الوافر من الحقيقة بين حينٍ وآخر. لعلّه، كما ادّعى، تناول مشروباً مع بريندان بيهان في أثناء إقامته في دبلن، وأخبرني كيف كان بيهان ذات مرة يعمل كدهّان للمنازل ويكتب في الوقت نفسه بشكل غير منتظم مقالة في صحيفة آيريش تايمس. وحين كان يدهن مبنى آيريش تايمس، كان أحياناً يقفز بسرعة من السلّم ويلج من خلال النافذة، ويدوّن بضع أفكار للصحيفة، ثم يعود من جديد إلى السلّم. وكان فرغوس أيضاً عاملاً ذا طموحات أدبيّة، كتب عدداً من القصائد واجتهد لفهم جويس في وقته. وكان يتمتّع بصوت صدّاح أيضاً، وإنْ كان جهورياً قليلاً، ويستطيع أنْ يكسر عِظام ظهرك بالأنغام العالية لأدائه أغنية "وردة تكساس الصفراء" في الحانة . كانت الجدران تتماوج وتنحني، وكلاب المطاردة الضخمة تغوص وهي تئنُ طلباً للحماية، والفلاحون في دلتا الميكونغ يرفعون وجوههم الملتبسة نحو السماء، والشعر يقف بانتظام، وكأنه يؤدي التحية، على مؤخرة خمسين عنقاً مصاباً بالقشعريرة.

سوف أندم دائماً على الأمسية التي كدتُ أقتله فيها. وقد قرَّرتْ كليّة فرغوس أنْ تتخذ خطوة عملية بشأن أنفه، الذي اعتبر الزملاء أنه يغدو مصدر إحراج على المائدة العالية. وكان لدى بعض المحافظين وجهة نظر مختلفة، بحجة أنَّ الأنف يشكّلُ معلماً نفيساً من معالم المشهد المحلّي وينبغي أنْ يخضع لحماية الائتمان الوطني. لكنَّ المُصلحين فازوا، ودفعت الكلية له ليدخل العيادة ليجري عملية جراحية. ذهبتُ لأعوده هناك وأخذتُ معي زجاجة من الويسكي، وبينما كنتُ أعطيها إياه علِمتُ أنَّ العملية لم تُجرَ، كما تخيَّلتُ، وإنما ستُجرى بعد بضع ساعات. وعلى هذا الأساس، بما أنَّ الكحول كان ممنوعاً عنه، وكان يحرص على أنْ يتناول بضع رشفات من الزجاجة

حالما أدير ظهري له، بدا ممكناً أنني قد عثرت فجأةً على الحل النهائي لمشكلة الأنف وذلك بإرساله إلى الأبدية. فدسَّ الزجاجة بحركة اعتيادية تحت مفرش السرير، وارتحتُ عندما سمعت قعقعة خافتة؛ كان جلياً أنه يحتفظ ببار كامل تحته. على الأقلّ، عندئذ، كما مع كتيبة إطلاق النار ببندقية مشحونة بخرطوشة خُلّبيّة، سيكون مستحيلاً معرفة أي من زائريه العديدين حاملي الزجاجات كان سبب هلاكه.

* * *

كان لودفيغ فيتغنشتاين فيلسوفاً مُضاداً للفلسفة كلاسيكياً، فيلسوفاً يتمتع بعبقريةٍ مدهشة ليس لديه وقت كافٍ للانضباط، وينصح تلاميذه بالتخلي عنها والقيام بعمل مفيد كالطب بدلاً عنه. حين كان طفلاً صنعَ آلة حياكة كاملة من عيدان الكبريت، وجعلها تعمل. كان كل ما يعمل عن طريق شِق، أو يطنّ، أو يُدار بذراع، أو مزوَّد بمفاصِل، يفتنه، واللغة أيضاً. لعلّ هذا الموقف الشكوكي من حياة الأفكار يشكّلُ جزءاً مما أجده جذاباً فيه، على الرغم من أنني لم أعد أستطيع أنْ أصنع آلة حياكة، إلا بقدر ما يستطيع حيوان الومبت فعل ذلك. وعمل أيضاً لفترة من الزمن مهندس طيران في مانشستر، وهي مدينة كان والدي فيها نوعاً من عامل هندسة أقلّ عَظَمَة. ولكي يُصبح فيتغنشتاين ما كان عليه اضطُرَّ إلى أنْ ينسحب من ثراء هابسبرغ الرائعة، في حين اضطررتُ إلى أنْ أدير ظهري في الاتجاه المعاكس.

إذن، من بين كل الفلاسفة المضادين، لاحَقَني فيتغنشتاين بتجسّدات متنوعة على امتداد حياتي. برز فجأة أولاً حين كنتُ لا أزال طالباً في جامعة كمبريدج، عندما كان الدكتور غرينواى، المشرف عليّ، عضواً ثانوياً في حلقَته من المفكرين. والإشارة الوحيدة التي سجّلها الرجل العظيم عن المشرف هي جملة تبدأ: "إذا أخذنا غرينواي هذا وغلينا رأسه..." والتي أستطيع أنْ أتصوَّر أنَّ غرينواى، الذي طالما فُتِنَ بالعقول

الجبارة، يعتبرها بمثابة تشريف فظيع. وفي الواقع، كان المرء يفضّل أنْ يدَعْ فيتغنشتاين يغلي رأسه على أنْ يدع هايدغر يصفعه بتحبُّب على ظهره. وبعد ذلك بسنوات، بعد أنْ باعدت الأيام بين الرجلين، لمَحَ غرينواى فيتغنشتاين من نافذة غرفته في الكلية، يبدو هشّاً وشاحباً. وكان، في الواقع، يحتضر متأثّراً بسرطان البروستات. وفكّر غرينواى، الذي صُدِمَ من مظهر النمساوي الشبيه بالجثة، في أنْ يهرع ليرحب به، لكنه غيَّر رأيه. ولم يره أبداً بعد ذلك. وكان غرينواى، في هذا الأمر كما في أغلب الأمور الأخرى، إنكليزياً لا غبار عليه.

بعد ذلك ظهر فيتغنشتاين بهيئة صاحب نفوذ سياسي، وذلك عندما انخرطتُ في الحركة الكاثوليكية اليمينية في ستينات القرن الماضي. كان ذاك فيتغنشتاين "الأبحاث الفلسفية"، الذي يسعى إلى ترسيخ المعنى في أشكال الحياة العملية والاستخدام العام للإشارات، للانقلاب على سحر الداخل. وكتاب "الأبحاث" يشبه مجموعة من الصور أو شذرات من قصة، ويتعجَّب بصوت عالٍ من الـ faux naïveté (السذاجة الزائفة) السقراطيّة، ويطرح علينا أسئلة قد تكون أو لا تكون صادقة. وخِدَعْ لغة الكتاب وحيلها التي تتقدّمها حِكمة، وحوار وضرب الأمثال المألوفة، تُقطِّرُ كامل الجدال المعقَّد بإيراد قول مأثور قروي أو عيد غطاس عَرَضي. هناك إحساس بعقلٍ يُجري حواراً ساخراً مع نفسه، تعبيره شفاف بشكلٍ خادع، ولكنَّ محتواه مبهم بصورة مزعجة.

إنه أسلوب رجل متآلف مع العالم دون بذل أي جهد، وهو آخر حال كان عليه فيتغنشتاين. إننا نعتقد، كما يفعل المحلل الفرويدي، أنَّ لدى المؤلِّف بضعة أجوبة ليدلي بها لكنه يحتفظ بها ليستخدمها عند الحاجة، ويُجبرنا على التخلص من ارتباكنا بجهدٍ مُرهِق، ويقنعنا بأسلوبه المضياف بتخفيف حَذَرنا لكي يستطيع أنْ يرسم الدائرة الغريبة

حولنا. فبالنسبة إليه الحقيقة مُختَبأة فقط لأنها شديدة الوضوح للعيان حتى أننا لا نلاحظ ما يمر تحت أنوفنا، تلهينا الأحابيل، والـ trompe-l'oeils (الخدع البصرية) وأعماق زائفة للُغة. إننا نتغاضى عن عرينا الفاضح، مُفضّلين أنْ نحدّق بلا تركيز إلى العالم من خلال نظاراتنا الميتافيزيقية المهيبة. إنَّ الفلسفةَ نشاطٌ تافه، على الرغم من أنَّ إدراك أنَّ الإمبراطور عاري الجسم يتطلب وجود إمبراطور. وبهذه الروح قال فيتغنشتاين منتقصاً من قدر فرويد إنَّ لا أحد يعرف الفييني[٢٤] إلاّ فيينيّ آخر.

إنَّ فريغه هوِ فيلسوفُ فيلسوفٍ آخر، وسارتر يمثّل فكرةَ وسائلِ الإعلام عن المفكر، وبرتراند رسل يمثّل فكرة كل صاحب دكّان عن الحكيم. أما فيتغنشتاين فهو فيلسوف الشعراء والموسيقيين، والكتّاب المسرحيين والروائيين، بل إنَّ شذراتٌ من كتابه الضخم Tractatus (المقالة) قد وُضِعَتْ لها موسيقى. وهناك كاسيت ألماني نستطيع أنْ تسمع عليه أسطراً من العمل تُلقى بصوتٍ ناعق صدّاح ذي نبرة ألمانية مسرحيّة صخّابة. لعلّ الافتتان الذي كان يكنّه للفنانين يعود جزئياً إلى الطبيعة الأسطورية لمسيرة حياته التي نقلته من الغِنى إلى الفقر، وهي حالة حياتيّة تتفوّق على الفن. كان محروماً اجتماعياً، بمعنى أنه نشأ في عائلة ثرية ثراءً يُثيرُ السخرية؛ وعلى الرغم من أنه كافح بضراوة لمواجهة عجزه، واهباً مُعظم ماله ومُعلناً أنَّ "من الأفضل أنْ أرحل حافياً"، إلاّ أنه لم يتمكّن من أنْ يجتث بالضبط آثاره المميتة. لقد كان دون أدنى شك شخصية غريبة بعمق، مهما كان التزامه بالصيغ العامة، والمادة المؤقتة لخطابنا العادي. إذن الناس يعتقدون أنني أتصرف بأطوارٍ غريبة؟ هكذا سأل ذات مرة. وكأنهم ينظرون من خلال النافذة إلى

---

(٢٤) الفيينيّ: أحد سكان مدينة فيينّا.

التحركات الغريبة لرجلٍ في الخارج. إنهم لا يعرفون أنَّ هناك عاصفةً تزأرُ هناك، وأنَّ الرجل يُحافظُ على ثبات قَدَمه بصعوبةٍ قصوى.

لقد حافظ فيتغنشتاين على ثبات قدميه بجهدٍ هائل، وكانت أقلّ عاصفة من الخداع تكفي للإطاحة به. كان أخلاقياً بصورة غريبة، بغضّ النظر عمّا تتّسم به فلسفته المتأخرة من تسامُح عادي متواضع. لدى سماعه أول مرة للجملة الإنكليزية المبتذلة "إنَّ خلقَ عالم يتطلّب الأنواع كلها"، حبس أنفاسه ولاحظَ أنَّها تكاد تكون جميلة، وهذا قولٌ حسن. ولكنَّ الأنواع الإنسانية إلى جانب نوعه هو لم تكن في العموم تتماشى مع ذوقه، وكان قد تدرَّبَ جيداً على أنْ ينبذ بفظاظة أي صديق يمرّ به. كان مزيجاً أخّاذاً من الراهب، و الصوفي، والحِرفي البارع: مفكّراً أوروبياً راقياً ينطوي على توقٍ إلى simplicitas (الفرديّة) التولستيّة؛ فاشستيّاً سريع الغضب مع ظمأ إلى القداسة، تقليديّاً في الفلسفة خان كلَّ ازدراءٍ متعجرفٍ لتقليديّة الأرستقراطيين. عاشَ حياةَ مثليّ جنسياً سرّية في وقتٍ كان يصرُّ على أنَّ كل شيء مكشوف للعيان، ويبدو، بوصفِهِ أحد الباقين من رجعية الإمبراطورية النمسا–هنغارية، أنَّ صِلته بالماركسيين كانت أفضل بكثير منها بالنبلاء.

عندما كان جندياً خلال الحرب العالمية الأولى، حيَّرَ فيتغنشتاين رؤساءه من العسكريين بطلبه المستمر بنقله إلى مواقع أكثر خطورة في ميدان القتال. كان يأمل، من اقترابه من الموت، في أنْ يُلقي بعض الضوء على وجوده الناقص جذرياً. لكنه لم يكن خائفاً أبداً: شعرَ أنَّ حياته كانت في إحدى مستوياتها تتجاوز الألم، مُختبّأة، لا يمكن بلوغها، وهذه ربما أعمق حقيقة هزلية. لقد جلس القرفصاء عند الطرف النهائي للّغة، ومسوَّدة كتاب Tractatus في جيبه، وظُلمة الموت خلف ظهره، ولزم الصمت. كان عليك أنْ تُميّز ما يمكن للفلسفة أنْ تقوله منطقياً، كل

تلك الأشياء التي لا أهمية لها على الإطلاق، عن تلك المسائل الحيوية التي كان من الأفضل لزم الصمت بشأنها، والتي يمكن لدوستويفسكي وكتّاب روايات التحريات المثيرة، وتولستوي والأفلام الأميركية الرديئة، والقديس يوحنا ومندلسن، أنْ يحلّوا لغزها.

مؤلفات فيتغنشتاين المبكّرة هي حنينٌ إلى ثلجِ الدقّة الفلسفية النقي، إلى تلك المساحات الميتافيزيقية اللامعة اللامتناهية التي تمتد بصمت إلى ما بعد الأفق. إنها رؤيا جميلة، لكنه توصَّلَ إلى إدراكِ أنه إذا حاولَ المرءُ أنْ يمشي هناك فسوف يسقطُ منكفئاً على وجه. فلكي نمشي، نحتاجُ إلى الاحتكاك؛ لذلك تتخلّى مؤلفات فيتغنشتاين المتأخرة عن الصفاء النقي لشبابه القاسي وتسعى إلى أنْ تُعيدنا إلى الأرض الوعرة لحديثنا اليومي، المبهم، المُختلَط. ولكن لا شيء يمكن أنْ يكون في حالة خصام من التساؤلات غير المُحدَّدة، الشعبية والمتعددةِ الوظائف في هذا العمل المتأخر، من الرجل نفسه: النبيل بغطرسة، والمستبدّ، الذي يحدوه حماس مُرهِق إلى الكمال الأخلاقي والمبتلي بذلك الهوس الغريب المعروف باسم البروتستانتية، التي من أجلها كل شيء هو دلالة كامنة على الخلاص أو اللعنة. ولو أنه تعلَّمَ أنْ يكون أخلاقياً أقلّ، لأصبحَ أقرب إلى الخلاص. لكنَّ واقع الحال هو أنه بقيَ وحيداً منعزلاً بين الثلوج والأرض الوعرة، دون أنْ يتآلف مع أيٍ منهما.

وهكذا، كره كمبريدج، وظل يهرب، عادة إلى أقصى الحدود: إلى كوخٍ على جرف نرويجي ناءٍ، إلى حديقة دير في النمسا، أو إلى كوخ مبنيٍ من الحجارة الخشنة على الساحل الغربي من أيرلندا. بل لقد طارَ إلى الاتحاد السوفييتي في أحلك أيام الستالينيّة، ورفض منصب كرسي الفلسفة هناك وطلبَ بدلاً عنه أن يتدرَّب ليكون طبيباً مُعالِجاً. كان حماسه للاتحاد السوفييتي فرانسيسكانياً أكثر منه لينينيّاً: كان الكدّ هو ما جذبه، والاستبداد أيضاً دون شك. أنا، أيضاً، كرهتُ كمبريدج، إذا

أمكن مقارنة الأشياء الصغيرة بالكبيرة منها، وهربتُ في نهاية المطاف، ولكنني لم ابتعد إلى أكثر من أوكسفورد. كان الأمر أشبه باللجوء إليها هرباً من كذب هوليوود. لقد هرب فيتغنشتاين من كمبريدج إلى أيرلندا، بينما هربتُ أنا لاحقاً إليها من أوكسفورد.

في الواقع، في ذلك التجسُّد الأيرلندي قابلته لاحقاً، حين شاركتُ في مناسبةِ إزاحةِ الستار عن لوحة على كوخه في مرفأ كيلاري في كونيمارا. وكنتُ قد كتبتُ رواية عن فيتغنشتاين وهو في أيرلندا، عنوانها "قديسون ومثقفون"، ولاحقاً كتبتُ حوار فيلم لديريك جارمن اسمه "فيتغنشتاين"، وفيه يتنقَّلُ شبانٌ ضخام يرتدون سترات من الجلد، ربما يُعتبَر سبينوزا بالمقارنة بهم نوعاً من المعجّنات، متخفّون قليلاً بأشكال فلاسفة. وتقول أسطورة محلية إنه حين كان فيتغنشتاين يعيشُ في ميناء كيلاري الأيرلندي ذات الجمال البهيّ ربّى الطيور، على الرغم من أنه يبدو أنه أثار غضب بعض السكان المحليين بإعطائه أمراً بوجوب إيقاف الكلاب عن النباح. و لم يستطع أنْ يكون إلاّ نسخة ناقصة من القديس فرانسيس.

من أجل إزاحة الستار عن الرقعة المعدنية، وهو عملٌ أدّاه أحد رؤساء الجمهورية الوطنيين القلائل وكان معاً أنثى وأيضاً قرأ في الواقع بعض كتابات فيتغنشتاين، وَكان الكوخ مزدحماً جداً بالفلاسفة الأيرلنديين والصيادين المحليين الذين يتكلمون الأيرلندية، وبعض السكان المحليين كانوا يحملون أقلّ من ذكريات معتدلة عن زائرهم الأجنبي المهيب. هنا كتبَ قسماً كبيراً من "الأبحاث"، وبعض المسودات المبكّرة التي طلب من رجلٍ محلّي اسمه توم ملكيرينز، كان يُحضِر له الخث، أنْ يحرقها في محرقة صغيرة. ويعلم الله أية أفكار إنسانية ثاقبة تلجم العقل تحطّمت على الساحل الغربي لأيرلندا عام ١٩٤٨. كنتُ قد قابلتُ توم ملكيرينز قبل ذلك ببضع سنوات، عندما وصلتُ

إلى روس روز، مرفأ الصيد الصغير حيث لجأ فيتغنشتاين ليحتمي من العاصفة، وسألته إنْ كان يتذكَّر مثقَّفاً أجنبياً هبطَ عليهم قبل سنين عديدة. كان هناك شيءٌ في سلوكه جعلني أتردَّ. قلتُ "أنا لستُ أول مَنْ يطلب منك هذا، أليس كذلك؟"، فأجاب بشكلٍ مؤثِّر "لستَ الأول ولا الحادي والأربعين". ربما كان في إمكانهم أنْ ينشئوا صناعة فيتغنشتاينيّة، مع قمصانٍ رياضية مزيَّنة بعبارة "العالم هو حسب الوضع السائد" منضفرة مع عفاريت خبيثة. عرضتُ على توم ملكيرينز إشارةً إليه وردت في مذكرات فيتغنشتاين التي نشرها نورمن مالكولم، فلم يُظهِر أيَّ أثرٍ للتأثُّر.

* * *

كان فيتغنشتاين في مدرسة واحدة مع أدولف هتلر، في حين أنَّ فيلسوفاً مضاداً، هو برتولت بريخت، كان ترتيبه الخامس على قائمة النازيين السوداء. بجوار آلة بريخت الكاتبة، وبأسلوب فلسفي مضادّ، وُضِعَ تمثالٌ صغير من الخشب يصوِّر حماراً، وحول رقبته كُتبَ: "حتى أنا يجب أنْ أفهمها". لعلّ مثل تلك المخلوقات يجب أنْ تكون قضية إلزاميّة يُعالجها منظِّرو الثقافة. وكان بريخت يعتقد أنَّ على التفكير أنْ يكون "متعة حسّية حقيقية"، حتى وإنْ تحدَّى المبدأ الرومانسي القائل إنَّ تفكيرنا مصطَنَع لكنَّ مشاعرنا طبيعية. كان يعلم أنَّ الشعورَ مسألةُ تعوُّد، مُحاكاة، مسرح. وعلى الرغم من أنه كان ألمانياً، إلاّ أنه حاولَ أنْ يبذل أقصى جهده لكي لا يبدو كذلك، بنثرِه المقتصد، القويّ، والمدعَّم بالأقوال المأثورة والبعيد كلّ البُعد عن نثر هيغل. وحين جلبَ البرلينر إنسامبل إلى لندن، أمرهم أنْ يمثّلوا مسرحياته كالبرق المُشحَّم فقط لكي يُفنِّد التحاملات الإنكليزية ضد التيوتونيين البليدين. كان طليعياً عنيداً، وقد قال إنّ وضعَ مصنعٍ على خشبة المسرح لا يُخبرك أيّ شيء عن طبيعة الرأسماليّة. ولكنَّ الغريب بالنسبةِ إلى طليعيّ أنه

نادراً ما كتب شيئاً عن عصره الهمجي، وأنتجَ دراما يمكن أنْ تلقى استحسان العاديين من الرجال والنساء. وقد قيل إنه كان أشبه بهجين من رجل دين يسوعيّ وسائق شاحنة لمسافات طويلة، وكان دائماً يحمل لحية عمرها ثلاثة أيام، وهي ظاهرةٌ بيولوجيّة ملفتة للنظر. كان ذلك الحيوان البرمائي، أحد رعاع الطبقة الوسطى؛ اسمه الحقيقي يوجين، ولكن رأى أنَّ وقْعَ اسم برت على الأذن أقلّ خنوثة.

بريخت كان ماركسياً، لكنه ماركسي خارج القطيع، اكتسبَ شارة الشرف النادرة فنُبِذَ من الحزب الشيوعي الدانماركي حتى قبل أنْ يقدّم طلباً للانضمام إليه. و لم يكن يذهب إلى أي مكان دون أن يحمل معه حقيبة سفر، وكان يتنقّل بين البلاد أكثر مما يُبدّل حذاءه، ويُبقي رأسه عمداً تحت المتراس بطريقة لا بطولية، وجعلَ طريقه يمرّ من أمام لجنة مكارثي حول النشاطات المناهضة لأميركا (ملف مكتب التحقيقات الفيدرالية عنه يمتد حتى ١٠٠٠ صفحة)، وبعد استقراره في جمهورية ألمانيا الديموقراطية بعد الحرب العالمية الثانية مارسَ ما سمّاه ذات يوم "النفيّ الصيني"، وهو مزيجٌ بارع من الانسجام الخارجي والانشقاق الداخلي. وأشار سراً إلى ستالين بأنه "سفّاح الشعب المكرّم"، لكنَّ ذلك لم يمنعه من إدارة برنامج العروض المسرحية الستالينية، أو من شجبِ انتفاضةِ العمّال الألمان الشرقيين في عام ١٩٥٣.

لقد كان بريخت مسرحياً ثورياً حقيقياً "نحن لا نمثّل للرعاع الذين يريدون أنْ يُدفئوا أعماق قلوبهم"، هذا ما قاله ذات يوم مزمجراً لممثّليه، الذين كان مسرحهم المثالي هو وسطٌ بين السيرك، والمختبر، وحلبة الملاكمة. ولو كان في الإمكان أنْ يصبح المسرح ما يشبه ميداناً لممارسة الألعاب الرياضية، لأتى للناس العاديين إلى مسرحهم الخاص كاختصاصيين بارعين في التثمين، يقظين ولكن ليسوا رزينين، على سجيّتهم ولكنهم مُحلّلون. وكان يحب أنْ يقول "الفكر فوق العمل".

ولا شيء يُفنِّدُ أسطورة الجماهير الغفيرة الفاقدة العقول بإفحام أكثر من ممارستهم الرياضية. وعلى الممثلين، من جهتهم، أنْ يجدوا وسيلة للتعبير بالإشارة عمّا لا يفعلون بما يفعلون. يجب أنْ يُشيروا إلى أنَّ هناك دائماً مزيداً من الإنتاج وإلى مصدره، وأنْ يجعلوا سلوكهم يبدو مؤقّتاً وذلك لكي يُبيِّنوا أنَّ التاريخ هو كذلك أيضاً. وبتأثير الاغتراب الشهير، يجب أنْ "يقتبسوا" أدوارهم بدل أنْ يُصبحوا هي؛ كان التقمُّص العاطفي هو أداة الفاشية، وليس الاشتراكية. في الواقع، كان لدى بريخت نقطة ضعف اتجاه الممثلين الهواة بسبب التأثيرات الاغترابية غير المتعمّدة التي تثيرها عروضهم الخرقاء. ولذلك كله، لكي تعمل، عليكَ أنْ تحطّم رغبة المشاهدين الطفولية في الإثارة. ولو أنَّ بريخت أخرج مسرحية "في انتظار غودو"، لعلَّقَ يافطة كبيرة على خلفية خشبة المسرح تقول "لن يأتي، كما تعلمون".

كان في استطاعة بريخت أنْ يضع ذلك كله في خدمةِ جماعةٍ مسرحيةٍ تناضل في جمهورية ألمانيا الديموقراطية، ويسمح لها أنْ تُتاجرَ باسمه الشهير عالمياً. ولكنه فضَّلَ مؤسسة مسرحه، التي ضمنت له دفقاً لا ينقطع من السيجار الممتاز، تماماً كما وضع النساء بكل شجاعة في مركز دراماه في حين كان يستغلّهنّ دون أي وازع في الحياة الواقعية. كان يتمتَّع برجولة الذَكَر الكلاسيكي الثوري، لكنها كانت أيضاً خشونة سيحتاجها لاحقاً. لم يكن يرى في المأساة إلا مَهْرَباً بورجوازياً. وكانت فكرته عن المأساة محافظةً في العموم، قضيةَ قَدَرٍ محتوم، طبيعةً إنسانيةً لا سبيل إلى تغييرها وإذعاناً مخيفاً؛ وفي حين أنَّ المحافظين كانوا يحتفلون بهذا النمط من المأساة، رفضه هو. وفيما عدا ذلك كان يتّفق معهم في العموم على الموضوع. وكغالبيّة الطليعيين، كان يتّسِم بمسحة من التفاخر الرجولي. والغريب في الأمر أنه بدا أنه يعتقد أنَّ حقيقية التغيُّر التاريخي وحدها، كائناً ما كان معناها، مضحكة بصورةٍ ما. وفي إحدى قصصه الخرافيّة، يعود الهر

كيونر إلى كوخه بعد غيابٍ طويل لكي يُخبره الجيران بكل مرح أنه لم يتغيّر أبداً. ويقول بريخت "وشحب لون الهر كيونر". وفي غمرة توقه إلى دعم التغيير الاجتماعي، لم يستطع أنْ يعترف بأنَّ بعض أشكال الضياع مُطلقة، وهذا في عصر بوكنفالد[٢٥]. لقد اتَّضحَ أنَّ المخيمات قابلة للزوال، ولكن ليس بالنسبة إلى أولئك الذين بادوا هناك. لم يفهم أنَّ نكران المأساة هو مهرب بقدر ما هو تأكيد لها.

* * *

كانت تجربتي المبكّرة مع الأفكار التافهة الموجهة إلى الجماهير الغفيرة، وهو مشروع أضحى لاحقاً شغلي الشاغل، على صورة عمل قمتُ به وأنا تلميذ كبائع متجول للموسوعات. كنت بائعاً متجولاً من الدرجة الثانية، وهذا يعني أنني لم أُقِمْ صِلة مادية مع الجمهور الواسع – وهو كبحٌ محظوظ، وأنا بمظهري الرث، الأخرق في ذلك الوقت. وكان عملي هو أنْ أعدّ زيارات منزلية لصالح كوشر، وهي أفضل شركة للباعة الجوالين بالهاتف، وذلك بتخصيص منطقة هاتف معيَّنة لي. كنتُ أفعلُ ذلك بحركة عكسية في دليل الهاتف (تحسّباً لوجود شركة منافسة تتحرك نحو الأمام)، ومن ثم أتّصلُ هاتفياً بكل شخص في المنطقة في وقتٍ مُحدَّد بعد تناول الطعام لأسأل إنْ كانوا يشكلون جزءاً من الأقلّية المتضائلة من الآباء ذوي القلوب السوداء الذين يُجازفون بحياة إطفالهم بمنعهم من الحصول على الكتب التثقيفية. لم يكن يُسمَح لنا باستخدام كلمة "موسوعة"، التي كان يُعتَقَد أنَّ لها جرساً رجعياً مُحرَّماً، أو بأنْ نوحي بأنَّ الأمرَ يتعلّق بأية صفقة تجارية دنيئة. هذا المنع المزدوَج كان يجعل من عمل بيع موسوعة أقلّ أمانة مما

(٢٥) بوكنفالد: قرية تقع في سرق منتصف ألمانيا، بالقرب من فايمار، أصبحت معسكر اعتقال نازي ما بين ١٩٣٧ – ١٩٤٥. المترجم

لو أنه تمَّ بطريقة أخرى. وكانت التعليمات تقضي بأنْ أعطي الشخص صاحب الصِلة انطباعاً بأنني أمثِّلُ جهةً ثقافية لا تبغي الربح الماديّ وذات اهتمامٍ علميّ بتطوير الطفل ثقافياً.

منطقة الهاتف التي خُصِّصَتْ لي كانت الشركة تعتبرها المطبّ في طريق الموسوعة البريطانية. وهذا لم يكن يعني أنَّ السكان يشترون في الواقع الموسوعة أو حتى يفكرون في فعل ذلك، بل فقط أنهم إذا ما سُئلوا أي نوع من الموسوعات يمكن أنْ يشتروا في حال حلَّتْ المعجزة المُستبعَدَة وفعَلوا، فالأرجح أنْ يكون الجواب الوحيد هو الموسوعة البريطانية. في الواقع أنا لم أرَ قط الكتب التي كنتُ أبيع، أو حصلتُ على أي ضمان بأنها موجودة، لكنني أستطيع أنْ أصِف محتواها وصفاً شاملاً في الحالات النادرة التي دُعيتُ فيها إلى فعل ذلك. لكنَّ أغلب مَنْ اتّصلتُ بهم إمّا أنهم لم يفهموا ماذا أقول أو رفضوا على الفور. و لم يكن هذا ما أجبرني في نهاية المطاف على ترك العمل، بل الضغط الشعوري جرّاء الانغماس والخروج من المآسي الإنسانية المعقَّدة. ففي إحدى المرات فتحَ لي الباب رجلٌ في منتصف العمر حسبني خطأً الشخص الذي يبتزّه فانفجرَ يجهشُ بالبكاء، لعله فهم طلبي على أنه نوع رفيع التهذيب من التعذيب النفسي. وذلك الانتظار للمكالمات الهاتفية الحيوية كانت تواجهني ببرودِ مُتَّهِم، بينما يتلبَّس آخرون أصواتاً مضحكة، وأتظاهر بأني صديق وأفعل مثلهم. والمستوحشون واليائسون كانوا يطلبون تفاصيل دقيقة عن الكتب ببساطة لكي يستمتعوا بسماع رنين صوت إنساني آخر.

المدهش في الأمر أنَّ الشكاوى على اقتحامي الخصوصيات المنزلية كانت نادرة، على الرغم من أنَّ أحد أصحاب المنازل، الذي اعتقدتُ أنه محام من نوع ما، قاطعني بعد أنْ نطقتُ جملة واحدة من نص الحوار المُوارب لَيسألني بنزَق إنْ كنتُ أحاولُ أنْ أبيعه موسوعة. كان

ذلك سؤالاً يستحيل عليَّ أنْ أجيب عنه، لاحتوائه كلمتين محظورتين، ولكن قبل أنْ أتمكّن من الردّ تابعَ قائلاً: "إنني أمقت هذا التدخُّل على منزلي؛ أعتقد أنَّ ذلك التصرُّف جدير بالازدراء وأتمنى منكَ أنْ تكفَّ عن القيام به". ثم أعادَ سماعة الهاتف إلى مكانها. أعجبتُ بتلك الفصاحة المُرتجلة، وتساءلتُ عمّا كان يفعله في منطقة هاتفي الشعبية إلى أقصى مدى. معظم مَنْ اتّصلتُ بهم كانوا من فرط الهلع، والحيرة والتلعثم بحيث يعجزون عن انتزاع تلك الاحتجاجات الممتازة الصياغة من الهواء.

الموسوعات ليست طبعاً الوسيلة الوحيدة لتعميم المعرفة؛ هناك أيضاً دلائل المُخادِع[٢٦] المتنوعة في الفيزياء النووية، وبوذا للمبتدئين، وسبينوزا المُبسَّط وما إلى ذلك. وذات مرة كنتُ في محل لبيع الكتب في أوكسفورد عندما لاحظتُ أحد زملائي، وهو فيلسوف شهير من أوكسفورد، يستعرض أحد مجلدات تبسيط الفلسفة. انتهزتُ الفرصة على الفور، وزحفتُ نحوه من خلفه وهمستُ: "ألا ترى أنَّ هذا صعب قليلاً على أمثالك؟". استدار وقد أجفلَ، ولكنني ذعرتُ إذ اكتشفتُ أنه ليس زميلي على الإطلاق؛ كان شخصاً غريباً تماماً. وتكوَّنَ لديَّ انطباع بأنه سائح. في مكانٍ ما من العالم هناك رجل لديه من العقل ما يساعده على الاعتقاد بأنَّ أوكسفورد مكان قذر يتقدَّم فيه الغرباء ويسخرون منكَ في دكاكين بيع الكتب وأنتَ تحاولُ باختلاس أن تطوِّرَ نفسكَ.

* * *

هنري لم يكن فيلسوفاً، مضاداً أو غيره؛ كان يعمل في مستودعٍ

(٢٦) دليل المُخادع: اسم لسلسلة من الدلائل في مجالات شتى وضعها خبراء وبحجم صغير للجيب. المترجم

تابعٍ لمتجر تنويعيّ في مانشستر، حيث عملتُ في فصل الصيف الذي سبقَ امتحاناتي النهائية في كمبريدج. كنتُ أقضي ساعات تناول طعام الغداء في مطعم متنقِّل أقرأ أسخيلوس وراسين، وأراجعُ على عجل صحيفة التراجيدّيا، وقد لخَّصَ هنري مرةً الفرق بيننا بملاحظة بليغة: فقد قال لي ذات يوم "أتدري ماذا؟ لقد قرأتَ من الكتب اللعينة في الأسبوعَين اللذين أمضيتهما هنا أكثر مما قرأتُ أنا في حياتي اللعينة كلها". وتابعَ ليستثني ما سمّاه "اليد الواحدة". واليد الواحدة هي مجلات إباحية خفيفة تحملها بيدٍ واحدة بينما اليد الأخرى منهمكة بعملٍ آخر، أسخيلوس لم يكن حتماً هكذا.

حين لا يكون هنري منغمساً عميقاً في قراءة هيغل، كان يكرّس نفسه للتفلسف على طريقته الخاصة. أحياناً كان يجهر برأيه بأننا "لا يمكن أنْ نكون الوحيدين هنا"، وكلمة "هنا" تعني الكون وليس المخزن التنويعي، وكان يتّصف بلمسة حزينة، ما ورائيّة تُقلِقُ زملاءه الأكثر عمليّة في المستودع. كان هناك شيء داعر قليلاً في مثل تلك التعليقات الكونيّة الفسيحة. لم يكن متعوّداً على المزاح الخشن أو إطلاق العنان للتخيّل الجنسي البذيء حول الأمر الأنثوي، على الرغم من أنه يحتفظ في جيبه بصورة فوتوغرافية باهتة قُطِعَتْ من صحيفة مُصغَّرة التي أوردت أنَّ صِياد سمك من كورسيكا قيل إنه يملك بكل فخر "قضيباً لا يمكن التحكّمُ فيه طوله اثنان وثلاثون بوصة". وقد دار جِدالٌ ضار بين الرجال في المستودع حول ما إذا كان هذا يعني "وهو مرتخ" أم "وهو منتصب". لكنني شعرتُ أنَّ اهتمام هنري الخاصّ بذلكَ العضْو الهائل الحجم كان علمياً أكثر منه شهوانياً، ويتماشى مع فضوله العام بالأكوان. وكان أيضاً بصورةٍ ما مُتعدِّد الثقافات، وهو هدفٌ كان دائماً يلقى منافسةً قوية من زملائه في المستودع، وقد قال لي ذات مرة أنه لا اعتراضَ لديه على أيٍ من الجماعات العرقية، "بولنديين كانوا، أم اسكوتلديين، أم أميركيين، أم هنوداً، أم يونانيين".

ثم تفكَّرَ برهةً، قبل أنْ يضيف: "إلاّ الإيطاليين". كان يعتنق التعددية الليبرالية، ولكنه لم يكن كذلك من الناحية النقدية. وكنا نشترك في هذا، أيضاً.

كان هنري يتصرف بكياسة مع زملائه كلهم إلاّ مع بادريك، الكوركي السريع الغضب، الثخين الساقين ذي الفك الشبيه بفك كلب المطاردات، الذي كان يعامله باحتقارٍ ساخر، مكبوت. و لم أدرك إلا بعد ذلك بكثير أنَّ بادريك هو والده. بادريك، الذي كان عمله تشغيل آلة تطحن علبَ الكرتون، ويقضي النهار كله وهو يشدّ العتلة نفسها مراراً وتكراراً، كشخصيةٍ ملعونة من "جحيم" دانتي. ولكن كان ينتابكَ إحساسٌ بأنه يستمدُّ رضاً منحرفاً من ذلك العمل اللعين؛ كان عملاً حقيقياً، ليس كمسح الأرضية العقيم، أو جمع القمامة وترتيب الأغراض على الرف الذي يتوجب على بقيتنا نحن الصِبية المخنثين أنْ نقوم به. كنا مستَخدَمين نؤدي أعمالاً شتى، أما هو فكان حِرفياً ماهراً. كان خنوعاً مع رؤسائه، وكنتَ تشعر أنه مستعد بكل سرور أنْ يمضغ الكرتون بفمه إذا ما تعطّلت الآلة وزمجرت. لم يكن هنري وبادريك يتبادلان كلمة واحدة وكانا يتوجّهان إلى المنزل بعد العمل كلٌ على حِدة، على الرغم من أنهما كانا يعودان إلى المنزل نفسه. كانا متشابهين كتشابه دُبَّيّ كوالا بعصبة من الخنازير تهرشُ نفسها، وبدت صِلة الدم بينهما كأنها حادثة غريبة كأنْ تضربكَ صاعقة وأنتَ في السرير أو تلدغكَ أفعى مامبا سوداء.

خلال الشهر الثاني من عملي في المخزن، أخطأ بادريك في موطئ قدمه بينما كان يحاول أنْ يرتقي إلى غرفة نومه من النافذة، لأنه أضاعَ مفاتيح المنزل في أثناء شجار في الحانة. سقط على الرصيف وتهشَّمت جمجمته، ومات على الفور. استأذن هنري من العمل ليعدّ له الجنازة، لكنه عاد وظهر من جديد ليعمل كالمعتاد. لم يُعلّق على حادثة موت

والده، بل تطوّع أمام دهشتي ليتولّى العمل على آلة سحق الكرتون الجهنّمية. كان يمكن لهذا أنْ يحدث بدافع إحساس الابن بالواجب؛ ولكن تشكّل لديّ انطباع بأنّ ما بدا أنه عمل امتثال كان في الغالب عمل تمرُّد، مُعلناً عن تحرّره من والده بتبيانه أنه لم تكن لديه حاجة إلى أنْ يقوم بإيماءة رفض. وتولّيه عمل والده القديم كان على سبيل تعريفه بأنه مجرَّد شخص آخر، وبالتالي التخلّص منه بعملية وراثة عباءته نفسها.

- ٤ -

سياسيّون

في وقتٍ ما من حقبة الثمانينيات، كنتُ ممنوعاً من الانضمام إلى حزب العمال في وقتٍ كان أناسٌ آخرون يغادرونه جماعات. كانت تجربة شائنة جداً، كالقتال بضراوة لشق طريقك للصعود إلى متن التايتانك، أو كأنكَ وجدتَ نفسك ترتدي زيّ الفايكنغ في حفلٍ يرتدي فيه الناس كلهم ملابس السهرة الرسمية. فبالنسبة إلى حزب العمال بدا إبعاد الناس في ذلك الوقت عملاً عبثياً كأنَّ شركة ماركس وسبنسر تغلق أبوابها لبث الاضطراب بين الزبائن. وهذا لا يعني أنني كنتُ أرغب في الانضمام إلى حزب العمال. لقد وجّهتني منظّمةٌ من أقصى اليسار كي أفعل ذلك وكنتُ حينئذٍ عضواً فيها، وكانت قد طاردتْ حزب العمال المحلّي من أدنى البلاد إلى أقصاها كأنه أرنبٍ ثوريّ. وكأغلب المصابين بجنون الارتياب، كان موظفو الحزب على حق تماماً في ارتيابهم. لقد كان الغرباء بحق يحتلّونهم. ولكن بدا من قبيل الوهم المبتذل أنهم كلما اشتكوا حول هذا الأمر يتعرّضون للسخرية وكأنهم فاشستيون متعصّبون.

استدعتني لجنة الحزب التنفيذية لإجراء حوارٍ معي، وتتألف من عدد من البيروقراطيين ذوي الوجوه الحجرية تذكّرتُ بغموضٍ أنَّ واحداً أو اثنين منهم كان قد قدَّم لي فطيرة لحم غريبة أو زوجاً من الجوارب في أحد المحلات. وبدل أنْ يسألوني عن آرائي في مدارس الحضانة أو عن الوسيلة الفضلى لمحاربة المحافظين، سألني العضو الوحيد العاقل

في اللجنة بدماثة إنْ كنتُ مُصلِحاً أم ثورياً. فاجأني هذا السؤال بكونه حميماً بصورة مزعجة، ويتجاوز الحدود وضحلاً، وكأنه يسألني إنْ كنتُ أعاني من آلام البواسير أو إنْ كانَ قد سبقَ لي أنْ مارستُ الجنسَ في الحمّام؛ لكنني أعطيتُ إجابةً مطوَّلة، وأنا أنفثُ ضباباً كثيفاً من الغموض المتعمَّد وأرمي ظلاً من الشك المُتقَن والمُدجَّج بالحواشي على التمييز بين الإصلاح والثورة على أمل أنْ يعجز المجتمعون عن فهم كلمة واحدة مما أقول. هنا، قاطعتني امرأة في منتصف العمر بدا عليها التضايق بالكلمات التالية التي تبثّ القشعريرة: "السيد رئيس المجلس، قد أكون إنساناً بسيطاً جداً، ولكن...". هذه العبارة الوحيدة القاتلة كانت كافية لتطيح بي. لم يكونوا مهتمين بآرائي حول الفرق بين الإصلاح والثورة؛ كانوا مهتمين بنزع قناعي كمفكر لعين يُكثِر من الكلام، حتى وإنْ كان سياسياً أقرب شَبَهاً بغوردن براون، عن الشعور بالاشمئزاز من الثرثرة الثقافية التي لا يُسمَع شبيه لها أبداً في الحانة الخلفية من محل كراون وأنكور.

ثم سُئلتُ إنْ كنتُ أنوي، إذا ما قُبِلتُ في الحزب، أنْ أستمر في بيع صحيفة حزبي. فأجبتُ بأني سأفعل، لعلمي أنه سيكون أمراً غير دستوريّ بالنسبة إليهم أنْ يرفضوا عضوية شخص يبيعُ صحيفةً لا تدعم مرشّحين غير عمّاليين، وهو ما لم تكن صحيفتنا تفعله. لكنّهم نحّوا دستورهم الخاص جانباً بسرعة ورفضوا انتسابي في كل الأحوال. كان الأمور قد تمادت كثيراً بحيث يجري لعبٌ عادل. عدتُ إلى مجموعتي وأخبرتهم باكتئاب عن فشلي، وأنا مسرور في سرّي لأنه قد تتوفّر لي الآن أمسية واحدة في الشهر دون عملٍ سياسيّ. ولاحقاً قبلني حزب العمال عضواً فيه، بعد أنْ أصبحَ الانضمام إليه أمراً يستحق العناء بوقتٍ طويل.

كانت المجموعة التي انضممتُ إليها، كأغلب المشاريع، قد

انفصلت عن مشروع آخر أكثر صفاءً. هذا الانقسام كان طبيعةً ثانية لأقصى اليسار، ويطرحُ القضية المدرسيّة الخادعة حول كيف يمكن لجماعة قليلة من الناس أنْ تكوّن حركة سياسية. وكما أنَّ المدرسيين يلغطون حول كم ملاك يمكن أنْ يرقصوا فوق رأس دبوس، كذلك يُثير ميلُ اليسار الموروث للانقسام عدداً من الأسئلة الميتافيزيقية الدقيقة، مماثلة لبحث عالم الفيزياء عن أصغر كتلة بناء ممكنة للطبيعة. وكانت السياسة الرئيسيةَ لهذه الجماعة الأصلية سياسة عدم تدخّل متحمسة. في الواقع، لقد انسحبت المجموعة من النشاط السياسي بكل ما فيه من انتباهٍ مُدقّق على التفاصيل الذي تُحصّن به باقي المجموعات وتبرز، مُرهِقةً نفسها بجمودها المبدئي. كانت تفتش في كل مكان عن مراتب مسيرات الآخرين، وتوزّع منشورات تشرحُ فيها امتناعها عن المشاركة في هذه المغامرة التعديلية، والمعتدلة، والعميلة للطبقة. ويعود أعضاؤها إلى منازلهم وينغمسون دون تفكير في حماماتهم، وقد استنزفهم تعبُ عدم البروز.

لم يكن من السهل دائماً تمييز هذه المجموعة عن حلقة قُرّاء الديلي تيليغراف، بما أنّه بدا أنَّ القضية النظرية الرئيسية هي الاحتقار الخبيث للطبقة العاملة. وتحت تأثير الرأسمالية، أصيبتْ الطبقة العاملة بالانحراف وبالتهاب المفاصل، وعلى الرغم من أنها بقيَتْ أداةً في يد الثورة العالمية، إلا إنها لم تعد موثوقة وتوجّب التخلص منها. وموقف الجماعة من البروليتاريا كان أشبه بموقف مريم العذراء من الطفل يسوع؛ اعترفَتْ بقدسيته بكل احترام ولكن دون أنْ تضمر أي وهم بشأنْ تنظيف غائطه. ونشأ سؤال حول ما إذا كان يُسمَح بالكذب على الطبقة العاملة وهو حتماً سؤالٌ أكاديمي دون أدنى شك، بما أنَّ المجموعة كانت تضم عدداً يزداد باطّراد من أعضاء الطبقة العاملة يجب الكذب عليهم منذ البداية. وبعض الرفاق دعموا فكرة "الكذب

الثوري"، بينما أصرَّ الآخرون على وجوب إخبار البروليتاريا الحقيقة، لكنَّ الحقيقة، كما هو الحال، "جَدَليّة".

إنَّ الحقيقة لم تكن، كما يتخيَّل الأيديولوجيون البرجوازيون، مؤلَّفة من بديهيات، والأوضاع الراهنة، والإحصاءات، ومن حقيقة القضية الثابتة، ومن أشياء أخرى كئيبة مثلها؛ لقد كانت ديناميكية، متضاربة، شيئاً دائم التطوُّر، لذلك ما كان صحيحاً من وجهة نظر طبقةٍ ما كان زائفاً من وجهة نظر أخرى، وما كان صحيحاً هنا والآن لم يكن بالضرورة صحيحاً "بتحيُّز"، بلغة الاتجاهات التاريخية الأساسية. لذلك كان "صحيحاً" بالمعنى المادي، الجامد للعبارة، أنَّ كامل عضوية المنظَّمة كان يمكن أنْ يتناسب بسهولة مع مرحاض عام (في الواقع كان يمكن لبعض المراقبين أنْ يعتبروا هذا أفضل مكان لإيداعها فيه)؛ ولكن بلغة الديناميكا الأساسيّة كانت الجماعة أقوى بآلاف المرات. كان "صحيحاً"، بالمعنى التافه، المملّ للكلمة، أنَّ كل أعضائها تقريباً كانوا من المعلّمين، والطلاب، والعمال الاجتماعيين، ومُرتدّي الطبقة الراقية، وأنماط هاربة من المجتمع تفتّشُ بيأسٍ عن تواصلٍ إنسانيّ، أو مضطربين عقلياً غير عمليين يُساهمون بلهفة في قليلٍ من العنف الثوري؛ ولكن باللغة الجَدَليّة كانوا عمالاً شجعان وصانعي غلاّيات مفتولي العضل بالنسبة إلى الرجل العادي. وكانت الفكرة العامة هي أنه حتى عندما يكونون على خطأ كانوا على صواب، وهي عقيدة لا يجد كاثوليكي روماني تقليدي أي مشقة في فهمها.

كان المنطق، في الواقع، موضوعاً إجبارياً للدراسة بالنسبة إلى هذه المنظّمة، وكان على الأعضاء الجُدُد أنْ يتلقّوا دروساً فيه. ووجدَ الشبان والنساء المتحمّسون لتحطيم رؤسائهم أنفسهم بدل ذلك جالسين جامدين في حلقات دراسية مزدحمة بينما رفيق متقدِّم يستخدم لوحاً أسود ليعرض أسرار المنطق. وبدل أنْ يتعلموا أساليب الاستغلال، كانَ

مطلوباً منهم أنْ يدوّنوا ملاحظات حول عدم العدم، أو حول التحويل الجَدَلي للنوعيَّة إلى كمية. لقد جاؤوا ليخلقوا المستقبل وانتهوا إلى غرفة درس الجبر. وكما أنَّ وحدة المتناقضات الهيغيليّة التي أسهمت في مساعدة الكفاح لإبقاء باب مدرسة حضانة مفتوحاً ظلّتْ لغزاً كمبدأ الأعراف الكاثوليكي، كنتُ دائماً أخلطُ وأنا طفل بين تلك المنطقة الشفقيّة التي تسكنها أرواح غير المُعمّدين وبين رقصة للهنود الغربيين التي فيها ينخفضُ الجسم حتى مسافة بضع بوصات من الأرض. وقد سمعتُ في أحد المؤتمرات الاجتماعية عاملاً شاباً كان جلياً أنه أحرزَ نجاحاً في مدرسة المنطق يُخبر رفاقه المجتمعين بكل رضا أنَّ "الأباريق تغلي، وأذيال الكلاب تهتز، والطبقات الاجتماعية تكافح". لم يكن من الأقوال التي تمرّ بسلام في حلقة دراسية في الفلسفة في جامعة أوكسفورد.

من ناحية أخرى، كان خَطْبُ بعضُ أفكارِ الجماعة الفلسفية هو بالضبط أنَّ لا أحد في حلقة دراسة أوكسفورد أبدى أية دهشة حيالها. وكان المبدأ الأساسي للمذهب المادّي، هكذا علَّمَتْ أعضاءها، هو أنَّ هناك عالماً حقيقياً، نستطيع أنْ نتعرَّف عليه. لم يبدُ أنهم يُدركون أنَّ المثاليَّ المسعور والغريبَ الأطوار المختبئ في كهفٍ في مكان ما من مونتانا كان سيُنكر وجوده. وبدل ذلك تباهوا باعتقادهم التافه هذا وكأنه نيشان اعتزاز، وكأنَّ كل مَنْ حولهم، من لحّام القرية إلى السكرتير الأول لوزارة المالية، يضمرُ وهماً بوذياً سرّياً حول زيف الأشياء المادّية. كان الأمر أشبه بتخيُّل أنَّكَ أنتَ وحدكَ وقِلّة من الرفاق المُختارين لاحظتم الحقيقة الرائعة القائلة إنَّ الظلام يحلُّ في كل ليلة، وكوَّنتم نادياً سرّياً يُشكِّلُ التقيُّد بهذه الحقيقة البندَ الأول من دستوره.

كان معظم طاقات الجماعة موجّهاً ليس إلى الصراع مع الرأسمالية العالمية، بل إلى الحرب الأكثر إلحاحاً ضد منظمات يسارية أخرى.

فلكي تقوم الثورة، كان من الضروري أولاً سحق الأوهام البورجوازية الحقيرة لأولئك المؤمنين بالإضرابات، والأسلاك الشائكة، والمظاهرات المناهضة لاستخدام الذرة، والاحتجاجات الجماعيّة، والدفاع عن الوظائف، ومعدلات الرواتب، وظروف العمل، والمستشفيات ورياض الأطفال، وإلهاءاتٍ إصلاحيّة أخرى من المادة التاريخية القريبة المنال. وبأسلوبٍ جدلي رفيع، مثّلتْ كل محاولات بناء نظام اشتراكي في الواقع جهوداً لنسفه، بحيث أنَّ الفعل الثوري الوحيد الأكثر إثماراً كان المكوث في المنزل والإصغاء إلى مسلسل "آل آرشر".

احتفظت الجماعة باشمئزازها الجَدَلي الأعلى قبل أي شيء من أولئك الثوريين المتشبثين بنظرية "خيانة النقابي" التي تدور حول سبب تخبّطنا في تلك الفوضى. كان ذلك يعني، باللغة السياسية، أنَّ الطبقة العاملة تعضُّ على الشكيمة وتتوثَّب للانطلاق، لكنَّها كُبِحَتْ من اجتياح دار كلارنس للنشر ومحطة تلفزيون التيمس بسبب الخيانات الحقيرة لقادتهم الستالينيين، أو المُصلحين أو "اليساريين الزائفين". وبما أنَّ الجماعة اعتبرتْ أنَّ الطبقة العاملة، في حين أنه من الناحية الفلسفية هي الحلّ للغز التاريخ، هي من الناحية العملية عُصبة حقيرة من المختلسين والكسالى يمكنهم أنْ يتحمّلوا ركلة محترمة على قفاهم أو فترة قاسية من الخدمة الوطنية، رفضَتْ بسخط هذه النظرية الأكثر إحساناً حول الافتقار الواضح إلى الحماس الثوري.

ونظرية لامبالاة الطبقة العاملة المزمنة أيضاً لم تكن في الواقع ضرورية؛ بما أنه لم يكن هناك في الحقيقة وجود لمثل ذلك الحيوان. صحيح أنَّ هناك نُدرة في المناظرات الحيوية حول النمط الآسيوي في الإنتاج التي تدور في حانات هاليفاكس، ومعظم الناس هذه الأيام يُحتَمَل أنْ يتحوّلوا إلى الثيوصوفيّة كما إلى الماركسية سعياً وراء إيجاد حلول لآلامهم. والمتحمّسون لمبدأ البنية التحية والفوقية ازدادوا عدداً

كثيراً بانضمام أنصار إبعاد الأجانب. إنَّ الدوائر المقصوصة[٢٧] أكثر رواجاً من الشيوعية، ورامبو لم يعُد شاعراً فرنسياً راديكالياً. ولكن هناك العديد من المناظرات السياسية الحامية تدورُ بين عمال وعاملات في الحانات والشوارع وفي شمال الجزيرة التي أعيش فيها. قد يدّعي البعض أنها أكثر مما ينبغي. عندما تتداخل السياسة مع الحياة اليومية، كما تفعل للخير والشر في أيرلندا الشمالية، عندئذٍ سوف يناقش البقّالون وصيادو السمك الأمرَ بحماس يفوق حماسة مناقشة كرة القدم. والحق، هناك مجموعةٌ من صياديّ السمك أعرفها في أيرلندا الشمالية لا تني تحاولُ بشجاعة أنْ تكفَّ عن مناقشة شؤون السياسة، كما تحاول أنت أنْ تكفَّ عن شرب درامبوي Drambuie أو أنْ تضيف السكّر إلى الشاي الذي تتناوله، بل يجدون أنفسهم ببساطة عاجزين عن التخلي عنه. وإذا كان هذا لا يشكّلُ مشكلةً في كمبريا أو كنتربري فهو انتقادٌ للسياسة، وليس للشعب. حاولْ أنْ تقود سيارتك عبر حديقة أحدهم الخلفية أو أن تُجبِر أطفاله على التعلُّم بشكلٍ كامل بواسطة اللغة الأيسلندية، وسوف يُصبحون ناشطين سياسيين بين ليلةٍ وضُحاها. إنَّ الذين يشكلون منظمةً لمنع دخول اللاجئين، أو يُطالبون بحقّهم في الدفاع عن ممتلكاتهم الخاصة براجِمات صواريخ، قد يكونون مسؤولين، ولكنهم ليسوا لا مبالين. ليتهم كانوا كذلك.

من المنطقي أن نقاوم حدوثَ تغيير سياسيّ كبير ما دام النظام لا يزال قادراً على تزويدك بقدرٍ من الرضا، مهما كان ضئيلاً، وما دام أنَّ بديله يبقى محفوفاً بالمخاطر ومبهماً. مثل ذلك التغيير مزعج، وقد يتَّضح أنه عنيف ومؤذٍ، قد يتركنا في النهاية ونحن أسوأ حالاً، ويطلب

(٢٧) الدوائر المقصوصة: المقصود بها تلك الأشكال الدائرية غالباً التي تظهر في حقول القمح عادة وتُعزى إلى أسباب غامضة. المترجم

منا الكثير دون أنْ نتأكَّد من أنَّه سيعود علينا بفوائد مادية ومعنوية. وعلى هذا فالسياسة الراديكالية لا تُقابَل إلا بالعقوق. ولكن أيضاً من المنطق مقاومة السلطة المستبدّة إذا قام المرء بذلك دون مجازفةٍ مُبالغ فيها مع فرصةٍ معقولة في إحراز نجاح. والحق، سيكون من المدهش إذا ما فشلَ رجالٌ ونساءٌ عاقلون في تحقيق ذلك، ما داموا يرون أنهم تقريباً واثقون من أنَّ ربحهم أكثر من خسارتهم في العملية. وما أن يفشل نظامٌ سياسيٌ في توفير ما يكفي من الرضا ليربط المواطنين ولو حتى على مضض بقانونه، وحالما تظهر بدائل واقعية، قليلة المجازفة بقدرٍ معقول، عندئذٍ يحتاج المرء إلى قدرٍ كبيرٍ من الإقناع لكي يُلازم ما يعرفه. عندئذٍ يصبح التغيير متوقَّعاً مثل كلمة "مِثل" في خطاب طالبٍ مستجدّ في ولاية بنسلفانيا. وقد صحَّ هذا على انهيار أوروبا الشرقية كما صحَّ على انهيار الفصل العنصري. إننا نعيش في عصرٍ ثوريّ، والسياسة الراديكالية لا تلقى على الإطلاق العقوق.

إنَّ عَرْضي الخاص من أجل دفع قضية الاشتراكية سيكون إلغاء الرياضة. وقد تمَّ التفكير في بضع طُرُقٍ حاذقة لإبعاد العامة عن النشاط السياسي. فإنْ كانت الرأسمالية تدمِّر المجتمع الإنساني والصمود، فإنها توفر لهم بدائل قوية في ملعب كرة القدم. وإنْ كانت تستأصل التاريخ والتراث، فإنها تستعيدهما في حوليات الإنجاز الرياضي الضخمة. ومجتمع مُجرَّد من الرمزية يمكنه أنْ يلوِّح برموزه في ويمبلي أو أولد ترافورد، أو حتى أن يرتديها على الطرازِ الاحتفالي. في ميدان الرياضة يشعر الناس العاديون بوجودٍ مشترك يُنكر عليهم في أي مكانٍ آخر، وأيضاً يمارسون خِبرةً عالية لكي يعوّضوا عن حرمانهم من أشياء أخرى. وكالسياسة، له مدفنه الأسطوري الخاص بالأبطال، ويجمع بين الدوافع الذكورية والرفاهيات الجمالية. وإنْ كانت تطلِقُ طاقات صخّابة، فهي أيضاً تتطلَّب انتباهاً دقيقاً. وبما أنَّ أبطالها هم نُسخٌ فخمة من العاديين، أشخاص أسطوريون ولكنهم أناس عاديون أيضاً،

فإنَّ العالم الخيالي الذي يُجسّدونه يصبح مفروضاً أكثر. وكالدين، يعتبرُ الورعون حقاً الرياضة أسلوباً في الحياة أكثر منها مجرَّد طقس يُمارس أسبوعياً. لتلك الأسباب كلها، يجب أنْ يكون الإلغاء الفوري للرياضة، مع الاستثناء الممكن للنوع الأشد بثّاً للملل من ألعاب الألواح الخشبية، على رأس قائمة كل جدول أعمال.

قد لا تكون السياسة الراديكالية مسألة عقوق، لكنها اقتراحٌ متواضعٌ باطراد. وقد علَّقَ برتولت بريخت ذات مرة بأنَّ الرأسمالية، لا الشيوعية، هي الراديكالية، وزميله والتر بنجامن أضاف بحِكمة أنَّ الثورة ليست قطاراً سريعاً بل هي استخدامٌ لمكبح حالة الطوارئ. الرأسمالية هي التي لا ضابطَ لها، والاشتراكية هي التي تسعى إلى كبحها. الرأسمالية، كما لاحظَ ماركس، ثوريّة حتى جذورها، اندفاعٌ قويّ جداً للرغبة الفاوستيّة، والاشتراكية التي تذكّرنا بجذورنا المتواضعة كمخلوقات محدودة مادياً، اجتماعيّة، مكافحة. وعلى هذا فنمط ما بعد الحداثة من إعادة الخلق الدائمة هو الأقلّ راديكاليّة بين المواقف، كيفما قد يرى نفسه.

إنها دلالة على مدى سوء الأمور بحيث أنَّ حتى أشد الاقتراحات تواضعاً القائل إنَّ كل مَنْ على الأرض يحصل على مياهٍ عذبة وما يكفي من الطعام هو حديث أقرب إلى الشِجار. ويمكن للمرء أنْ يفكر في إطلاق ثوراتٍ باسم مثلٍ أعلى وهمي متطرّف، أما تمزيق حيوات الناس بطريقةٍ مثيرة ببَساطة لكي يضمن لكل شخص مؤونة من الخضروات الطازجة فأمرٌ يبدو مثيراً للشفقة بشكلٍ غريب. وحدهم المتطرفون كان في استطاعتهم أنْ يرفضوا ذلك، تماماً كما وافقوا على النظام الرأسمالي العالمي الذي قيل إنَّه في عام ١٩٩٢ دفعَ إلى مايكل جوردان ليقوم بالدعاية لأحذية نايكه Nike أكثر مما دفعَ لكامل صناعة جنوب شرق آسيا التي تنتجها. إنّ الثوريين هم تلك النماذج

الواقعية، المعتدلة، التي تلاحظ أنَّه من أجل وضع الأمور في نِصابها يتطلَّب ذلك عملية تحويل شاملة. وكل مَنْ يتصوَّر خِلافَ ذلك ما هو إلاَّ طوباويّ كسول، على الرغم من أنهم معروفون أكثر كليبراليين وبراغماتيين. وقد أبلغتني طالبة عندي ذات مرة بشيء من الوقار بأنها "ليست ثورية". وبدل أنْ أبدأ بهيغل، فكَّرتُ ببساطة في أنْ أسألها إنْ كانت تقرأ الصحف.

إذن، الثوريون لا هم متفائلون ولا متشائمون، بل واقعيون. الحقيقة أنّ أحد أسباب كونهم شديدي الضعف على الأرض هو أنَّ الواقعية مذهبٌ تطبيقه يتَّسم بصعوبة فائقة. وهذا بالضبط ما فشل البراغماتيون المتسكعون في إعطائه حقه. إنَّ معرفة الموقف على حقيقته هو أساس كل أخلاق فعّالة أو عمل سياسي، ولكن لا شيء يفوق ذلك مراوغة وتطلُّباً للدقة. وبما أنَّ الحقيقة في المعتاد، من الناحية السياسية، غير سارة على الإطلاق، بما أنَّ كون المرء واقعياً يعني عيش حياة حذرة، بعينٍ يقظة، خالية من أية أوهام، ودائماً منتبه لأقلّ ومض من خيال أو عاطفة. وبما أنَّ هذا معاً الطريقة الوحيدة للعيش ولا وجود لأي طريقة أخرى، فإنَّه خليقٌ بالسياسة الراديكالية أنَّ تكون ممارسة متناقضة. وقد يكون أصحاب المهن الناجحون فيها هم آخر مَنْ يمثّل قيم المجتمع الذي يقاتلون من أجله مجتمع يفسحُ مجالاً رحباً للوهم والعاطفة تماماً كما أنَّ لا أحد ينضم إلى نادٍ يفتقر إلى الذوق وفي حالة مذرية بدرجة كافية لتجنيد أناس يشبهونهم. وكما تقول إحدى قصائد بريخت: "آه، نحن الذين حاولنا أنْ نمهّدَ الأرض للصداقة لم نستطع نحن أنفسنا أنْ نكونَ ودودين".

لكنَّ الواقعية، في بعض أشد الأحياء يساريّة، تُعتَبَر مؤونة سقيمة أكثر منها قدرٍ ضئيل من الانتصار. ومؤخراً حضرتُ مؤتمراً اشتراكياً في لندن نهضَ فيه عامل شاب ليعلن أنه لم يحدث أن توفَّر مثل هذا العدد

الكبير الحالي من الفُرَص الثورية. لعله كان جالساً فترةً طويلة في أشد الغرف ظُلمةً ويغطي رأسه بكيس من الورق، لكنه تلقّى قدراً وافراً من التهليل والتصفيق، كالذي تتلقّاه إحدى تلك التصريحات المضحكة برصانة عامةً في بعض الحلقات اليسارية. هناك أولئك اليساريون الذين يبقون تواقين إلى توقُّع انفجار ثورة وشيكة في أثناء زحفهم على أرضٍ يباب بفعل الإشعاع النووي وإحدى سيقانهم على الأقلّ مكسورةً. في مثل تلك البيئة، تُشجَب الواقعية بوصفها متشائمة، كما اعتبرتها الطبقات الوسطى الفيكتورية. وهناك خوفٌ شديد الاحتشام من أبعاد التاريخ الأكثر مأساوية والأسوأ جديرة بممثل هزلي من مسرح آخر الجسر[٢٨]. ويُصبحُ الحديث عن "اندفاع مستمر نحو الأمام" و"البروز القادم لحركة الجماهير" مجرد كلامٍ مبتذل، وأقرب شبَهاً بالسياسيين الأورثوذوكس الذين يتكلّمون عن أسلوب حياتنا في زمن التغيُّر السريع، وعما ينتج من حاجة إلى مواجهة تحديات قاسية ولكن أيضاً إلى أنْ ننتهز فرصاً جديدة، وعن السهولة المثيرة للاشمئزاز التي يمكنهم بها أنْ يحصلوا على الشهرة الرخيصة بوضع سياسات حزبهم موضع التنفيذ، وكيف أنَّ أعلى درجات الاتّحاد تنسجم إلى أقصى حد مع أغنى قدرٍ من التنوُّع.

إذن، لا زالتْ هناك حفنة من الرؤيويين اليساريين الذين يتكهّنون باقتراب وصول الاشتراكية، تماماً كما أنكَ في الولايات المتحدة الأميركية تستطيع أنْ تعثر على جماعات إنجيلية تناقشُ بكل جدّية مواضع آلات التصوير التلفزيونية الموزَّعة حول العالم التي ستسجّل بشكلٍ أفضل المجيء الثاني للمسيح. ولكن، طبعاً، في هذه الأيام لم يعُد سهلاً على اليسار عموماً أنْ يصدّق أنهم يحملون التاريخ في

(٢٨) مسرح آخر الجسر: مسرح كوميدي مُقام في سرادق في نهاية جسر. المترجم

جيوبهم. وهذا يجلب معه فوائد معيَّنة. فكما أنَّ عهود تمرُّد اليسار تمدُّ المرءَ بنفاذ بصيرة قد يكون في حالات أخرى مبهماً، الأمر نفسه يصحُّ كذلك على فترات الهزيمة. وقد علَّقَ والتر بنجامن ذات مرة بكآبة قائلاً إنَّ أسلوبه النثري كان يمكن أنْ يكون أقلَّ إبهاماً لو أنَّ ثورةً نشبتْ في ألمانيا، كان يمكن أنْ يعني بها من بين ما يعني أنَّ الانجراف مع تاريخٍ في حالةِ صيرورة يجعل العقل يركِّز بشكلٍ رائع لا أنْ يُشنق.

ولكن ينتج عن هذا أيضاً آثام مترابطة من صفائيّة، وعجرفة، وسرعة مفرطة، وقصور بصر، وهي حال تستطيع فيها، بما أنكَ ترتقي سلَّم السياسة، أنْ تتحمَّل طرد الملوَّثين أيديولوجياً وأنْ تحدِّق إلى حصان مُهْدى بصفاقة في فمه. إنَّ المهزومين أكثر حكمة من ذلك، وإنْ كانوا يميلون أكثر إلى الإرهاق والكآبة. وهم أيضاً يعون بسخرية أكبر حدود المجال السياسي، وهو ما ينبغي على أية سياسة فعّالة أنْ تكونَ عليه. إنَّ الوافد الجديد هو الذي يجعل من الشيء السياسي تعويذة، والمُتشبّث بالزمن الغابر يعلم أنه أحياناً يكون اللازم ليس تصويتاً بل كأساً مضاعفة من الفودكا أو مقطعاً عاصِفاً من السمفونية التاسعة لبيتهوفن. ولكن من الممكن دائماً جعل الفشل تعويذة أيضاً، خاصة في سياسة راديكالية تنصبُّ كلها على الحِفاظ على ميثاقٍ معقود مع المهزوم. كيف يمكن لمثل ذلك الميثاق أنْ يصبح ساري المفعول دون خيانة الذات المثيرة للسخرية؟ ومع ذلك وحده الليبرالي يزدري مثل هذه القوة، من ناحية لأنه يفشل بأسلوبه المتميِّز في أنْ يدرك أنَّ القوة يمكن أنْ تكون مُحرِّرة وأيضاً استبدادية. من غير المتوقع أنْ يبخس المحرومُ حقَّ فوائد القوة، مع أنَّ فقط عندما تغيَّر معنى القوة ذاته بحيث لم يعد أحد يتعرَّف عليها أصبحَ ممكناً القول إنهم سجّلوا نصراً حاسماً.

كانت الجماعة التي انتميتُ إليها قد انفصلتْ عن أخرى أكثر تعصُّباً، وعلى الرغم من أنني احتفظتُ ببعض آثار هذه الصفائيّة إلا

أنها كانت في العموم نتيجة أقلّ تزمّتاً بكثير. وصحيحٌ أنّه كان على المرء، فقط لكي يسمعه رفاقه ويفهموه، أنْ يستخدم بعض التعبيرات الشكلانيّة الطريفة. لم يكن يُخطِّط للأحداث بل "يسعى إليها"، وكان ينبغي إقحام صيغة الفعل "يُكافح" داخل خطابه على فترات مُنتَظَمة. إنَّ المرء لا يكوّن اتفاقاً جماعياً، أو رأياً أو طابوراً أمام الحافلة بل يُكافحُ للسعي إليه، بحيث أنَّ شعار "الحياة كفاح" ارتقى من حالة الصوت العالي المبتذَل إلى ما يقترب من الرؤيا الفلسفية. والطبقة الحاكمة لم تكن فقط ترتكب المظالم، بل تفعل ذلك "وتكرّرُ فعله مراراً وتكراراً"، بينما لم يعبِّر الرفاق عن آراء حول حالة الطقس بل "اتّخذوا مواقف" من الموضوع، أو على الأقل "كافحوا" لفعلْ ذلك. أحد الرفاق، كان يعمل في دكانٍ محليّ لبيع الكتب قادَ فيه حركة كفاح من أجل الحصول على أجورٍ أعلى، أخبرني أنَّ ذلك الهياج الخفيف الذي أثارته حفنةٌ من العجائز مساعدي أصحاب دكاكين بيع الكتب شبه الأكاديميين "كان يتَّصِف ببعض السِمات الرئيسية للثورة المستمرة كما أوردها تروتسكي". لا شك في أنَّ ذلك كان سيأتي مُفاجئاً لمدير قسم التاريخ القديم.

ومع ذلك، كانوا رجالاً ونساءً دهاةً، متأقلمين، ومُخلصين كافحوا لحماية خدماتٍ حيوية واستطاعوا أنْ يجمعوا مؤونةً غنية من التجارب لكي يفعلوا ذلك. إنَّ من السهل بقدرٍ كافٍ الهزء من مدى الجدّية التي تتعامل بها تلك الأجساد الصغيرة جداً مع نفسها. لقد احتشد ما يُقاربُ خمسين من الرجال والنساء لمواجهة المتعدّين على الحدود وعلى عالم الميليشيا، وخطّطوا بكل جدّية للانقلاب عليهم. إنَّ في ذلك الكثير من الزيف، كرؤساء جامعة أوكسفورد الذين رموا بأنفسهم تحت القطارات لأنَّ المكتبة البودليانية أغلقَتْ أبوابها بشكلٍ مؤقّت؛ لكنه أيضاً مثالٌ على المبدأ الأخلاقي القائل بأنَّ عليك في مواقف معيّنة أنْ تقوم بالعمل الصحيح مهما كانت النتائج. وبما أنَّ هذا مبدأ نادر

وجوده إلى أقصى مدى في الحياة السياسية، فينبغي رعايته بسبب قيمته المتجددة وحدها. يجب أنْ تحرس المعمل المعرّق[٢٩] حتى وإنْ لم تكن لديك أدنى فرصة لإغلاقه، وتنادي بالقضاء على الفصل العنصري في مقالتكَ الافتتاحيّة حتى وإنْ كنتَ تعلم أنه فقط ٢٠٠ شخص سوف يقرؤونها. والنتائج هامة، لكنها ليست كل شيء: فالمرء لا يُحجِمُ عن العناية بأحد جرحى زلزال فقط لأنه يعلم أنه في غضون عشر دقائق سينهار البناء بأكمله فوق رأسه.

ولا كان لدى الجماعة مشكلة خاصة مع المفكرين في وسطهم. على العكس، وجدتُ نفسي أرعى جلسات ثقافية حول كومونة باريس، والثورة البلشفية والنظرية العمالية حول القيمة أدارها عمالٌ شبان أعدّوا مادتهم بكفاءة. وعلى ذلك تمّ الانقلاب على النظام الطبقي بشكلٍ مُرضٍ. وعلى سبيل العودة، اعتمدتُ على كامل ثمار تدريبي المهني بإدخال الفواصل المنقوطة على مخطوطة كان أحد أعضاء الجماعة، وهو ممثل نقابة العمال في مصنع للسيارات في أوكسفورد، قد كتبها حول تجاربه هناك، ونشرها لاحقاً. وبينما رفاقٌ آخرون كانوا اختصاصيين في مذهب النقابيّة، كنتُ أنا مُختصاً في الإعراب. كنتُ قد عملتُ جنباً إلى جنب مع ممثلي نقابات العمال مرةً من قبل عندما شكّلت مجموعة من أكاديميي كمبريدج بقيادة ريموند ويليامز منتدى في البلدة، جمعَ ممثلي النقابات من مواقع العمل المحلية و لم يكن أحدهم قد قابل الآخر من قبل، ناهيك عن جمع التجارب.

في العموم مفكرو الطبقة الوسطى هم الذين لديهم مشكلة بشأن مناصرة الطبقة العاملة ويقلقون بشأنْ لُكنتهم الممتازة؛ والعمال أنفسهم

---

(٢٩) المعمل المُعرّق: مؤسسة صناعية صغيرة تستخدم العمال بأجور منخفضة وأحوال غير صحيّة، إلى آخره.

مستعدون عادةً لقبولهم إنْ كان لديهم شيء مفيد يقدّمونه. وهناك حكاية عن أكاديمي من أوكسفورد دُعيَ لإلقاء محاضرة في رسكن، وهي كلية نقابة العمال في أوكسفورد، فبدأ بخدعة الانتقاص من الذات الجديرة برئيس كلية فادّعى أنه لا يعرف أي شيء عن الموضوع المطروح. فانفجر صوتٌ من الخلف بلكنة لانكشير الكاملة: "إنَّ معرفة الفن مُجزية!". كان من الغريب أنْ يحضر لأداء عمل في المنشآت ويدَّعي بصورةٍ رئيسية أنه لا يعرف أيَّ شيءٍ عن استخراج الفحم من المناجم.

لم يُخفِّف طلاب رسكن من لهجة انتقادهم. بعضهم تلقوا دورة في الأدب الإنكليزي، وكانت تديرها في ذلك الوقت امرأة اسكتلندية محترمة، وكانت هناك حلقة دراسية عن قصيدة لبليك تدور حول وردة ميتة. وبعد أنْ قرأتْ المُعلّمة القصيدة بشيء من الأناقة المتكلّفة، سألتْ طلابها عمّا اعتقدوا أنه مغزاها. في أغلب كليات أوكسفورد، كان يمكن لهذا أنْ يعني دعوة إلى التفكير بصوتٍ عالٍ حول النسيج المعقَّد للدوافع المتنوعة للقصيدة، والطبيعة المبهمة لصِوَرِها الآسرة، وملاءمتها لعددٍ من القراءات المختلفة. ولكن ليس في كلية رسكن. ورفع رجل ضخم من ليفربول يده وأعلنَ بتوكيد: "إنه مرض تناسلي، أليس كذلك؟". كان يمكن أنْ يكون على صواب. لكنَّ طلاب رسكن للأدب كانوا يميلون إلى الشعور بالعداء نحو نظرية الأدب الماركسية التي كان بعضنا يُطبقها عملياً. لقد كان عالم السلطة السياسية والإنتاج المادي هما بالضبط ما جاؤوا إلى أوكسفورد هرباً منه، وكانت قراءة الروايات والقصائد فترة راحة ممتعة من ظروفه القاسية. معظمهم لم يكونوا يهتمون بالتأويلات الاشتراكية للأدب، أكثر من اهتمام عالم الطب بالنواحي الفيزيولوجية لتبادل القُبَل في أثناء التقاء اثنين.

أمضينا ردحاً طويلاً من الزمن في إصدار الكراسات في مصنع

السيارات المَحلي، ولم يكن نشاطاً مثمراً كثيراً. كنتُ أستيقظ مع تسرّب أول خيوط الفجر من بين ستائري، وأصطحبُ معي أحد الرفاق، أصبحَ الآن خبيراً اقتصادياً هندياً، ونتَّجه معاً بالسيارة إلى المصنع لنوزّع الكراسات مع اقتراب نوبة الصباح الباكر. لم تكن الكراسات مادة دعائية مُضجرة بل تحتوي معلومات مفصَّلة، تُجمع من رفاق داخل المصنع، وتدور حول آخر الجهود المشينة التي تبذلها الإدارة لزيادة سرعة وتيرة العمل وتخفيض الأجور. بعض العمال كانوا يعرفون ذلك، بل ويقومون بجولة لجمع مواد لكراسة؛ وآخرون يأمروننا بأنْ ننقلع إلى موسكو حيث (كما أشاروا وكانوا على حق) لن نتمتَّع بما يُتاح لنا من حرية التعبير هنا. وبصقَ اسكتلندي شاب مهزول ذو لحية صغيرة مُدبَّبة بنّية اللون على الكرّاس المعروض ببراعة عالية حتى أنَّ لعابه استقر على شكل كتلة في منتصفه. وذات مرة عمد خادمٌ آخر لرئيسة الصف إلى إطفاء عقب سيجارته بأناقة على أحدها في أثناء مروره بسرعة من بوابة المصنع، وتركني مع حفنة من الرماد الساخن.

بعد أنْ سعيتُ هكذا إلى كشف النقاب عن حل لغز التاريخ، انطلقَ زميلي ليرعى شؤون ابنته المولودة حديثاً، وذهبتُ أنا لأكتب مقالةً افتتاحية عن ديكنز أو ت. س إليوت. على الأقلّ لم نكن بورجوازيين حقيرين بقدرٍ كافٍ بحيث نعود إلى النوم. بدا ذلك فصلاً غريباً بين النظرية والتطبيق، وكانت الجماعة تُكثِرُ من التبجُّح بأنها تجمعُ بينهما. وقد أخبرني أحد الرفاق بنفاق أنه "استنبطَ نظريته من واقع ممارسته"، وكان بلا شك يعني بذلك أنه توصل إلى تخمينه لنظرية روزا لوكسمبرغ حول الإمبريالية عن طريق بيع الصحف خارج أحد مخازن وولوورث في صباح كل يوم سبت. أما أنا، فعلى النقيض، كنتُ ناشطاً بالقناعة وليس بالمزاج الخاص، وكنت دون أدنى شك أفضّل قراءة بروست على التظاهُر احتجاجاً. كنتُ مُعجباً بالعمل الشاقّ حتى الإرهاق الذي يبذله أعضاء الجماعة الآخرين، وشعرتُ بافتقاري إلى

مثل ذلك التكريس؛ ولكنني بعد ذلك بفترة وجيزة أدركتُ أنَّ بعضَ أعضاء الجماعة في حاجة إلى التظاهر احتجاجاً بقدر حاجتي إلى قراءة بروست، وأنَّ تكريسهم النابع من ضمير حي على هذا الأساس ليس أنانياً كما بدا. إنَّ المنظمات اليسارية غالباً ما تزوِّدُ الذين قد يجدون، في حالة أخرى، أنَّ من الصعب أنْ تكون لهم حياة، بحياةٍ اجتماعية، وحتى عمل إعداد الكراسات في الصباح الباكر أفضِّله على التمدُّد وحيداً على السرير طوال فترة الصباح.

على هذا كان هناك رفاق ليس فقط يتجادلون في السياسة، بل يفعلون ذلك وهم يأكلون، ويشربون وفي أثناء نومهم. خاصةً في أثناء نومهم. وفي مرحلةٍ من حياة الجماعة المهنية، كانت أمراض تناسلية مُعدية تنتشر تقريباً بسرعة انتشار نظريات الاستعمار الجديد. واختلط البناء والعصيان المسلَّح باضطراب مشوِّش، وكانت المنظمة وسطاً بين الكوميون والحريم. كانت تزوِّد بنوع من خدمة المواعيد الغرامية بين الطبقات، وعبرها استطاعَ عمالِ هزيلون من غلاسكو لم يصدِّقوا حظّهم أنْ يرتبطوا بصبايا رشيقات من كلية سيدات تشيلتنام ذوات لكنة مخشوشنة بدقة موسوسة. ووجد ممثلو نقابات صُلع، ضخام البطون، أنفسهم وقد مسَّتهم الدهشة متلألئون كنجوم الغناء في عيون الصبايا المتخرجات حديثاً من مدرسة الراهبات والمتلهّفات إلى التعويض عن جرائم زمن الدراسة. وتراجَعَ رجال الطبقة الوسطى المتنافسون مع زملاء من الطبقة العاملة على نيل الحظوة الجنسية عند الأعضاء الإناث طوعاً، معترفين بالأولوية التاريخية للبروليتاريا. وكان باقي الأعضاء ببساطة معرَّضين لضغطٍ قاسٍ من العمل السياسي بحيث لم يكونوا يمارسون الجنس أبداً، أو حتى أنْ يتبادلوا نظرات شهوانيّة. كان المتزوجون يختلسون وقتاً من تنظيم مبيعات السوق الخيرية لينجبوا طفلاً.

في الواقع، الأطفال هم الذين شقّوا صفوف الجماعة نصفين. كان الأعضاء يجالسون بانتظام أطفال الرفاق الذين ينجبون أطفالاً، لكنّ هذا كان عملاً خاصاً، وليست له أية أولوية. ثم عَرَضَتْ بعض النساء في الجماعة رسمياً أنْ تصبح مُجالسة الأطفال عملاً إجبارياً واجباً على الجميع. قابلَتْ القيادة العرضَ بفزع: كان صعباً تجنيد عامل سيارات شاب من المناضلين دون إبلاغه الخبر البغيض بأنّه سيكون عليه أنْ يأخذ إجازة من سحق كتل الحديد وينتقل إلى تعقيم الزجاجات وتدفئة الحليب. لكنّ اقتراح النساء فاز، والجماعة التي كانت تضحك ساخرةً من استخدام الكلمة السائرة على الجنسين "الإطفائي" قد أجرت تحوُّلاً شبه تاريخي.

ربما كانوا سيضحكون بسخريةٍ أقلّ لو أنَّ دراستهم الكلاسيكية لأصل الكلمات كانت على المستوى المطلوب. فكلمة proletarius في العالم القديم كانت تعني أولئك الذين من شدَّة الفقر بحيث لا يستطيعون خدمة الدولة بممتلكاتهم، ويخدمونها بدل ذلك بصناعة طاقة العمال. وكان دورهم هو إنجاب الأطفال؛ وبما أنَّ العبء التاريخي لهذه المهمّة كان يقع بالدرجة الأولى على كاهل النساء وليس الرجال، لم يعد من قبيل الإيماءة التي تجاري الموضة إعلانُ أنّ البروليتاريا هي امرأة. وإنْ كان الأمر كذلك في الزمن القديم، فهو صحيح اليوم أيضاً. ويتحدَّث عالم الجغرافيا ديفيد هارفي عن القِوى المتناقضة في السياسة العالمية اليوم بوصفها "البروليتاريا المؤنّثة". وتلك المشاحنات القديمة الكئيبة القائمة بين مناصري المرأة والاشتراكيين لا يزال لها عذرها؛ لكنّ الرأسمالية المتقدِّمة نفسها ذكَّتْ نارها باطّراد. إنَّ الرأسمالية هي التي تدفع بالاشتراكيين ومناصري المرأة إلى أحضان بعضهم بعضاً. ونحن نتكلّم، طبعاً، مجازياً.

وذات يوم دفعَتْ الشرطة بي، وليس الرأسمالية العالمية، إلى أحضان

أنثى رفيقة. كنا نقوم معاً بإلصاق الصور في مركز المدينة التي تُعلِن عن اجتماعٍ سياسي، وكنا جالسَين في سيارتي مع فراشينا ودِلاء الصمغ، مستعدّين لخوض مغامرةٍ جديدة. في تلك اللحظة برزت سيارة شرطة للتفتيش من شارعٍ جانبيّ. كان ضباط الشرطة قد تلقّوا أوامر بإبقاء الصور المحظورة على مكان إلصاقهم عند مستوى معقول، وسيارة الشرطة تلك كانت مريبة بكل وضوح. ودون أنْ ننطق بأية كلمة، ارتمينا في أحضان أحدنا الآخر في عناق مشبوب، وحين لم ترَ الشرطة أكثر من اثنين يتبادلان قبلة عنيفة، تابعت طريقها. وكان التاريخ قد دعانا إلى تنحية تواضعنا الطبيعي جانباً لكي يدفع بقضيته الجليلة إلى الأمام.

ذات مرة قرّرتْ صحيفة يمينيّة أنْ تكشف سر الجماعة. واتّضَحَ أنه عمل دقيق حتى الوسوسة، وعلى قدرٍ مثير للإعجاب من الحِرَفيّة. فوصل رجلان إلى أوكسفورد، ونزلا لمدة أسبوعَين في أفضل فندق في المدينة، وباشرا دون رحمة في تفكيكنا. ورفضنا أنْ نفتح أبوابنا الأمامية لهما، فأخذا يُسرّبان من خلالها معلومات حيوية لا يعرفها إلا أربعة أو خمسة من الرفاق، وكلهم لا يقلّ ثباتاً وإخلاصاً عن خادم الرجل الوطواط. وكل ما كنا نودعه البريد كانا يعرفان محتواه في غضون يوم. وابرزَ أحد المصورين رأسه وحاولَ أنْ يلتقط بضع صور لأحد كبار أعضائنا؛ وحين تلقّى توبيخاً قاسياً، شهرَ مسدّساً. ولاحقاً اعترفتْ الصحيفة عبر الهاتف بأنه كان يعمل مستقلاً وأنهم يلجؤون إليه أحياناً في الحالات "الدقيقة". وقد اعترض الباحثان طريقي عند باب الخروج عدة مرات، وهما يُدلّيان أمام وجهي نسخةً من وثيقة كنتُ قد كتبتها إكراماً لعيني الجماعة فقط. كان أحدهما نسخة مُجعّدة من شخصية Lunchtime O'Booze، بينما الآخر بدا أقربَ شَبَهاً برجل شرطة. طلبَ مني مُتلبّساً هيئة اهتمام حقيقية أنْ أشرح له الفرق بين جماعتنا ومنظمة يسارية أخرى فيما يخصّ نقطة في المذهب الماركسي شديدة

السرّية. قلتُ مُحتجّاً، "أوه، هيا، إنَّ قرّاءكم لا يريدون أنْ يسمعوا عن هذا". فأجاب "أعلمُ ذلك، أما أنا فأريد – بشرفي أريد. إنني أقرأ هذه المادة منذ أكثر من عشرين عاماً. ما الفرق بين جماعتكم والـ WRP (حزب العمال الثوريين) فيما يخص الانتقال من النظام الإقطاعي إلى الرأسمالي؟". كان جليّاً أنه أحد خبراء الـ MIO (مكافحة التجسُّس) في الماديّة التاريخية، ومثل بعض أعضاء كتيبة مكافحة الرذيلة المعيَّنة لتدمير الأفلام الفاسقة طوَّروا ذوقاً خاصاً في تلك المادة. وفكّرتُ في البدء بهيغل، لكنني قرّرتُ بدل ذلك أنْ أصفع الباب على قدمه.

وصلتُ إلى أوكسفورد لأجد الروح النضالية عند الطلاب في أوجها. وبما أنني كنتُ أتمتَّع بتسهيلات في الهاتف المجاني في الكلية، كان طلابٌ غير حليقين ويرتدون معاطف مطريّة يندفعون إلى غرفتي في أثناء إعطائي درس خصوصي عن جورج إليوت ويسألونني إنْ كان في استطاعتهم أنْ يُجروا اتصالاً هاتفياً إلى كوبا أو موزامبيق. ويغمغمون ببضع رموز، وينطقون بكلمات مشوَّهة في الهاتف، ثم يندفعون خارجين من جديد بإبهام. أعطيتُ حلقة دراسية على ضوء الشموع في أبنية المدارس التي يشغلها الطلاب في شارع هاي، لأنَّ مراقبي الجامعة كانوا قد قطعوا التيار الكهربائي ببراعة. كانت هناك شِفرات، وإشارات، وسترات قتالية، وكلمات مرور، وأسماء زائفة، وكامل بزة جيش رجال العصابات طُوِّرَ بغاية الحصول على اتحاد طلابي مركزي مزوَّد بأدوات لعبة السنوكر . واهتاج الطلاب من أجل إجراء إصلاح على خلاصة الأدب الإنكليزي وعلى إنشاد "تذكَّروا تشّي!". وصلتُ إلى جامعة دانماركية راديكالية لإلقاء محاضرة سياسية فوجدتُ في استقبالي اثنين من الأكاديميين يبدو عليهما الخجل، أحدهما يقبض على جهاز تسجيل صغير. وشرحا لي بعينين منخفضتين يملأهما الحياء أنَّ طلابهما يعتبرون المحاضرات كنوع من العنف، بل أنَّني إذا وافقتُ على تسجيل حديث معهما فسوف يحملان أفكاري

المُسجّلة إلى مجموع الطلاب، وعندئذٍ سوف يصوّتون دون أدنى شك حول ما إذا كانوا سيستمعون إليها أو أنَّ يعتبروا الشريط المُسجَّل هو شكل من أشكال الاضطهاد التكنولوجي.

كان لحركة الطلاب حينئذٍ سخافاتها الصغيرة. ولكنها أيضاً لعبتْ دوراً حيوياً في وضع حدٍ للحرب الدموية الدائرة في جنوب شرق آسيا، وفي دَمَقْرَطة أكاديميةٍ كانت تشترك في الجريمة بذلك العنف. وإبداء القلق من شرائط تسجيل أفضل من أناقة جيل لاحق من الرجعيين الشبان المهتمين بأنفسهم بصورة وحشية ويعرفون بالضبط منذ سن الثامنة عشرة أية طاولة مكتب في وزارة المالية ينوون أنْ يشغلوا. وخلال السنوات التاتشيرية، أصبحَت قراءة موضوع جامعي كاللغة الإنكليزية، التي لا تجلب معها أي لون من الأطعمة إلى عالم سمسرة البورصة، خَياراً سياسياً ضمنياً. على الأقلّ، بعض الطلاب كانوا ما يزالون ينتقون ما يستمتعون به، كتحدٍ للنفعيّة التامة التي تجري من حولهم، وأصبحَ لتشوسر وجين أوستن على هذا الأساس مغزى سياسي جديد. لكنَّ المناخ الفكري كان قد تغيَّر بتطرُّف: فالشبان الذين في عشرينات أعمارعم الذين كانوا قبل فقط بضع سنوات يتحركون في وسطٍ تعني فيه الراديكالية، حتى وإنْ لم يُصادقوا عليها بأنفسهم، الكثير كما تعني الآن الداروينية أو لقاحات شلل الأطفال حين تُحدِّقُ في وجوه الأكاديميين الذين يُشاعُ أنهم ماركسيون بفضول كمَن يواجه غائطه للمرة الأولى. وللمرة الأولى منذ عِدَّة عقود، لم يكن لدى جيل الطلاب أي اهتمام بالسياسة يحتفظون به للذكرى. كانوا هائمين على وجوههم بلا ذاكرة، أسرى تجربتهم الخاصة كسمكة ذهبية داخل وعائها.

يستحق الأمر أنْ نسأل لماذا ما كانت له أهمية سياسية في السابق لم يعُد يعني الكثير الآن. ما الذي تغيَّرَ بالضبط؟ طبعاً هذا لا يعني أنَّ

النظام الرأسمالي قد تراخى؛ على العكس، لقد أصبح أوسع انتشاراً، وأكثر عِدائيّة وانتصاراً من أي وقت. وهذا، بالضبط، هو التغيير الذي طرأ. إنها كالمعتاد مسألة عمل تجاري ولكن بمعيار أعلى. وبهذا المعنى، هُزِمَتْ الاشتراكية و لم تضعُف. وبمفارقةٍ غريبة، إنَّ ما يجعلها مناسبة أكثر من أي وقتٍ مضى هو بالضبط عجزها التام، بما أنَّ عجزها هو إشارة إلى أنَّ النظام الذي تعارضه خارجٌ بصورة خطيرة عن السيطرة.

أحد الذين امتحنوني في أطروحتي لنيل درجة الدكتوراه كان المؤرّخ إ. ب طومبسن، الذي أكاد لا أعرف عنه أي شيء خارج نطاق الحلقات الأكاديمية. ووجدتُ قاعة الامتحان لأجده يُحدِّق بحزن عبر النافذة، وجزّة الشعر الأسديّة الضخمة التي تزداد ابيضاضاً تنعكس صورتها كخوذة عتيقة على الزجاج. كان رجلاً رخوَ المفاصل، ممشوقَ القامة، رشيقَ الحركة، ذا عينين نافذتيّ النظرات، ووجهٍ وسيم، ومُخشوشنٍ قليلاً، وهزيل، جدير بممثل، ويحب تدخين سيجار الشيروت الرخيص. وكان أحدها يتدلّى من بين شفتيه حين سألني بطريقته المتشدقة الأجشة قليلاً في الكلام الخاصة بالطبقة الراقية إنْ كنتُ أعلمُ مَنْ بحوزته الرسائل التي بنيتُ على أساسها أطروحتي وبَعَثْتها شخصيةٌ مغمورةٌ إلى وليم موريس. اعترفتُ، وقد أربكني هذا الشخص المتفوق بهذه النقطة الفصل، بأني لا أعلم. ثم أنبأني بأنها في حوزته هو.

لم تكن تلك البداية هي الأشد إثارة للريبة التي تُقدَّم لامتحان رسالة دكتوراه. واستمرَّ في مزاجه المكتئب على امتداد الجلسة، ولكن وجدتني أفضِّل هذا على مزاجه الأكثر ودّاً. كان يمكن أنْ تُحيط به مسحة من الحَذَر، من الانزعاج، من خِداع خليق برئيس كشافة، بالإضافة إلى أثر مُكتمل، مسرحي، مفرط الإحساس، نوع من الغضب العنيف ولمسة مما أطلقَ عليه بيري أندرسن ذات مرة بمكر ولكن بدقة

"الهزل الخبيث". لكنني تأثَّرتُ لأنَّ ذلك الرجل العظيم حقاً قد تجشَّم مشقة شقّ طريقه خلال صفوف أساتذتي، وإنْ كنتُ لم أتأثَّر إلى درجة أنْ أفكِّر في ابتلاء العالم بالأطروحة على هيئة كتاب. لقد سبَّبَتْ ما يكفي من المعاناة وهي على صورتها تلك.

حين ينتاب أهل الفكر اليساريون الشك السياسي، يرمون بمؤتمر أو يُطلقون صحيفة. ولا ضير في عقد المؤتمرات، ما دام المرءُ يُدركُ أنها أقرب إلى الطقوس الأنثروبولوجية، تجتمع فيها العقول التي على أشكالها تقع لتبادُل التعارُف والعزاء، منها إلى العروض المسرحية لتحصيل ثقافة حقيقية. إنَّ المؤتمرات هي احتفالات بطقوس دينية، وتوكيدات على التضامن، ومساحات رمزية للذين يتكلمون لغة (سواء عن الرمزية أو عن طب الأسنان المعوجّة) غير مفهومة من أغلب أقرانهم من البشر، ويحتاجون من وقتٍ إلى آخر إلى الشعور بالارتياح مع الذين على أشكالهم، كما قد يشعر مُرتدي ملابس النساء حيال التجمعات ويسعى للانسحاب من عالمِ المصرف أو الخبّاز لكي يشعر بارتياح وهو يرتدي مشدّ الخصر.

إنَّ المؤتمرات بوجهٍ خاصّ لها شعائرها المُلزمة وشِفراتها الدقيقة. فهناك دائماً الرجل أو المرأة الذي يُطالبُ بهدوء بلقَبْ أشد الأشخاص إحساساً بالغربة في المؤتمر، وأيضاً هناك العالم الواقعي في الخارج، والمُشارك الأقدم منكَ الذي يُذكّرُ زملاءه بأنَّ هذا الحديث الرفيع الثقافة كله جيد جداً ولكنْ لعلهم لم يلاحظوا أنَّ عالماً من البشر الحقيقيين موجودٌ هناك في الخارج لن يفهموا كلمة لعينة واحدة قيلَتْ خلال تلك الأيام الثلاثة كلها وما الذي بالضبط ينوون أنْ يفعلوا بشأنهم؟ والجهر بالرأي القائل إنَّ النظرية لا فائدة منها إلاّ إذا اندفعَتْ مباشرةً بحركةِ عالم يتغيَّر في غضون الدقائق الأربع التالية هو حركةٌ يمكن الاعتماد عليها في جلب أصوات المنتخبين، وسوف تُكسِبكَ

دائماً جولة واهنة من التصفيق المُبرَّر. ثم هناك الرجل الذي ينهض من بين الحاضرين ليستفهم بسؤالٍ مُطوَّل لماذا لا تتحدث النساء، والجواب هو أنهنَّ قد يفعلنَ إذا ما كفَّ هو عن الاستئثار بالكلام.

هناك أيضاً المُستفسِر الزائف الذي يُنزِل عن كاهله بحثاً شفوياً مُعقَّداً، مُحمِّلاً كلماته الختاميّة نبرة استفهاميّة. وهناك النوع الحانق المزمن، الذي لا يكفُّ أبداً عن إعلان اشمئزازه ومقته الأخلاقي لوجهات نظر النظام التي يعتقد مع ذلك أنه لا غِنى عنه تاريخياً. وما لن تجده في مثل تلك الاجتماعات هو أشد القوالب الفكرية تثبيطاً للهمم: الشاب اليساري المتعصِّب الذي نضج مع التقدّم في العمر ليغدو ليبرالياً نزّاعاً إلى الشك أو مُحافظاً عنيداً. لقد صانني مجرَّد الرعب من الصيغ الجاهزة، على الأقلّ، من القَدَر المُطابق للزي السائد. وكان ريموند ويليامز يقفُ أبعد نحو اليسار حين توفي في عام ١٩٨٨ مما كان عليه عندما قابلته في عام ١٩٦١.

إنَّ الذين يتحدثون بانتظام في المؤتمرات يعرفون مدى عمق المقدرة الإنسانية على سوء التأويل. فإذا كان عنوانكَ هو "لماذا ينبغي تحطيم الفاشيّة"، ويقوم خطابك بذمّها بحماسٍ نيراني، فسوف يكون هناك دائماً شخص بين الحضور يرغب في معرفة سبب تسامحك الشديد مع الفاشية. والشخص الذي وصل متأخّراً نصف ساعة سوف يطلب بغطرسة أنْ يعرف لماذا فشلتَ في شرح ما نجحتَ في عمله بجملتك التالية، في حين أنَّ شخصاً آخر سوف يتساءل بصوتٍ عالٍ، ما دمتَ مناهضاً للبوُرجوازية فلماذا ترتدي بزّة وتضع نظارات بدلَ أنْ ترتدي جلد بقر مدبوغ وتحدِّقُ إلى العالم من خلال عدستين من صناعة محليّة اقتطعتا من زجاجات مشروب غينيس مرميّة على مخرطة قديمة. وإذا كان موضوعك هو شعر أيرلندا الشمالية، فسوف يسألُ أحد الحضور الحزانى لماذا لزمتَ الصمتَ الفظّ حول نهاية عصر تجبير الأعضاء

البافاري. وهناك رئيس المؤتمر الذي سيقوم بالتعريف عنكَ بالقول إنكَ غنيّ عن التعريف، وسوف يختم الجلسة بنكتة ممجوجة قائمة على أساس عبارة انتُزِعَتْ من خطابك. وهكذا، إذا كنتَ تتحدَّث عن إعادة توزيع الدخل، سوف يقترح بودٍ ثقيل أنْ "يُعيدَ" الحضورُ "توزيع" أنفسهم على البار؛ وإذا أتيتَ على ذِكر الاستغلال، فسوفَ يقترح ساخراً أنْ نكفَّ عن "استغلال" مُحدّثنا. هذه الأشياء تشكّلُ قوانين الطبيعة التي لا يمكنُ لمجرّد واسطة إنسانية أنْ تُحاكيها.

في العموم سيكون هناك دائماً مَنْ يقترب منكَ بعد انتهاء الجلسة لكي يُخبرك كيف أنه يتذكّر بحيوية شديدة محاضرتكَ عن التكنولوجيا الحيوية التي ألقيتَها في دمشق، مع أنكَ لا تعرف أي شيءٍ عن الأولى ولم تقُم أبداً بزيارة الثانية. وفي وقت سابق كانوا يخلطون بيني وبين تيري جونز من فريق كونتي بايثون، بما أننا نشترك في الاسم الأول وفي حب الأدب، وسوف يتذكّر الناس بمرح شخصية مهرج مضحكة إلى درجة تؤلم الأضلاع من ابتكاري في كتاب "حياة براين"، رافضين تماماً التلميح إلى أنهم يتعاملون مع الرجل الخطأ. وذات مرة سُئلتُ كم استغرقَ مني تأليف كتاب "تكوُّن طبقة العمال الإنكليزية". إنَّ الناس يفرضون عليك كرّاسات حول عادات التزاوج عند حيوان الومْبات أو يقدّمون لك عِلاجاً للثآليل. أنْ تكون مُحاضراً معروفاً يعني أنْ تلعب دوراً رمزياً وليسِ دوراً واقعياً، ولا شيء تقريباً يهزُّ هذه المطابقة. يمكنكَ أنْ تتباهى بوضع أنف أحمر مستعار وارتداء بنطال من الجلد الإسفنجي بينما شخص مهووس باعتدال يحدثك بإسهابٍ مملّ كأنه يُلقي مُحاضرة، ولكن من المؤكّد تقريباً أنَّ الكلام سينفد منه. وهناك أيضاً المنزعجون حقاً، الذين يصِفونَ لكَ الرسائل التي يتلقّونها عبر المذياع الذي زرعته الـ CIA في مكانٍ ما بين الكبد والمعي الدقيق.

مع توالي المؤتمرات، شكّلَ اتّحاد اللغات الحديثة الأميركي طبقة

قائمة بذاتها، مع تولّي اثنا عشر أو خمسة عشر ألف ناقدٍ أدبيّ إدارة مجموعة كاملة من الفنادق. إنَّ من قبيل التجربة الاجتماعية الفريدة أنْ تكون داخل مصعد مع ستين شخصاً آخرين يعرفون من هي جين أير. الإجراءات الأمنية مُشدَّدة، وذات مرة وجدتني غير قادر على ولوج مبنى إحدى الصحف التي أعمل فيها. وبينما كان جاك ديريدا يُخاطب المجتمعين في صالة الرقص في فندق هيلتون نيويورك حول الترويج لفكرة المُفسّر، كان حراسٌ على هيئة رجال العصابات يفتشون طلاباً متخرجين نضري الوجوه وهم ممدَّدون على الأرض. وخُصِّصَ لرئيس الاتّحاد غرفة فوق سطح الفندق، ونال امتياز النوم على السرير الذي كان قد نام عليه، إما على التعاقُب أو في وقت واحد، كلٌّ من مادونا، وبول نيومن، ومحمد علي، وإليزابث تيلر وبراد بت. إنها جائزة يُحسَد عليها مقابل عمل حياة كاملة من تزويد مؤلفات دانتي بالحواشي.

في النهاية، تصبح الشُقَّة بين الراديكاليين والمحافظين أعمق من السياسة. والراديكالي هو مَنْ لا يستطيع أنْ يتغلَّب على دهشته من أنَّ هناك أناساً في العالم يعتقدون أنَّ هذا، في العموم، هو الصحيح. وعلى الرغم من صعوبة ابتلاع هذه المقولة، إلا أنَّ هؤلاء الليبراليين أو المحافظين يتخيَّلون أنَّ ما نراه الآن هو دون أدنى شك كل ما سنحصل عليه. وخطأ أشدّ اليساريين تطرُّفاً، بالمقارنة، هو توهّمه أنَّ كلَّ شيءٍ سيصبح مختلفاً بعد الثورة، وأنَّنا سنلغي الفُوَط الورقيّة بالإضافة إلى الملكية الخاصّة، وسنُجري تغييراً على فراشي الأسنان وخدمة الصحة الوطنية. إنَّ هذا تضليل؛ لكنه على الأقلّ يُبقي الاحتمال مفتوحاً ليكون المستقبل مختلفاً بشكل مذهل عن الحاضر بقدر اختلاف الماضي السحيق. ولا عَجَبَ أنْ تسعى الرأسمالية إلى محو الماضي، بما أنَّ الماضي يتحدَّث عن الاختلاف، وبالتالي عن المستقبل.

معروفٌ أنَّ ماركس لاحظَ أنَّ التاريخ ينحو إلى تكرار نفسه؛ ولا شيء يفوق هذا التصريح صحَّةً إلاّ إعلانات نهاية التاريخ. إنَّ أشباه رسائل النعي هذه صدرت مرات كثيرة منذ العهد الجديد وحتى هيغل. وإعلان موت التاريخ يُضيف ببساطة قليلاً من التاريخ إلى ما يتوفر بين أيدينا أصلاً، ويساعد على الإبقاء على حيوية التاريخ، وهكذا يتَّضح أنه يُدمِّر نفسه بنفسه. وأحَد آخر الأوامر التي فُجِّرَتْ في وجه التاريخ، أو بعبارةٍ أدقّ الأيديولوجيا، كان ما يُسمّى بأمر إنهاء حركة أيديولوجيا خمسينيات القرن العشرين. ومع وجود حرب فييتنام، وحركة القوة السوداء وتحرُّك الطلاب الوشيك الوقوع، اتّضحَ أنها نبوءة حمقاء فريدة من نوعها. وبما أنَّ هذا النداء قد تكرَّر في زماننا، يجب أنْ نتذكَّر ما يمكن لأوسكار وايلد أنْ يكون قد قاله، إنَّ الخطأ بشأنْ نهاية التاريخ مرةً واحدة مصيبة، أما الخطأ بشأنْ ذلك مرتين فمجرَّد إهمال.

ـ ٥ ـ

فاشلون

ذات مرة، وأنا طفل، في أثناء جلوسنا على مائدة الإفطار في الصباح، أخذت أحفرُ وأنا شارد حُفرةً بملعقتي في حافة العصيدة. لاحظَتْ أمي ما أفعل، وانتظرتُها حتى تأمرني بالكفّ عن ذلك. لم تكن أسرتنا من النوع الذي يمكن للمرء فيها أنْ يفعل أيّ شيء دون مغزى، إلاّ إذا أدرِجَتْ الصلاة في هذه الفئة. ما كنا لنفعل أي شيء دون تحديد وظيفته إلاّ بقدر ما قد نضرب مسماراً في جمجمة أحدنا الآخر دون أي سبب معيَّن. ولكن كم دُهِشتُ عندما شجَّعتني أمي على جعل الحفرة أوسع وأعمق. ثم تناولت إبريق الحليب وسكبَتْ حليباً عليها. كانت الحفرة قد أضحتْ مناسبة لسكب الحليب على عصيدتي. اتَّضحَ أنَّ العَبَثْ أمرٌ واقعي في الأساس. لم يكن هناك أي رؤيا بروستيّة. وعصيدتي لم تكن حبيبتي مادلين.

إنَّ الفقر ليس أفضل مدرسة لتعلُّم تذوُّق الأشياء التي فينا. بهذا المعنى هو غير جميل، وليس فقط بغيضاً. كانت حياتنا في المنزل مُقفِرة كحياة حيوان العَضَل؛ بلا أصدقاء، أو رحلات، أو تسلية، أو مهارات اجْتماعية. وكما لاحظَ فلان أوبراين، علينا أنْ نُبقي الذئب بعيداً عن الباب لكي نمنعه من الخروج. وبالنسبة إلى القيام بالرحلات وتسالي من هذا النوع، إما أنه لم يكن في مقدورنا أنْ نتكبَّد تكاليفها، أو أنها كانت مؤذية لروح المنفعة المتجهّمة التي تميل إلى تشجيعها بما أنها فقيرة. على أية حال، لم تكن مُتاحة للجميع. لقد كنا في حالة

عوز شديد إلى حد البؤس، ولكننا كنا أيضاً بائسين، وهذا لا يتبع ذاك بالضرورة. كان العديد من العائلات من حولنا على حافة الإفلاس لكنها مع ذلك كانت تقضي وقتاً مرحاً. وعلى الرغم من أنَّ الكرمليت المعوزين المقيمين في مكان قريب لم يكنَّ يقضين وقتاً مرِحاً، إلاّ أنهنَّ أيضاً لم يكنَّ عبيداً للمنفعة. لم يكن هناك ما هو مفيد بوجهٍ خاص في عدم تناول وجبة كاملة. لم نكن نستمتع بأنفسنا من ناحيةٍ لأننا كنا أصحاب تطلّعات، مما فاقمَ كثيراً مِن سوء وضعنا كمعوزين. وكانت فكرة الاستمتاع بالحياة لذاتها تشكّلُ بؤساً بالنسبة إلينا كالمازوشية-الساديّة أو تأويلات الكتاب المقدّس.

كنا نعيش حياةً مزدحمة، رعديدة، مُنمَّقة اجتماعياً بقدرٍ يكفي لنعي حقارة وضعنا الاجتماعي. وكان هدفنا في الحياة أنْ نحفر الكلمات التالية "لم نكن من مُثيري المشاكل" على شواهد قبورنا. كان سماعُ قرعٍ على الباب الرئيسي يُشيع رعدة الرعب في أوصالنا كالصوت المكتوم لعقب بندقية SS، إلى هذه الدرجة لم نكن متعوّدين على الزوار. والمنزل ذو الأثاث القليل كان أشبه بإعداد خشبة مسرح بيكيتيّ[٣٠] لا يحدث عليها أي شيء، بما أننا كنا نفتقر إلى الموارد اللازمة لوقوع أحداث. إنَّ الحاضر يتكوَّن إلى درجة كبيرة من الأحداث التي فشلتْ في أنْ تقع في الماضي؛ حاضري أنا، على أي حال. اليوم لديَّ عددٌ من الكتب يقلُّ عما يحويه أي أكاديمي أعرفه، ربما بسبب إحساسٍ من عهد الطفولة مفاده أنَّ الممتلكات هي ركام مشوَّش لا لزوم له. كنا نستأجر المنزل من صاحب مِلك غائب؛ أحد تلك الغيلان الديكنزية المخيفة التي لا تتلبّس أبداً أي مظهر مادي، ولكنَّ والدي كان يكتب إليه أحياناً طالباً إجراءَ إصلاحٍ صغير. كانت تلك الكتابة هي الوحيدة

(٣٠) بيكيتيّ: نسبة إلى الكاتب المسرحي الأيرلندي صموئيل بيكيت.

التي يمارسها. وبعد مرور وقت طويل مُهين، يُجيب صاحب المِلك دون أنْ يُخاطب والدي بـ "عزيزي".

إنَّ القِلّة تنشّطُ الخيال – من ناحية على سبيل التعويض، ومن ناحية أخرى لأنّه لا يوجد أي قدر من الواقعية ليتغذى عليها العقل. لذلك فالجانب المعاكس للضجر والخوف، بالنسبة إلى الأطفال إذا لم يكن بالنسبة إلى الوالدين، كان النوادر النابضة بالحياة، واللعب المفرط بالكلمات، حياة لا شيء يكون فيها حقيقياً إذا لم يؤدَّ بتكلُّف. كانت اللغة هي الحافة التي نطلُّ منها على عالم باهت. كان لدينا أقرباء أيرلنديون في استطاعتهم أنْ يرتجلوا ثرثرةً فكاهية لامعة على امتداد ساعات وهم يعزفون نغماً على آلة ماندولين مكسورة، وقريبات مع بناتهنّ شبيهات بوالتر ميتّي[٣١] لم يستخدمنَ اللغة كوسيلة للتواصل الدقيق لأكثر من خمس دقائق لكنهن يستطِعن أنْ يتخفَّفن من عبء قصة ممتازة. لكنه لم يكن مكاناً يصلُح للتسكّع فيه، وحاول أبوانا أنْ يُخفّفا عنا بالابتعاد عنه، بغريزة الحيوان الذي يُبعِد ذرّيته عن الخطر. وهما نفسيهما كانا يمثّلان الخطر الذي كانا يردّانه عنا.

لا عَجَبَ، إذن، أنني أصبحت بطلاً مُبكّراً لكل ما هو جميل، للإيماءة المُبالَغ فيها، للنهاية بحدّ ذاتها، بطريقة عقلية محض. كان كل شيء لا يزال مُدعَّماً بخسّة شماليّة أصيلة. كانت المنفعة هي العدو، ونقيضها الفن. كنت في عهد مراهقتي شديد الولع بالشبان الغاضبين، أضحوا لاحقاً ثلّة من اليمينيين المتشائمين العجائز، وذات مرة ألقيتُ خطابَ شجبٍ مشوَّشٍ وحماسيّ للمؤسسات الرسمية على جمعيةِ للنقاشِ داخل المدرسة. بعد ذلك، اندفعتُ نحوي طالبة من الصف السادس من مدرسة للبنات قريبة وسألتني بنبرة صوت فزِعَة إنْ كنتُ

---

(٣١) والتر ميتي: شخصية روائية تمثّل المُستغرق في أحلام اليقظة. (المترجم)

وجودياً. كانت صاحبة وجهٍ عادي لكنه مزوّد بنقرتين، وبمجموعة من النمش على الأنف. وكنتُ قد سمعتُ للتو عن مذهب الوجودية، مرتبطاً بقدرٍ من الغموض مع سجائر غولواز وسترات الصوف ذات العنق الطويل، ولكن كل ما عرفته عنه أنه مذهب غريب ومُدمِّر. لكنني أجبتُ بالقول إني كذلك، بنبرة صوت مُبهمةِ الغرضُ منها أنْ أخدعها وأُخفي جهلي. فأسرَّت إليّ أنها هي أيضاً كذلك، وأنَّ لديها صديقاً أكبر سناً منها، طالباً جامعياً، يوافقُ على كل شيء. لم تعجبني كثيراً فكرة ذلك الصديق الذي يقول نعم، ولكنني تساءلتُ إنْ كانت هي أيضاً تقول نعم لكل شيء. وكدتُ أستفهم عن ذلك عندما همست بشيء يشبه "يا لها من متعة"، ولكن بعد تفكير وجدتُ أنه يمكن أنْ يكون "acte gratuit" (عملاً مجّانياً)، وانطلقَتْ.

إنَّ التناقض بين أبويَّ وقريباتي الشبيهات بوالتر ميتّي كان نسخة عن الصراع الناشب بين الجيد والرائع. والجيد هو الذي سيلجُ المملكة، لكنَّ الرائع هو الذي يجعل الحياة تستحقُ العيش في تلك الأثناء. والعدالة جزءٌ من الجودة؛ ليست أكثر من إعطاءِ الآخرين حقوقهم؛ أما الرحمة - وهي تركُ الآخرين يذهبون دون دفعِ الضريبة في حين أنهم لا يستحقون ذلك بشكلٍ فاضح - فتتَّسِم بعَظَمَة في الروح. والعطاء بإفراط مما هو مطلوب هو لفتة رائعة أخرى، على الرغم من أنه لا يفصل بينه وبين الحمق إلا خيطٌ رفيع. وفي وقتٍ من الأوقات كنتُ أعيشُ في كاليفورنيا، في شقةٍ يفصل فيها بيني وبين فتاة أميركية شابة اسمها ليز رواق. كانت تكسب عيشها من عملٍ ما تقوم به لصالح شركة تختص بالتصوير خارج المقرّ، لكنّه لم يكن يدرُّ عليها مبلغاً كافياً من المال، وكان الإيجار مرتفعَ القيمة. وكانت تتسِمُ بشكلٍ دقيق بهيئة شخص أمضى بعض الوقت في مؤسسة للعلاج النفسي، على الرغم من أنه لم يكن لدي أي دليل مادي على ذلك. وذات يوم ذَكَرَتْ أمامي أنَّ لديها حصاناً، وتصادَفَ أنه كان مُصاباً بمرضٍ عُضال. و لم تكن قد

أتت على ذِكر ذلك الحصان من قبل، أما حينئذٍ فأكّدتْ على أنه أغلى ما تملك، وأنَّ مرضه يشوّش عقلها. فسألتُها أين تحتفظ بحصانها، بما أننا كنا نُقيم في منطقةٍ مكتظة بالمباني، فقامت بإيماءة مُبهمة تدل على مسافة متوسطة. كان الحصان في حاجةٍ ماسّة إلى عمليةٍ جراحيّة، تكلّفُ ٥٠٠ دولاراً. و لم يكن ذلك المبلغ في حوزتها، فأعطيته لها. كان ذلك بالنسبة إليها متعة ما بعدها متعة، أما بالنسبة إليّ فكان أكثر من acte gratuit.

أنا لم أفعل ذلك لأنني أكنُّ لها إعجاباً خاصاً، وحتماً ليس لأنني صدَّقتها. ولا فعلتُ ذلك من باب عمل الإحسان الأبكم. بالأحرى بدت حركة إعطائها المال العمل الأحمق الوحيد المناسب لحكايتها المنافية تماماً للعقل. كانت وسيلة لزيادة خداعها لي سوءاً ببزّه، ورفع طاقته، والردّ على روايتها بعملٍ أكثر جنوناً هو مدّها بالمال. لقد جعل مسألة مَنْ يضحك على مَنْ غامضة بشكلٍ مُربك. من ناحية أخرى، كان من المستحيل أنْ تكون حكايتها حقيقية، وفي هذه الحالة كان في استطاعتي أنْ أستردّ شيئاً من العقلانية من تهوُّري. وبعد مرور فترة معقولة من الزمن استفسرتُ عن صحة الحصان، فقيلَ لي إنه كما هو متوقَّع، على الرغم من أنه بدا أنَّ من المُستبعد جمع تكاليف دور النقاهة. وهذه أيضاً قرَّرتُ بصمت أنْ أدفعها إذا ما فُتحَ الموضوع، من ناحيةٍ لأرى إلى أي مدى يمكن الذهاب في نسج هذه القصة الخيالية. وسألتها بلمسة خبث معتدلة إنْ كان في إمكاني أنْ أزور الحصان وهو في ما يمكن أنْ يكون المعادل الفَرَسي لسرير الاحتضار، لكنها أبلغتني أنها لا تنصحني بذلك بقوة. و لم ينتبني أي شك في أنَّ الأمر كذلك.

يمكنكَ دائماً أنْ تستغل فعل العطاء لتحصل على زيادة راتب من أحدهم. وحين كان شخصٌ يستوقِفُ، وهو يقرقع بعلبةٍ طلباً للإحسان في الشارع، صديقاً لي ينتمي إلى الجناح اليميني، تعوَّدَ هذا الأخير أنْ

يُنعِم النظر بريبة إلى الرقعة المُلصَقَة على العلبة ويسأل بفظاظة: "هل هذه منظّمة ماركسية؟"، وحين يؤكّد له بكل حرارة أنها ليست كذلك، يقول، وهو يلوِّح بيده صارفاً إياه، "آسف، في هذه الحالة لا أستطيع أنْ أساهم"، ويُواصل طريقه.

إنَّ الطيّبين يدركون أنَّ عليهم أنْ يُضحّوا بتلك الجماليات غير الضرورية كالفطنة والأسلوب الأنيق من أجل خلق قضية. إنَّ عليهم أنْ يستعدوا لكي يَبدوا غير لبقين وعنيدين، وأنْ يُوبَّخوا كمُفسدين للبهجة أو يُلاموا بسبب رُقيّ فكرهم. سيكون مثيراً للاهتمام أنْ يعرفوا عند أية نقطة تاريخية تصبح الفضيلة مملّة، ويحصل الشر على أفضل الموجود. أما الرائعون، من ناحيتهم، فيعرفون أنه على الرغم من روعتهم فلا يمكن الاعتماد عليهم في الملمّات، ولا يُحسنون التصرُّف في لجنة تدبير الموارد المالية. وفي الصراع الدائر بين الطيّبين والرائعين، بين قندلفتات تولستوي ومُريدي وايلد، الطيّبون يجب أنْ يفوزوا حين توضع رقائق البطاطا المقلية، ولكن فقط حينئذٍ. ويكفي تماماً أنْ تكون طيباً، ولكن كما يمكن لوالتر بنجامن أنْ يقول، ليس نمط الحياة الذي يُضرِم أجساد الملائكة بلهبٍ مشبوب واحد تسبيحاً بحمد خالقها. ذلك أنَّ الملائكة تعشق مكر العقل الإنساني وخداعه، وليس فقط فضائله الأخلاقية؛ وعلى الرغم من أنَّ الرائعين يُبحرون معرّضين أنفسهم للخطر حتى يوشكون أنْ يقتربوا أحياناً من الشيطانيّ، فهناك الكثير مما يمكن أنْ يُقال في صالحهم.

الطيبون عادلون، في حين أنَّ الرائعين يصفحون. إنَّ الصفحَ يكسر دائرة السن بالسن العقيمة، وبهذا يمزِّق نظام القصَاص القاسي؛ ويُنحّي جانباً تبادل العدالة الصارم بلفتةٍ فروسيّة، وبهذا يتكهَّن بموتٍ تُسوّى فيه الخلافات كلها. كونكَ خُدِعت لم يهمّ حينئذٍ، لذلك ربما ينبغي ألاّ

يُسمح أنْ تكون له أهمية الآن. إنَّ الصفحَ لفتةٌ جيمسيّة[٣٢] عظيمة، ازدهارٌ رائع للإفراط. والرجل الذي لا يعرف من أين ينحدر جدّه كان يعرف ذلك جيداً. لكنَّ الموتى أنفسهم لا يمكنهم أنْ يصفحوا. إنهم لا يستطيعون أنْ يُخفّفوا من غضبنا لذلك كان ينبغي أنْ يختفوا، ويتركونا لكي نزيل الفوضى.

* * *

كان هناك الكثير من حالات المرض والإعاقة في المدرسة الابتدائية. كان هناك الولد الذي يتلعثم في الكلام كمدفع رشاش وينكفئ على نفسه بين حينٍ وآخر ثم يقبض بحركة هيستيرية على ساقه المشلولة، والولد ذو حبوب الشباب المذهلة، بوجهه ذي العُقَد، والحُفَر والفوّهات الشبيه بمشهدٍ على أرض القمر. بعض تلك النتوءات المكسوّة بالبثور كانت رمادية اللون وميتة بينما الأخرى كانت لا تزال فعّالة وتتفجّر، وتنفث ناراً فاترة. وكان هناك أيضاً ولد قيلَ أنه أحرق أعضاءه التناسلية وأنه كان خالياً تماماً من الشعر، كبيضة مُرقّشة وردية اللون. كان داء الحَصَف متفشّياً بسبب بؤس العادات الصحيّة، بحيث أنَّ نصف التلاميذ كان لديهم تقرّحات صفراء مكسوة بقشور، وفي بعض الحالات كانت ملوَّنة بلون زهرة الجنطيانا البنفسجي. كنا فريقاً من غائري الصدور، المتوقفين عن النمو والطوال القامة النحيلين، كصفٍ من أولاد الكورس في رواية "البؤساء". وعلى مدى عِدَّة أيام من كل شهر، وكانتظام فترة الحيض، كنتُ أُصاب بنوبات من الربو، وأختنقُ بلعابي، وتنقطع أنفاسي وأهتاج وتلتهب القصبات الهوائية. ولعلني واجهتُ الموت مرةً أو مرّتين، ولو أني مُتُّ لوفّرتُ على بعض

(٣٢) جيمسيّة: نسبة إلى الروائي هنري جيمس، أو إلى أخيه الفيلسوف وليم جيمس.

نُقّاد الأدب المحافظين بعد ذلك ببضع سنين درجةً من عسر الهضم، لكنني لحُسن الحظ لم أعِ مدى السهولة التي يمكن بها أنْ تتوقّف أنفاسي المسعورة توقّفاً تاماً. وكانت والدتي، في غمرة لهفتها لإيجاد علاج لي، قد جرَّبت كل شيء بدءاً بإيقاظي عند الفجر لإطعامي ثوماً نيئاً، مما كان يُنفِّرُ زملائي في المدرسة مني في اليوم التالي، وانتهاءً بإلباسي قميصاً تحتياً صغيراً بأهداب طويلة مصنوعاً من جلد الشاموا، ومرةً أخرى نفروا مني. ولعلَّ التجربة التالية كانت ستكون أنْ تربط حبلاً من الثوم حول عنقي، لكنَّ مغامرتنا لم تبلغ ذلك الحدّ.

بدل ذلك، أخبر أحدهم والدَيّ عن وجود عيادة للعلاج المثلي في مانشستر مشهورة بما توفره من علاجات معجزة. لم يكن أي منا يعرف معنى عبارة "معالجة مثلية"، ولم يكن من عادتنا اللجوء إلى القواميس. وانتابني شك في أنَّ للكلمة معنى فظاً بغموض، لكنَّ ذلك لأنّني كنتُ أخلطُ بينها وبين كلمة "جنسياً"، التي كنتُ قد قرأتها في الصحيفة في سياق محاكمة شخص أرستقراطي بتهمة اللواط. وعلى الرغم من أنَّ معنى هذه الكلمة أيضاً كان مبهماً بالنسبة إليّ، إلاّ أنه كان لها معنى إضافي مُشين واضح. كان صعباً فهم كيف يمكن لأحد أنْ يُنشئ مؤسسةً طبيّة في هذا، ناهيك عن أنه يمكن استخدامها لعلاج الربو. بدا غريباً أنّه يمكن ممارسة شيءٍ يمكن أنْ يودي بالناس إلى السجن صراحةً في عيادة، ولكن لعلَّ الأمر يتعلّق بطريقة ممارسته، أو عدد المرات.

كانت العيادة عبارة عن كوخ حقير المظهر تقع في شارع خلفيّ يُديره اسكتلنديّ ضخم الجثة يضع ربطة عنق على شكل فراشة يحمل اسماً مشبوهاً قليلاً هو جون براون. لعلَّ الاسمَ كان خدعة مزدوجة . كانت هناك ممرضة واحدة، أو على الأقلّ امرأة ترتدي زي ممرضة، تكهّنتُ بأنها السيدة براون لكنَّ الإعلان عنها بيَّنَ أنها ليست كذلك.

كانت الجلسة تكلِّف جنيهاً واحدة، تبرَّعَتْ بدفعِهِ إحدى قريباتي كانت قد فازت بخمسين جنيهاً في لعبة الرهان المشترَك. بدا أنني كنتُ المريض الوحيد، وتقرَّرَ أنْ آتي في صباح كل يوم سبت لأجلس في مهجع وأشمّ غازاً كريه الرائحة، لعله أكسيد الكربون، من خلال أنبوبٍ مطاطيّ. كان الغاز يُثيرُ لديّ نوبات ربو شديدة العنف، ومن الواضح أنَّ ذلك كان الهدف منه. وهذا لا يعني أنَّ المعالجة كانت فاشلة، كما أبلَغَنا الدكتور براون بلهجة المنتصِر، بل يعني أنَّ الأمر يسير على ما يرام. وكلما أصبحتْ النوبات مُرعبة، ازدادت نشوته الهمجيّة. كان يقف فوقي وأنا أصفِّر وأتلوّى، ويُغمغمُ "رائع، يا بنيّ" و"استمرّ، يا بُنيّ" بلهجته الإيرلندية الاسكتلندية الأجشة. وانتهى بي الأمر إلى المكوث في المستشفى مدة ثلاثة أسابيع، وأتصوَّر أنَّ الأمرَ انتهى بالدكتور براون إلى ممارسة شفط الدهون باستخدام موقد لحم المعادن في أحد الأزقة الخلفية أو تغيير مظهر بارونات المخدرات الهاربين من رجال الشرطة.

كان لي شقيقان أرسلتهما الخدمة الصحيّة الوطنية إلى الأبدية وهما لا يزالان طفلين وليدَين. واحدٌ تهشَّمَتْ جمجمته في أثناء الولادة، ولو أنه عاش أكثر من اليومين أو الثلاثة التي عاشها لبقيَ مُعاقاً بشكلٍ قاس؛ والآخر لوَّثته ممرضة مُنهكة بمرهم كانت قد دَهَنَتْ به طفلاً مُصاباً بمرضٍ مُعدٍ. وقد بقيَ مدةً أطول حتى مات، وأذكرُ أنَّ شخصاً رفعني لأنظرَ إليه وهو في تابوته، دمية صغيرة من الشمع مع حشوة من القطن والصوف في فمه. وقطعة القطن والصوف هي التي أذهلتني. لا أحد أخبرني عن الغرض منها.

كالمعتاد مع طبقة العمال الصناعيين، كان الحديث هو عن الجسد، وإنْ لم يكن بأسلوب كتابة رسالة التخرُّج من جامعة كاليفورنيا. كان الأكبر سناً بيننا يتكلمون على الدوام عن البواسير والنزلة الشُعبيّة،

وهبوط الرحم والقُطان، وإعتام عدسة العين والتهاب المفاصل الرثياني. كنا المُبتلين الصابرين في الثورة الصناعية، جيشاً من الأقزام الغدّية. وكنا مع أغلب الطبقة العمالية لشمال إنكلترا تحت متوسط الطول ببضع بوصات، كقطيع من الزوائد من رواية "ساحر أوز". كان المرض يُشيع الخوف، بسبب آثاره الاجتماعية أكثر من آثاره الجسدية، لكنَّ الناس كانوا يستمدون منه متعةً رهيبة أيضاً. بما أنه كان الحدث الدرامي الوحيد الذي يحلّ بهم. لا شيء مما يجري في الحياة اليومية كان يُجاري الحجم الفخم للموت أو لإجراء عملية جراحية كبرى، اللذان كانا المصدرَين الوحيدَين الحقيقيين للحكايات بينهم. كان الأطباء مُحتَرَمين وأيضاً مُزدَرين، يُعتَبَرون كنوع من الإسفين الغريب أو الطابور الخامس للطبقة الوسطى بيننا، متغطّرس وأحياناً فظ لكنه مُسلَّح بالمعرفة السرّية التي يحتاجها الناس ليبقوا في أعمالهم. كان الطبيب، وليس أستاذ المدرسة أو رجل الدين أو المحامي، هو العضو الوحيد في الطبقات المتوسطة المُهم حقاً. وحتى الطبقات المتوسطة لم تكن طبقات متوسطة أصليّة، بالحس الذي يوحيه التحدُّث بالإنكليزية القياسية. إذ لا أحد كان يتكلَّم الإنكليزية السليمة.

ولكن كانت هناك آثار لجماعة أكثر رُقيّاً في الجوار، إشارات غامضة تدل على وجود جمعية سرّية أو نادٍ للطبقة الوسطى يُعرف باسم "الزبائن العريقون". كانوا شلّة من المميزين ذوي السلطة العليا بحيث كانت هناك مواقف سيارات، وغرف لحفظ الملابس، والمراحيض، والبارات، ومشاجب للقبعات وحدائق موزعة في أرجاء المدينة أُفرِدَتْ كلها حصراً لاستخداماتهم، وتحمل عبارة "للزبائن فقط" لإبعادنا نحن الأدنى أصلاً. بل إنها بدت خاصة إلى درجة أنهم جعلوا مسرح غاريك يبدو أشبه بنادي مُشجّعي شيفيلد ليوم الأربعاء. لم أكنْ قد قابلتُ قبل ذلك أحد الزبائن الراقين شخصياً، ولكن تخيّلتهم كأشخاص وهميين، غامضين، ذوي أصابع رفيعة بيضاء، وأصوات

مُهذَّبة ورنّانة. بدوا بشكلٍ عام كصنفٍ بشري رفيع جداً بحيث لا يحتاجون إلى وسائل راحة حقيرة كالمراحيض ومواقف السيارات، لكنني اعتقدتُ أنَّ نسخهم الخاصة من تلك الأغراض لا تشبه أبداً أغراضنا - بحيث أنَّ مراحيضهم، مثلاً، كانت تتردَّدُ بين جدرانها أصداء موسيقى الأرغن ممزوجةً بخرير المياه المُعطَّرة في الأحواض المُرصَّعة بحجر الياقوت. واليوم، على الرغم من أني لا أزالُ أشعر برعشة خوف خفيفة حين ألمحُ لافتة تحمل عنوان للزبائن فقط، أدركُ أنَّه ربما وأنا في طفولتي أقف في طابور أمام دار للسينما اقتربَ مني إنسان طيب وهمس لي في أذني، المبتهجة، المندهشة، قائلاً إنني أنا أيضاً زبون مميَّز، كما ينقلُ أحدهم إلى متشرّد كريه الرائحة يتمدَّدُ على كرسي في حديقةٍ عامة خبراً فاتناً يقول إنه الوريث الشرعي لوليّ عهد مورافيا.

هذه الحكاية التي لا تنتهي كلها التي تدور حول الألم استمرَّتْ على الرغم من أنَّ الألم الجسدي هو نوعٌ من العبث، حقيقة قاسية لا جدوى منها كالعطس. إنه فقط أمرٌ يقعُ لك، كالتجشّؤ أو التعثُّر بقدمَك؛ وعلى الرغم من أنَّ هناك الكثير ليُقال حول تكملته (وقت العطلة، زيارات المستشفى، ممرضات ملائكيات أو همجيات)، وأيضاً حول أسبابه، وموقع حدوثه، وفترة دوامه، ونوعيته، وكثافته وعلاجه المُحتَمَل، والألم بحدّ ذاته هو خلاصة الحقيقة القاسية بأنه يبدو أنه يتسرَّب من خلال شبكة اللغة. لكنه لا يشكِّلُ جزءاً من نظام المعنى. هو بالأحرى تخريبٌ للمعنى، تشويه للإحساس، نوع من الأنانية. إنه جزءٌ من مقاومة الجسد العنيدة للوضوح، ومن استمراره الأعمى، المتبلِّد في وجوده. وإذا كان الألم بلا معنى، فكذلك حال معظم التاريخ الإنساني المُشبَّع به. وفيما يخص أعراض الألم، فإنَّ القضاء على الألم هو انتصارُ للمعنى وانتصارٌ على العشوائية، حتى وإنْ كانت

نظريةٌ حمقاء تنتمي إلى ما بعد الحداثة ترى في تلك العشوائية نوعاً من الحرية.

وهناك أيضاً، ولاشك، أنواع خلاّقة من العبث، منها الأحمق والدادائي، وما يبدو مُختلَطاً مرةً قد يتّضح دائماً لاحقاً أنه قابل للفهم. والمزحة هي هراءٌ مكرَّس لخدمة التضامن وليس العزلة، لكنها تعزِّز شعوراً مشابهاً بالضبط بكونها هي نفسها هدفاً. وهي تختلف بهذا المعنى عن النكتة التي يحكيها شخص متفوّق لكي يُهدِّئ من روعك. ولكن هناك أيضاً ذلك الكون البديل القريب منا قُرب الدم والتنفُّس، ذلك المكان المختلف بشكلٍ لا يُصدَّق المعروف باسم الألم المبرّح كل لحظة من حياتنا في معاناته بابٌ ضيّق، ويبدو من فرط الفحش بحيث لا يمكن حتى للشيطان أن يخلقه. والجدير بالملاحظة أنَّ يسوعَ حسب العهد الجديد، الذي يَقضي مُعظَم وقته في شفاء المرضى، لم ينصح ولا مرة أي شخص بأنْ يتصالح مع مرضه. على العكس، يبدو أنه يربط بين المرض والشر. هو حتماً يبدو أنه أُصيبَ بالرعب من ترقُّب تعذيبه الجسدي، إذا صدقنا حادثة الحديقة الجثمانيّة. لعلَّ ذلك الألم الحتمي يمكن أحياناً أنْ يتحوَّل إلى استخدام مفيد، لكنَّ هذا لا يُبرِّر وجوده. والأفضل بكثير ألاّ تتوفَّر لنا مثل تلكَ الفُرَص لإنجاز البطولة الأخلاقيّة.

إنَّ الصيغة التي تحاول أنْ تحوِّل الألم إلى قيمة تُعرَف باسم المأساة. في مركز المأساة التقليدية يقفُ كبشُ الفداء المأساوي، المُحمَّل بآثام الناس، وبعد أنْ يُصبح هكذا شنيعاً وقذراً يُساق إلى البرّية. وبعد إبعاد كبش الفِداء خارج كل نظام اجتماعي محترم، كتجسيد مُثير للاشمئزاز لجُرح لا نجروْ على التفكير فيه، يتجوَّل في عالم جحيمي من العبث. باللغة المسيحية، هذا هبوط المسيح إلى الجحيم بعد تقديمه كبشَ فِداء على الصليب، التضامُن مع اليأس والعَوَز الإنسانيين اللذين "أصبحا به إثماً" إكراماً لنا. لكنه أيضاً أوديب الأعمى ولير المخبول، كل تلك

المخلوقات المشوَّهة بعنف التي ضلَّتْ خارج حدود ما هو إنسانيّ مقبول نحو منطقة الحياة في الموت المخيفة.

بالنسبة إلى الرؤيا المأساوية، لا يمكننا أنْ نُشفى إلاّ بعد أنْ نرى انعكاس صورتنا على مرآة التشويه الرهيبة. يجب أنْ نتوصل إلى رثاء ما نخشاه، ونجد في هذه الصورة البشعة والزائفة للإنسانية القدرة على تغيير المظهر الإنساني. بالنسبة إلى الليبرالي، ليس هناك وحوش بشعة، هناك فقط أولئك الذين قادهم الحرمان إلى العنف؛ وبالنسبة إلى المحافظ، الوحوش هم الآخرون؛ وبالنسبة إلى الراديكالي، الوحوش الحقيقيون هم نحن. لكنهم أيضاً مَنْ يُسمّيهم العهد الجديد ألـ anawim، المنبوذون وروث الأرض الذين لا وتدَ لهم مُقام في الحاضر، ويرمزون على هذا إلى إمكانية الحياة الجديدة في قلب دمارهم. إنَّ القديس بولس يرى في يسوع نموذجاً لهم.

لا أحد يستطيع في الواقع أنْ يقضي أيامه ككبش فِداء مأساوي. إذ لا توجد وظائف شاغرة لأجله في مراكز التشغيل. ولا تستطيع أنْ تطوفَ في عالم المجانين والعبث في أثناء توصيل الأطفال إلى المدرسة. هناك من الأشكال الدنيوية للقمامة أكثر من الـ anawim الذين ينكبّون عليها. هناك شيء لا إنساني في التضحية بالذات، تماماً كما أنَّ هناك شيئاً لا إنسانياً في نوع معيَّن من الثوريّ. إنَّ التضحية بالذات ليست وسيلة للحياة. على العَكس، كما فهِمَ أرسطو، إنَّ الفضيلة كلها ما هي إلاّ قضاء وقت ممتع.

كيف أمكنَ إذن لأولئك الكرمليت أنْ يُصدِّقنَ أنَّ يسوع يمثِّل نمط العيش النموذجي؟ لقد قُتِلَ! صحيح أن المقتولين في المعتاد أناس يُثيرون الإعجاب، إنْ كانت تقارير الصحف عنهم تستحق القراءة. وكما أنَّ أغلب القَتَلَة المقبوض عليهم يقول عنهم جيرانهم إنهم من الأنماط الهادئة التي "تحتفظ بشؤونها لنفسها"، كذلك كل الروايات

التي تدور حول ضحايا القتل تشدِّد على مدى حبّهم للحياة، وأنهم كانوا ممتلئين بـ joie de vivre، يطفرون ويثبون مرحاً ولا يكفّون عن مساعدة الآخرين . إنَّ الذين يحملون مثل هذه السجايا يجب أنْ يتخذوا جانب الحذر عندما يسيرون وحدهم ليلاً. ولكنْ تبقى حقيقة أنَّ المصلوب لا يُمثّل صورة الحياة الطيبة. ولا حتى الكرمليت اعتقدنَ ذلك. إنَّ الصورة التي حملنها عن الحياة الطيبة كانت الجنة، التي لم يكنَّ من التبلّد بحيث يخلطنَ بينها وبين وجودهنّ شبه المعوَز. وحيثما كانت الجنة، فهي ليست في منطقة سافولد الصناعية. إنهنَّ لم يتصوَّرنَ أنَّ كل شخص يمكن أنْ يعيش مثلهنَّ، إلا بقدر ما يمكن للدوق أو لمهرّجي السيرك أنْ يفعلوا ذلك. إنَّ العيش كرمز هو سعيٌ مُقتصِر حصراً على القِلّة. بالنسبة إليهم، ضحايا الأضاحي أمثالهم ضروريون من الناحية المأساوية فقط ما دام العالم هو كما هو.

كانت حياة والدي تتصف بجدب حياة الضحية. وكالعديد من الآباء، ضحّى بنفسه من أجل أولاده، ولكنَّ ذلك جعلَ منه بالضبط ليس نموذجاً يُحتذى به. ولو أننا نحن معشر الأطفال أيضاً اضطررنا إلى التضحية، لما كان لذلك أي معنى. إنَّ الآباء الذين يُضحّون غير مُمتعين، على الرغم من أنكَ من دون تضحيتهم قد لا تتمكن أنتَ نفسك من الاستمتاع. لقد كان رجلاً عميق الذكاء، وكان قد فاز بمكان في المدرسة الثانويَة المحليّة ولكن اضطرَّ إلى رفضه، لأنَّ عائلته لم تتمكّن من دفع الرسوم أو الزي الرسمي. كان أحدَ اثني عشر طفلاً من أبوين من المهاجرين الأيرلنديين، والمدهش أنهما تسلّلا معاً إلى إنكلترا من مقاطعة تيبراري . فشحطات الخيال الرومانسي تحت ضوء القمر لم تكن نموذجاً معروفاً اجتماعياً في أواخر القرن التاسع عشر في روسكريا . وقد عاش الأفراد الأربعة عشر كلهم في منزلٍ صغير ذي مصطبة في حي قذر في سالفورد، ولكن كان مصدر فخر لهم جميعاً أنه لا أحد منهم كان ينام في الطابق السفلي. بدل ذلك، كان

معظم الأطفال ينامون على الروافد الخشبية، كما كانوا عادةً يفعلون في الكوخ الأيرلندي التقليدي.

بهذه الطريقة، أمكنَ الاحتفاظ بالـ "الصالون" أو بالغرفة الأمامية للطابق السفلي مقدّسة إلى أبعد الحدود. إنَّ صالون الطبقة العاملة يوازي بصورة ما غرفة جلوس الطبقة الراقية، فهي مكان مريح يمكنكَ فيه أنْ تدخّن سيجارك، وتلعب البريدج أو تشترك في حديثٍ متحضّر. ولكن بما أنَّ الطبقة العاملة لم تكن تفعل أياً من هذه الأشياء، كان الصالون يبقى خالياً، كنوع من الشاهد على أنه لا يتوفر لديك لا الوقت ولا التدريب ولا الميل إلى مثل تلك الممارسات. وكما أنَّ ضريح الجندي المجهول ذو مغزى لأنَّ لا أحد يعلم مَنْ يُسجّى داخله، كذلك كان للصالون معنى لأنَّ لا شيء يحدث فيه. إنه "محفوظ للأفضل"، ولكن بما أنَّ الأفضل لا يقعُ أبداً فإنه يبقى خاوياً.

كان هناك تمييز بين عائلة والدي وعائلة والدتي، تجلّى لنا بشكلٍ مؤلم لكنه كان دون شك غير مرئي على الإطلاق لعينِ ناظرٍ من الطبقة الوسطى. فعائلة والدي هي من الطبقة العاملة السفلى، بينما أهل والدتي كانوا من الطبقة العاملة العُليا؛ وعلى الرغم من أنَّ جدَّيَّ الاثنين يعملان كعاملَين في مصنع محلّيّ لإنتاج الغاز، كان ذلك بالنسبة إليهما تمييزاً على جانب خطير منَ الأهمية كالخط الفاصل بين القسم الصناعي من العاصمة والقسم المأهول. كان أشبه بالفرق الدقيق الظاهر بحيوية لعين حيوان الكسلان لكنه خفيّ على بصر عالم الحيوان. كانت أمُّ أمّي تعمل نادلة؟ ولكنها جاءت من مزرعة صغيرةٍ تقع بالقرب من نيوري وكانت تضمرُ احتقاراً بارداً جديراً بفلاحٍ مُكتفٍ ذاتياً للعامل غير المستقلّ. وهكذا طعَّمَ شوارعَ لانكشير الصناعية تمايزٌ ريفيٌّ أيرلندي. لم تكن تعترف بأيّ من بنات العائلة؛ الفتيات لن يرثنَ المزرعة، وحقيقةُ أنه ليست هناك مزرعة في وسط سالفورد لتورَّث لم تغيِّر هذا التحامل.

جمعَت جدَّتي بين فقر الطبقة العاملة وقيَم البورجوازية الحقيرة، وبذلكَ ابتُليَتْ بأسوأ ما في هذَين العالَمين. كانت ممثلة ممتازة، في استطاعتها بومضٍ من عينيها المترعتين بالحزن، الشبيهتين بعينَيّ بقرة، أنْ تختزل ملءَ غرفةٍ من الأشخاص المرحين إلى نوباتٍ مروّعة من الإحساس بالذنب. كانت تبدو كالنموذج الأصلي للأم الأيرلندية، المكتفية بالقليل، والتي طال أمد عذابها، على الرغم من أنَّ ذلك كان يُخفي أنانيّةً كفيلة بأنْ تدفع كاليغولا إلى الإحساس بالخجل. كان حلمها، كما أعتقد، أنْ تعرُج وتتألم وهي تسير في الشارع مرتدية أفضل معاطفها، تتعثَّر في مشيتها كزورقٍ سحبٍ قديم مربوط، بينما من خلف مائة نبتة مطاطية وستارة مُخرَّمة يُحدِّق الجيرّان ويغمغمون بأنفاس مكبوتة: "ها هي السيدة تيرني في طريقها إلى القدّاس اليوميّ، يعلمُ الله كيف تنجح في السير على ساقيها".

الساقان المذكوران كانا يشكلان جزءاً مركزياً من ميثولوجيا طفولتي، خارقَين كقوس فيلوكتيتس أو ترس آخيل . كانت سيارة شحن البقال قد دهستها، ولكن على الرغم من أنَّ جراحها كانت من النوع المتوسط نسبياً، استجابت للحادثة كما لو أنّها حُشِرَت داخل آلة صنع السجق أو سقطَتْ من علوٍ شاهق على بركة مملوءة بسمك القرش. وفازت بمبلغ صغير على سبيل التعويض القانوني عن الحادثة، لكنها أبقتْ الأمر سراً من ناحية في حال ما طلبَ منها أطفالها الذين ابتلوا بالفقر نسبةً من النقود، ومن ناحيةٍ أخرى لأنَّ حصولها على التعويض قد يلطّخ وضعها المأساوي. لقد كانت الحادثة بصورةٍ ما ليست أكثر من عدالة شِعرية. وقبل ذلك ببضع سنوات في أيرلندا، كان أخوها قد دهسَ القابلة المحلّية بحصانه وعربته، بعد أنْ شُربَ المشروب، كما يقول الأيرلنديون بصيغة المبني للمجهول. وقُتِلَتْ القابلة من فورها، لكنني أشكُّ في أنها حصلتْ على أي تعويض، أو في أنَّ الأمرَ قد تطوَّر إلى أبعد من ذلك، لأنَّ الموقف الأيرلندي من

القانون الاستعماري (كما كان في ذلك الوقت) طارئ بصورة مثيرة للإعجاب.

كل شيء في تلك العائلة كان يُنفَّذ على مضض وبلا براعة، خِلسةً. كانت جدَّتي تبدو أشبه بنسخة من الشاعر سيموس هيني تضع صليباً - كلاهما ينحدر من منطقة ألستر الريفية، وربما من بركة الجينات نفسها - وتعتقد مع قوم هيني أنَّه مهما تقول ينبغي ألاّ تقُولَ أيَّ شيء. لاشك في أنه إذا نشأ المرء كاثوليكياً في دولة بروتستانتية متعصِّبة له صِلة وثيقة بالأمر، على الرغم من أنه في حالة جدَّتي يمكن إضافة جرعة كبيرة من الانحراف الشيطاني. لقد كان وجه الشبه بينها وبين هيني جسدياً فقط، بما أنها لم تكن بارعة في التوقُّع المُسبَق أو في استخدام الصيغة البلاغية. كانت ذكية، متكتّمة، ماكرة، مُخادعة، وورعة كمرشّحة لدخول الرهبنة ومراوغة كدبلوماسي، وكانت جديرة بأنْ تصبح يسوعيّة ممتازة. وبدل ذلك، وبسبب افتقارها إلى المتطلبات التناسلية والثقافية اللازمة لأداء مثل ذلك الدور، أضحتْ نوعاً من نسخة إكليركية لُمعجبة بالمشاهير، وقد أمدّتها فكرة أنَّ قسيساً سوف يذكرها بالخير أمام الآخرين بسرورٍ غامر، ويكاد يكون شهوانياً. وتصوّرتها تغوي رجال الدين المحلّيين ليدخلوا صالونها وتستخدم كوباً مجانياً من الشاي كطُعم، وتهدهدهم بعينيّ بقرة كئيبتين حتى يناموا، ثم تقف فوق كتلهم الساكنة وتهسُّ "إنَّ السيدة تيرني امرأة طيبة" وتكررها في آذانهم المسحورة، إلى أنْ تصرفهم وهم مبهورون ليجوبوا الشوارع ويردِّدوا ذلك النشيد بإذعان لكل مَنْ هبَّ ودبّ. وقد نالها الخزي ذات مرة حيّن وجدت قسيساً يُطاردها على الرصيف حين لم يكن جوربها نظيفاً، وأبلغَت والدتي بأنَّه "إذا عرِفَ الرب مَنْ أكون، لقال: لا يمكن أنْ تكون هذه هي السيدة تيرني"، إنها لغزٌ فكري يتركه المرء للمناطقة ليكشفوا عنه. كانت أمي ترتعب منها كارتعاب ضحية من مُعذبها، وبقيَتْ هكذا حتى بعد وفاتها بوقتٍ طويل.

وهي لم تتصل أبداً بأهل والدي، مع أنهم كانوا يُقيمون في مكانٍ قريب من منزلنا، وكانت تحتقرهم بوصفهم قبليين ولا يتّبعون الأساليب الصحّية، وهذا صحيح. وأزعجتها أيضاً فكرة أنَّ والدة والدي، التي عانت طويلاً معاناة حقيقية وليست زائفة، كانت معروفة بأنها أشد نساء شارع روكلي قداسة، والقداسةُ حالةٌ كانت هي نفسها تطمح إليها بخبث. وبما أنَّ شارع روكلي لم يكن بطول بارك آفنيو، كان هذا مديحاً غامضاً قليلاً، أقربَ شَبَهاً بتقريظ شخصٍ لأنه أفضَل عازف ناي في الحمّام كله؛ لكنَّ جدَّتي كانت تكره خُلع حتى أشد المعاني الطيبة تواضعاً، ناهيك عن القداسة، على أي شخص غيرها. كان في استطاعتها أن تعثر على دوافع زائفة تكمنُ خلْف مآثر الآخرين بحدَّة ذهن ديالكتيكية جديرٌ بهيغل أنْ يحسدها عليها.

إلى جانب ذلك، على الرغم من أنَّ أهل والدي لم يكونوا بأي حال غير فعّالين، إلاّ أنهم لم يكونوا مُحترمين أيضاً. وعلى العكس، كانت جدَّتي لأمي عاملة مُحتَرَمة، وبمجيئها من مقاطعة داون Down هبط أيضاً قدرها . وهكذا تزوَّجَ أبي من امرأة أرقى منه، على الرغم من أنه كان من أحقر الطبقات الاجتماعية، وكان دائماً واعياً لهذه الحقيقة. كان يُشدِّد على احترامه لأمي أكثر من حبّه لها، وكأنها إحدى جميلات الجنوب وهو ريفي بسيط ذو حظٍ خارق. لكنَّ أبويه كانا يُحسنان القراءة والكتابة، تعلّما على أيدي الرهبان في روسكريا، في حين أنَّ والد أمي كان أُميّاً. أُم أمي كانت فقط موهوبة أكثر قليلاً في مجال الأدب. وذات مرة بعثتْ إليَّ برسالة حين كنتُ في المستشفى ختمتها بما يلي، "تيري، أنتَ كاتب أفضل مني"، كان تصريحاً أشارتْ به إلى نفسها جديراً بأنْ يصدر عن كاتب رمزي فرنسي.

في حين أنَّ رجلاً من الطبقة الوسطى يخرجُ عادةً معتمراً قلنسوته ويُدخِّن غليونه داخل المنزل، كان والد أمي يعتمر قلنسوته داخل المنزل

ويدخّن غليونه خارج المنزل. كان يفعل ذلك، في الواقع، في الفناء الخلفي، حيث كانت جدتي تطرده مع كلبٍ هجينٍ كريه الرائحة. كان يضع ربطة عنق كما يفعل الرجل المنتمي إلى الطبقة الوسطى عادةً، ولكن المنتمي إلى الطبقة الوسطى كان سيرتدي دون شك قميصاً يتناسق معها. كان يمكن أنْ تترقرق عيناه بالدموع لدى ذِكر أيرلندا، وذات مرة وصفَها لي بأنفاسٍ مكبوتة بأنها "التربة المقدسة"؛ لكنَّ ذكرياته عن المكان بدت ضبابية وربما في معظمها غير سارة على الإطلاق، و لم تكن لديه أدنى نيّة في العودة إليها. وبما أنَّ مصنع سالفورد للغاز كان أبعد مكان عن المثالية، فإنه قلّما تحدث عمّا خلّفه هناك.

لم تكن هناك علاقة حقيقية بينه وبين جدَّتي. العلاقات كانت مُخصصة للذين يستطيعون تحمُّل نفقاتها. كانت أيرلندا التي نشؤوا فيها ما تزال مكان المهور وصانعي أعواد الثقاب. وأحد أبنائها، شقَّ طريقه بالتملّق وبسحره منتقلاً من العمل في مصنعٍ للبسكويت إلى إلقاء الخطب في كلية الفنون التطبيقية، تجوَّل بين حانات سالفورد بوصفِهِ "أمير المطربين العاطفيين". لقد كنا عائلةً من المؤدّين وليس من المُنجِزين. ابني الأكبر، على الرغم من أنه وُلِدَ بذراعٍ واحدة، كان يكسب قوت عيشه بالشعوذة. وقريب آخر لي، على الرَغم من مظهره الشبيه بالقَزَم، كان ملاكماً بصورةٍ ما في سلاح البحرية، وكان بين حينٍ وآخر يختفي مدة بضعة أيام لكي يسكر. وحين يظهر أخيراً ليواجه زوجته الساخطة، يروح يقفز حولها بحركات مهووسة كمَنْ يقوم بملاكمة وهمية، مومئاً مع كثير من الصخب إلى ذقنه ويصيح، "سدّدي واحدة إلى هنا، يا كوني، سدّدي واحدة إلى هنا!". إلاّ أنه كان في حاجة إلى مرحه الصاخب: كان قد خدمَ في سلاح الغواصات خلال الحرب، وتكيَّفَ مع الدور بصورة ثوريّة بسبب طوله القَزَميّ، وكانت عمتي تستيقظ أحياناً ليلاً لتجده جالساً القرفصاء على إحدى الأرائك في الصالون، ويصرخ كطفلٍ وليد.

أشدّ ما أذكره عن والدي هو الصمت. كان صامتاً لأنه كان يكبتُ مشاعره بشكلٍ مؤلم، ويشعر بخجل شديد من إظهارها. وهكذا كان فشلٌ في الكلام يُغطي على آخر. كان منقطعاً عن التواصُل، مُفتقِراً بشدَّة إلى اللغة. لعلّي عوَّضتُ بقدرٍ كافٍ عن ذلك خلال حياتي. ولا أزالُ غير متأكدٍ مما إذا كان صمته صخرةً أم هاوية، قوةً أم لا مبالاة. كان حييّاً ومنعزلاً بصورة مؤلِمة، لكنه كان أيضاً عمليّاً، وعقلانياً، ويُعتَمَد عليه وصبره غير محدود. كان يستطيعُ أنْ يحل مسائل رياضية متقدِّمة بنظام عمليّ خاص به، دون أنْ يتلقّى أي تدريب في ذلك، ولو أنه تثقّفَ كما ينبغي لأصبح مهندساً ممتازاً. كان دائماً يُبدِع أشياء في ذهنه: علبة من البطاطا المقلية مع كيس يحتوي الخل، وسريراً ينزلق نحو الأعلى ليُريح ساقيك. لم يكن يُقدِّر ذوي الميل الفني أمثالي.

بعد ثلاثين ونيّف من السنين في مصنع هندسي، تلقّى معاشه التقاعدي الضئيل واشترى محلاً لبيع الكحول في منطقةٍ وضيعةٍ من سالفورد كانت قد هُدِمَتْ مؤخراً. كان القبو زلِقاً من كثرة الحلازين التي اجتذبتها البيرة. ولاشك في أنَّ البيرة اجتذبتها أكثر مما اجتذبَتْ والدي، الممتنع تماماً عن شرب الخمر. لعلّي عوَّضتُ له عن ذلك أيضاً. كان الدكان هو تحقيقٌ لحُلمِهِ في أنْ يكون سيدَ أو "مُستخدِمَ" نفسه. لكنَّ الحلم كان فقط أنْ يبقى حياً لبضع سنين. سوف نحرق ذلك الجسر حين نصل إليه.

هناك تصوُّران لله. واحد كقاضٍ، نسعى أمامه إلى أنْ نقايض حياتنا مقابل الخلاص وذلك بأداء طقوسٍ بدائية معيَّنة ونُحسِن التصرف بدرجة عالية. هذا ربُّ الفرّيسين والشيوخ الأجلاّء، الذي إنْ لم يكن بغيضاً بالنسبة إليهم فهو ليس فاضلاً، واسمه في العهد القديم هو الشيطان، الذي يعني بالعبرية شيئاً أشبه بالـ "المُتَّهِم". التصوُّر الآخر لله هو أنه ليس في حاجة إلى الاسترضاء لأنه سامحنا، وقَبِلَنا بشكلٍ

فاضح كما نحن. هذا التصوُّر لله، بوصفِهِ مُستشارَ الدفاع أو حتى ما يُسمّى بالمُدَّعي المُساعد في قفص الاتّهام، يُعرَف باسم يسوع، صديق روث الأرض. إنَّ أحد أشدّ مفارقات الإنجيل المسيحي الرهيبة أنه حين توصَّل الله أخيراً إلى تلبُّس مظهرٍ متأخر عن موعده بصورة شائنة في العالم الذي كان قد خلقَه، فعلَ ذلك بوصفِهِ مجرماً سياسياً. إنَّ هذا التصوُّر لله مُعادٍ بشكلٍ هائل لقيَم العائلة، وليس لديه ما يقوله عن النشاط الجنسي، ويطلبُ منا أنْ نُحبَّ الغرباء بقدر ما نحب أهالينا.

طوال فترة طفولتي كنتُ متآلفاً مع فكرة حب الغرباء. ولأنَّ والدي لم يكن يكسر صمته أبداً، كان من الصعب معرفة ما إذا كان صديقاً أم غريباً. تُرى، أكان مُستشاراً للدفاع، أم نكِرة؟ لقد كان يُثير ضجر زملائه في العمل بحكاياتٍ عن تفوقنا في المدارس، لكنه لم يمدحنا مرةً واحدة في وجوهنا. لم يكن يلمسنا أو يلعب معنا؛ لم تعلّمه تنشئته في الفقر المدقع كيف يفعل ذلك. إنه ارتياب الطبقة الوسطى القديم في اللين. كان العالم الخارجي كئيباً، وأنتَ لا تجعل أولادك غير مؤهلين له بتعليمهم الكثير من العادات الحسنة والفضائل. كان الحب مسألة فعل، وليس شعور. والكاثوليك غير مولعين بهذا الهراء الذاتي كله.

- ٦ -

الدونات[٣٣]

مشيتُ أتعثَّرُ في أرجاء جامعة كمبريدج سقيم القلب، كمَنْ ارتكبَ جريمة قتل ليصل إلى هناك. خلال سنوات دراستي، في أوائل ستينات القرن الماضي، كان الطلاب كلهم تقريباً يبدون أنهم يفوقون الستة أقدام طولاً، كنتاج لقرونٍ من النسل الجيّد، والنهيق بدل الكلام، والتخاطُب بنبرات أصوات جهيرة في أحاديث حميمة وخاصة. ويرغب المرء في إضافة أنَّ الرجال هم أنفسهم، على طريقة النكتة القديمة؛ ولكن طبعاً في ذلك الوقت لم تكن هناك تقريباً أية طالبة. كانوا شباناً طائشين وغضّين يضربون أقدامهم ويُطلقون صراخ السخرية في دور السينما لأوهى نكتة تُطلَق، ويدفعون بمرافقهم أقرانَهم من أهالي البلدة المذعورين ويُنزلونهم عن الأرصفة الضيقة التي يعود عهدها إلى العصور الوسطى. شريكي في الغرفة، الذي كان أحياناً من الوقاحة بحيث يرتدي الجينز، استوقفه مُرشده الجامعي وسألَه بحِدَّة لماذا يرتدي ملابس عامل في مرآب. وفي قاعة الطعام، كان الطلاب يتكلمون وكأنهم يمضغون بطاطا ساخنة حتى وهم لا يفعلون ذلك. ولا أحد كان يتقيّأ جذور الشمندر على المائدة.

أمضيتُ سنتي الثانية في غرفةٍ استأجرتُها في منزلِ رجلٍ كان طاهياً أو نادلاً في إحدى الجامعات. ويبدو أنه كان يطمع في زَبَانةِ الطبقة

---

(٣٣) الدونات، جمع دون: وهو رئيس كلية إنكليزية أو أستاذ فيها.

الراقية.بما أنه كان أيضاً مُرافقاً في الجامعة، أي مساعِداً يعتمر قبعة عالية للحرّاس أو لضباط التأديب في الجامعة. في تلك الأيام كان مطلوباً منا أنْ نرتدي العباءة الجامعية في شوارع كمبريدج بعد الغسق، تمييزاً لنا عن الغوغاء المحليين، وكان المُراقبون، الذين يُحيط بهم مرافقوهم الموثوقون، يجوبون مركز البلدة ويُغرّمون أيَّ طالب يُمسكون به مرتدياً ملابس غير لائقة. وقد ارتعب أحد أصدقائي من ذلك الاحتمال إلى درجة أنه أصبح يرتدي الزيّ الرسمي حتى في المراحيض العامة، وتعرَّضَ لسخريات زملائه الفتيان الفجّة الواقفين إلى جانبه. وإذا ما قُبِضَ عليكَ في الشارع يمكنكَ أنْ تهرب وتنجو بنفسك إلى إحدى الجامعات إذا تحلَّيتَ بالشجاعة اللازمة، بما أنَّ نطاق سلطة المُراقبين كان ينتهي هناك؛ ولكن إذا قرَّرتَ أنْ تسلك ذلك المسار قد يلاحقك المرافقون، وإذا أمسكوا بك فأنت في ورطة. ويُحكى أنَّ أحد المرافقين اختيرَ لسرعته وآخر لقوته الفائقة. وقد عشتُ في رعبِ تعرُّضي للملاحَقَة في الشارع من صاحبِ المنزل مُتخيّلاً الصمت القاتل على مائدة الإفطار في صباح اليوم التالي.

كان صاحب الدار شخصيةً متجهّمة، يتلعثم، ذا رأس همجيّ، وعينين حمراوين ويضعُ نظارات مُكبِّرة بشكلٍ يُثير التشاؤم، وفاشستياً من الطبقة العاملة يتودَّد إلى مَنْ هم أعلى منه مرتبةً ويتنمَّر على الأدنى منه. كان يتَّخذ وضعيَّة سائق دراجة، كما علَّقَ بريخت على هذه النماذج، فيجثمُ منحنياً كثيراً ويدوس بشدّة . لذلك كان حضوري جديراً بأنْ يُغرِقه في أزمةٍ وجودية، إذ على الرغم من أني كنتُ خريجاً، أو "grad" حسب تعبير السكان المحليين، إلاّ أنني بجلاء لم أكنْ أفضلَ اجتماعياً مما ينبغي أنْ أكون، وحتماً ليس أفضل منه. لذلك أوليتُ ازدواجية طبقته المَرَضيّة انتباهاً غير مقصود، مُجسّداً اضطرابه الداخلي إلى درجةِ أنه لم يعُد يتحمَّل وجودي في منزله لكنه كاد لا يتحمَّل غيابي. لقد كرهني لأنني لم أسمح له بالتلذُّذ باشمئزازه

بكوني شخصاً يستطيع أنْ يتذلَّل له. وبمجرَّد إقامتي تحت سقفه كانت كافية لتذكّره كم كان مُعوَزاً، وهي إهانة كان في وسعي على الأقلّ أنْ أُخفِّف من وطأتها بمعاملته بشيء من الفخامة، أو أنْ يتلقّى البريد ممهوراً بكلمة "المحترم" على المغلَّف. لقد بدا من الظلم أنْ أستخدم مرحاضه دون أنْ أضيف لمسة من الرقيّ إلى منزله في مقابل ذلك الامتياز. كانت زوجته، الواهنة، ذات النظرة المجنونة، ترمقني بنظرة تُثير الشفقة من خلفه، وكأنَّها تتوسّل إليّ بصمت أنْ أعدّ لها طائرة مروحيّة وسُلّماً من الحِبال. كان ذلك زواجها الثاني، وذات مرة، في نوبةٍ من الطيش المتطرّف، أخبرتني أنَّ صاحبَ منزلي "لا يساوي الإصبع الصغير" لزوجها الأول. وعلى الرغم من أنني لم أقابل زوجها الأول، كان صعباً عليَّ أنْ أخالفها الرأي.

بعد سلسلةٍ من الحوادث الغريبة المؤسفة، نجحتُ في الحصولِ على غرفةٍ في الجامعة وحسبتُ أنني قد تحرَّرتُ من ذلك الوحش إلى الأبد. لكنني لم أحسِب حِساب مراسم تسلُّم الشهادة، حيث كان دوره أنْ يتأكَّد من أننا نحن المرشّحون للتخرُّج نرتدي أزياءنا الرسمية كما ينبغي، المؤلفة من البزّة السوداء وربطة العنق البيضاء على شكل فراشة. كان في استطاعتي أنْ أراه على مسافة متوسطة، يشقُّ طريقه بانتظام بين أرتال الطلاب، يُعدِّلُ من شأنْ ياقة هنا ومن طرف عباءة هناك، وحتى، كما أعتقد، يرفع بوقار لحيته الكثّة الغريبة الشكل ليتأكَّد من أنها تُخفي ربطة العنق الفراشيّة ذات الأذنين. كنت شبه أتوقَّع أنْ يتجاهلني حين أصبح أخيراً أمامي، مُسلّحاً بالحِدَّة اللاذعة التي افترقنا بها؛ لكنني لم أحسِب حِساب تذلله الوراثي. وبدل أنْ يضربني بركبته على عورتي ويؤلمني متظاهراً بأنه يُمسِّد طيّة صدر السترة، افترّت شفتاه عن ابتسامة ابتهاج وصافحني بحرارة. كان جلياً أنه سمعَ أنني أحسنتُ صنعاً في الامتحانات، وكان مُنهمكاً في إعادة صياغة قصتنا بأسلوب أكثر فكاهة وفروسيّة. لم أستطع أنْ أسخر منه، كما كنتُ قد نويتُ أنْ أفعل،

لأنه هربَ إلى فقدان الذاكرة. وفاقدو الذاكرة لا يمكن مسامحتهم، لأنهم نسوا أنهم قد أهانوا غيرهم.

المُشرف عليّ، الدكتور غرينواي، كان له دخلٌ خاص ومنزل رائع قديم يقع خارج البلدة، حيث كان يقوم على خدمته خادم إسباني وخادمة إسبانية. أحياناً، بعد قيامه بعمله، كان يُلقي نظرةً مُتآمرة حول غرفة مكتبه، ويُخفِض صوته كمَنْ يُفضي بسرّ، ويهمس: "ما رأيكَ في أنْ تأتي لتناول طعام الغداء معي في يوم الأربعاء القادم؟" يقولها بأسلوب الغاوي الجانبية المتوترة، بحيث أنَّ المرء يتخيَّل حديثاً عاطفياً حميماً يدور في مطعم مُرفّه متوارٍ. ولكنَّ الدعوة هي إلى منزله، وتصل إلى هناك لتجد أَربعينَ من تلامذته الآخرين يتنقّلون في المكان، وكلهم في الغالب تلقوا الدعوة السرّية المتملِّقة نفسها، وكلهم حتماً ينتظرون سرّاً اللحظة التي سيصرِف فيها باقي الضيوف ويبدأ الحديث الحميم. ويجلس غرينواي على رأس المائدة الطويلة الشبيهة بمهبط طائرة، ويهتف "الطلاب المتقدمون!" ويتقدَّم الموشكون على التخرُّج الحائزون على المِنح الكبرى ليحتلوا المقاعد المجاورة له، ويهتف غرينواي من جديد: "الطلاب المستجدون!" وبمشية جانبية يتقدم المثقفون المستجدون ليتخذوا مجالسهم الأكثر انخفاضاً عن مستوى الطاولة، يتبعهم بعد ذلك الطلاب الذين يتلقّون إعانة تعليمية. وأخيراً، يُدعى عامة الطلاب ليتجمّعوا ويحتشدوا مع الخدم، بعيداً عن مدى سمع غرينواي كبُعد شلالات نياغارا. كانوا بعيدين إلى درجة أنه من الصعب رؤية إنْ كانوا قد زُوِّدوا بالسكاكين أم لا، أو تُرِكوا ليأكلوا بأيديهم.

كان غرينواي أول رجل متحضِّر حقاً أقابله، وعفوياً بدفء فرشاة الحلاقة. كان يعرف كل شيء عن أصناف الجبن، ونبات الويستريا،

ولوحات روبنز بالريشة، والتخوم العشبيّة، والزوافر[٣٤]، والسندات المالية ذات الحواف المُذهَّبة، وحياة الطيور في فنزويلا، وأنواع الفاكهة المختلفة في ماليزيا، وليبنتز، والغناء الغريغوري، والبراندي، وقانون الضرر غير المقصود، وصناعة السروج، والاستراتيجية العسكرية في القرن السابع عشر، والألوان المائيّة، وسلالات كلب شمالي إفريقيا، والأحرف الصوتية في لغة الأفريكان، والحياة النباتية في وادي مينو. هذه المعرفة كلها بدت متأصّلة فيه كبنكرياسه، أو على الأقلّ اكتسبها دون بذل جهد، وبما أنني كنتُ قد وصلتُ حديثاً إلى الجامعة بدأتُ أفهم أنَّه ينبغي الاّ تُستَمدّ الثقافة حقاً من الكتب. كان الأمرُ أشبه بالانضمام إلى صفوف الجيش ثم تكتشف أنَّ الأسلحة النارية خسيسة أخلاقياً. أو بالأحرى، يمكن غربلة المعرفة دون شك بهذه الطريقة، أما الشيء الأثمن منها، الذي يُعرَف بالحضارة، فلا يمكن غربلته. فهذه تُلتَقَط كما يلتقط المرء مرض التيفوئيد أو يتعرَّف على صديق جديد فاتن، ولكن لا يمكن تعلّمها إلاّ كما نتعلّم كيف نعطس أو يحصل لدينا انتصاب. والحضارةُ تُعلّمكَ أيضاً الزاوية التي يجب أنْ تعتمر بها المعرفة، ومدى الرخاوة أو الشدّة أو الميل في وضعها، وهي أشياء لا تقلّ أهمية عما تعلّمته.

كان ذلك أول وميض للفَرق بين المعرفة الواسعة المُكتَسَبة من الكتب والذكاء، اللذَين طالما تخيَّلتُ أنهما يسيران يداً بيد. لقد كان غرينواى ذكياً دون أدنى شك، ولكن ما في رأسه من أفكار لا يزيد عما عند حيوان الهامستر . في الواقع، لم يكن فقط مُجرَّداً من الأفكار بل ويُعارضها بحميّة، وقد وجدتُ ذلك غريباً قليلاً بالنسبة إلى حامل درجة دكتوراه في الفلسفة. إذ لم يكن يرى الحاجة إليها،

(٣٤) الزوافر، جمع زافرة: نصف قنطرة تدعم جداراً.

أكثر من الحاجة إلى تدثير قدميه بالحرير الصخري أو ارتداء تنورة راقصة البالية. وسرعان ما اكتشفتُ أنَّ دوره كمعلِّم كان تخليصي من أفكاري، كما أنَّ دورَ الحرامي هو أنْ ينهب غرفة نومك. كنتُ أندفعُ إلى غرفة الإشراف حاملاً كمية هائلة، غير عملية، من الأفكار، فيقوم بتشذيبها برشاقة حتى تأخذ شكلها المُحدَّد، ثم يرميها في كل الاتجاهات ثم يأمرني بالانصراف وأنا خالي الوفاض ولكن صادق. فإذا كنتَ، مثلاً، تناقش نظرية هيوم القائلة إنَّ العقل هو دائماً عبدٌ للعاطفة، يقول شيئاً مثل، "إنَّ الأمرَ كله يعتمد على الفرد"، وكأنَّنا نتحدَّث عن مذاق قرنبيط البروكولي. ويبدو أنه يعتقد أنه سواء أكان الفضاء منحنياً أم أنَّ لدى الأرانب تصورات فالأمر يعتمد أيضاً على الفرد. لقد كان شخصية ماكرة بطبيعتها، لكنَّ الأيديولوجيا جعلته مُتبلِّد الذهن، وكأنَّها من نفاية العقل الذي يتبدَّد بالتدريج. كانت لديه حساسية ضد الأفكار كالمصارع أو سمسار البورصة. وإذا أعطيته نصاً يحتوي سرَّ الكون، فلن يُلاحظ فيه إلاّ فاصلة منقوطة موضوعة في غير مكانها. و لم يكن ينفعه أنْ يكون فائق المكر، ولكي تخدعه يجب أنْ تجد طريقة تتحدّث بها عن هيراقليطس أو جون ستيوارت ميل يمكن للأميرة مارغريت أنْ تفهمها.

وهو طالب درسَ غرينواى الفلسفة كمادةٍ أساسية، لا الإنكليزية، التي لم تكن تُعتَبَر في ذلك الوقت عائقاً في سبيل أنْ يصبح زميلاً متقدماً في مادة اللغة الإنكليزية في جامعة كمبريدج. كان قد قرأ الأدب الإنكليزي كما قام بزيارة متحف البرادو Prado أو استوعب القواعد الأساسية للعبة الكروكيت، و لم يكن ليعجز عن قتل ساعة من الوقت في الحديث عن جين أوستن. وحين كنا نناقش أدب أوستن الروائي، كان تعليقه على المتوددين المتنافسين لطلب يد بطلة رواية "مانسفيلد بارك" كما يلي: "حسن، لو كنتُ مكانها لما تزوجتُ أياً منهما" وحتى في ذلك الوقت، كان ينتابني إحساس مزعج بأنَّ النقد

الأدبي من المفترض أنْ يتضمَّن أكثر قليلاً من ذلك، مع أنَّ هذا بالضبط ما كنتُ غير متأكد منه. كان أشبه بما يمكن للأميرة مارغريت أنْ تقوله، و لم يكن ذلك حتماً هو سبب تفوّقي في المواد كلها. وقد أخبرني ذات مرة أنَّ أحدهم اتَّصلَ به هاتفياً حين كان جالساً في غرفته في الجمعية وسأله إنْ كان يرغب في نيل عضوية جامعة ترينيتي في اللغة الإنكليزية. وفهمتُ أنه قال نعم، كما يقول المرء نعم لمَنْ يقدِّم له كأساً من الويسكي. وهكذا أصبحَ محامياً أيضاً، على الرغم من أنه لم يكن جلياً تماماً أيّهما كان مُلائماً له أكثر. وما كنتُ لأفاجأ كثيراً لو علِمتُ أنه كان أيضاً نباتياً أو عالماً بالسنسكريتية. هذه الأشياء كلها بدتْ، في تلك الأيام على الأقلّ، أنها تعتمد على مَنْ تعرف أكثر مما تعرف. كان التدريب المِهني مفيداً، لكنه لم يكن ضرورياً. ربما كان يُعتَبَر أنَّ التأسيس المتين في الكلاسيكيات مؤهّل كافٍ ليصبح المرءُ جرّاحاً في الدماغ.

كان أحياناً يُحاضرُ في مادة التراجيديا الإغريقية القديمة، خائضاً في النص سطراً فسطر برتابةٍ جافة لكنه أحياناً يُنعِمُ النظر بإثارة إلى المِقرأ، وكأنه قد لمحَ فجأةً حشرةً غريبة تستكين على كتابه، فيهتفُ بنبرةِ استعجالٍ متصاعِد "لحظة واحدة، توجد معضلة (مشكلة نصيّة) هنا!" كانت تلك هي أقرب نقطة وصلَ إليها من الدراما الإنسانية، على الرغم من أنه كان قادراً على أداء بعض الإيماءات المشوشة. وأحياناً، في أثناء جولات الإشراف، كان يسحب مِنشاقاً أنفيّاً من جيب صدرته ويُقحِمه بعنفٍ داخل أنفه. في مثل تلك اللحظات كانت عيناه المتعجرفتان، المتوهجتان، تستمران في جذب نظري، وكأنه يتحداني بلا كلام كي أعلّق على تلك الحركة. كان يُعاني من مناخ فنلندا شديد الرطوبة، وكان بين حينٍ وآخر يتأمّل بصوتٍ عالٍ حول جلسات نقاشنا بشأن ترك كمبريدج والذهاب إلى مكانٍ آخر. لكنه كان يفعل ذلك بنبرة صوت عابثة، شبه فكاهية، لرجلٍ يفكّر في

شيء يعلمُ أنه سخيف تماماً ومستحيل منطقياً، كالقيام برحلة يوم إلى كوكب زُحَل أو كإنبات زوج من قرون الوعول. بل كان يمكن تخيّله في أي مكانٍ آخر غير كمبريدج كما يمكن للمرء أنْ يتخيَّل الدالاي لاما في مربعٍ للتعرّي. لقد كانت فكرة وجوده في هيوستن أو هدرسفيلد غريبة وعجيبة.

في الواقع، لقد توصّلتُ إلى أنْ أرى، خلال سنوات مكوثي في أوكسبريدج، أنَّ المكان كان مملوءاً بأشخاصٍ موجودين هناك لأنه إلى حدٍ بعيد لم يكن من الممكن تصورّهم في أيِّ مكانٍ آخر، تماماً كما أنَّ بعض الناس لا يمكن أنْ يوجَدوا إلاّ في مؤسسات أو بيوت العلاج النفسي السرية جداً التي تطلُّ على مشاهد من القنال الإنكليزي. وهناك نوع من طبقة المثقفين الحمقى في أوكسبريدج[٣٥] ليس لديهم عمل حقيقي لكنهم يجدون أنفسهم، كما يحدث في بعض أجواء بانيول[٣٦] الوهمية، عاجزين عن المغادرة، كما يتفاقم رعب السجناء لسنوات طويلة بالتدريج عندما تقترب لحظة عودتهم إلى العالم. إنَّ كلّيات أوكسبريدج، كالمستشفيات والأديرة، لها تأثير طفولي على المقيمين فيها لسنوات طويلة، تختزلهم إلى حالة من النرجسية النكِدة. وكنتُ أعرف دوناً في جامعة كمبريدج كان يشتري سجائره من آلة – ليس لأنه يُفضِّلُ التعامل مع الآلات الحديثة المجرَّدة من الروح، بل لأنَّ فكرة الاتّصال الإنساني عبر النُضُد كانت مُنفِرة له أكثر. ولو أنَّ أوكسبريدج أغلقَتْ أبوابها، لتوجَّبَ أنْ يُساق آل غرينواي – أصبحوا

(٣٥) أوكسبريدج: هذه التسمية تُشير إلى جامعتيّ أوكسفورد وكمبريدج، خاصة من ناحية كونهما مؤسستين أكاديميتين مهيبتين وعريقتين، ومعقليّ الامتياز والتفوُّق.

(٣٦) الإشارة هنا إلى الكاتب الفرنسي مارسيل بانيول (١٨٩٥ – ١٩٧٣). – (المترجم).

اليوم، والحمد لله، من النوع النادر والغريب - إلى مناطق خاصة يمكنهم فيها أنْ يتلقّوا وجبة الحِمية الخاصة بهم، وتحميهم سياجات عالية من إزعاج العامة الساخر، الذين سيُسمَح لهم بتصويرهم فقط في أوقات معيَّنة.

إنَّ غرينواى لم يخضع للكثير من البحث، على الرغم من أنه أنتجَ الطبعة الصغيرة المتحذلقة الغريبة. كان يتمتَّع بمعرفة واسعة مدهشة، ولكن دون أدنى فكرة عن كيفية استغلالها. كان أشبه ببستانيّ يتأمَّل باكتئاب في متراسٍ من الخضروات أقامه وأضحى الآن يُظلِم السماء، ويتساءلُ عمّا ينبغي أنْ يفعل بها كلها. وقد سمعتُ لاحقاً عن دونٍ عجوز من كمبريدج كان يعملُ في قسم صغير عُيِّنَ له مؤخراً رئيسٌ جديد ومتحمّس أصرَّ على أنْ يُقدِّم زملاؤه بحثاً واضحاً وملموساً. وفي كمبريدج في تلك الأيام كان مثل ذلك الطلب مُذهلاً وكأنك تطلب من الدونات أنْ يُقيموا علاقات جنسية علنيّة مع الغنم. كان النشر يُعتبَر عموماً عملاً سوقياً باعتدال، قضيةَ سعي وراء الشعبية، في مقابل الإنجازات الأطول عمراً كتوفيرِ هيئةٍ إداريةٍ من البشر الآليين للجنة الخمر في الجامعة. ورئيس القسم الجديد، الذي سئمَ اضطراره مطاردة زملاءه المتقاعسين، حدَّدَ لهم موعداً أخيراً لتقديم بحثهم، ومع اقتراب ساعة الحساب، أصبح الدون العجوز يزداد توتراً وغضباً. وأخيراً، عند الدقيقة العاشرة قبل منتصف الليل في يوم انتهاء الموعد المُحدَّد، سُمِعَ أنَّ نافذة منزله في ضواحي كمبريدج التي تكسوها الخضرة قد فُتِحَتْ، وانطلقَ صوته المرتعش يتردَّد صداه عبر الشارع: "أوقفوا اللص! لقد سرقَ بحثي!".

لقد عاشَ غرينواى حياةً مميَّزة استثنائية. وذات مرة وصلتُ متأخراً للقيام بالإشراف معه، مُبرِّراً ذلك بأنني اضطررتُ إلى العودة سيراً على الأقدام من عيادة طبيب الأسنان. لم يبدُ أبداً أنه توصل إلى فهم معنى

هذه الجملة، وأدركتُ بعد قليل أنّ فكرة زيارة طبيب أسنان بالنسبة إليه في كمبريدج، وليس في لندن، لم تكن تقلّ إثارةً للدهشة عمّا لو أنني قلتُ له إنني أقوم بانتظام بزيارة مرحاض السيدات أو ماخور خاص بالأقزام. بدا أنه يعتقد أنّه يمكنني أنْ احشو أيضاً أسناني بنفسي كما قد أسمح لطبيب أسنان محلّي أنْ يفعل ذلك. وذات مرة كان صديق دراسة لي جالساً يُحدثه في غرفة مكتبه وبدءا يشعران بأنَّ جو الغرفة يزدادُ برودةً. كان هناك موقد كهربائي صغير، مفتاحه يبعُد عن أريكة غرينواى مسافة قدم أو نحوه، لكنه لم يُشغّله. بدل ذلك، قطع أرض الغرفة، ورفع سمّاعة الهاتف، واستدعى خادم أحد الكليات لكي يُديره نيابة عنه.

هذا لا يعني أنه كان كسولاً؛ إذ لماذا في هذه الحالة ينهض عن كرسيه؟ ولا كان بأي حال مُترفّعاً أو متجبّراً، ولم يبدُ أنه يستمتع بإصدار الأوامر إلى الناس من حوله. على العكس، كان يتمتّع بكياسة، ولباقة وإيثاريّةِ إنسانٍ نبيل أصيل، وليس النموذج المُستبد الذي يتّصِف به الشخص غير الآمن اجتماعياً. كل ما في الأمر أنه نشأ على اعتقادِ أنَّ العملَ اليدويَّ يقوم به الخَدَم، ولم يعُد يفكر في أدائه إلاّ بقدر ما يفكّر في استئصال زائدته الدودية بنفسه. لم يكن الأمر مسألة كبرياء أو مبدأ؛ بل فقط أنَّ الأمور هي هكذا. وذات مرة وصفَ لي بستانيه بأنه "ملح الأرض"، دون أدنى إحساس بأنَّ هذه عبارة مبتذلة ومملة كالقول "الرجال يزدادون اضطراباً" أو "إننا نُلقي القبض عليك". ومرةً علّقَ أمامي على بوّابي الجامعة بأنهم "كلهم ضِخام الجثث"، مع أنه عبّرَ عن شكوكه حولَ أحدهم، وكان اشتراكياً من ويلز، رفضَ أنْ ينقر طرف قبعته المستديرة احتراماً له. كان ينكمش بحساسية شديدة من عبارات مبتذلة مثل "في آخر النهار" أو "صمت رهيب خيَّمَ على الغرفة"، ولكن عندما يتعلّق الأمر بقضيّة في غرفة الصف فحتى الليبراليين ذوي الذكاء المرهف يمكن أن ينزلقوا إلى الابتذال.

وغرينواي لم يكن ليبرالياً. وذات مرة تسامرتُ مع وَرْدته الإنكليزية، وكانت من نوع السكرتيرة الجميلة الممشوقة والمياسة، فتساءلتْ خلال ذلك بصوتٍ عالٍ عن السياسة التي يتّبعها. وكان الحديث عن سياستها هي بقدر ما كان عن سياسته، بما أنَّ قدْحَ زناد فِكر المرء حول آرائه السياسية يكون أشبه باعتبار الأصل العِرقي للوي آرمسترونغ لغزاً مُبهَماً. ولكن على الرغم من أنه لم يكن ليبرالياً سياسياً، يفضِّلُ النظامَ على الحرية ويعتنقُ مذهباً مُضاداً لمساواة البشر، كان يمثِّل أول لقاءٍ لي مراهِق، مُرتبِك، مسروق، مع العقل الليبرالي. كنتُ كاثوليكياً من الطبقة العاملة في الثامنة عشرة من عمري، واثقاً من نفسي كآلة قياس الوزن وجاهلاً كسمكة؛ وكان هو أرستقراطياً في منتصف العمر ينطوي على معرفة واسعة لكنه جعل من مذهب اللا أدريّة فضيلة. كنتُ متحمّساً صِرفاً، في حين كان ثابتاً راسخاً. وقد بدا إنه يستمدُّ frisson (رعشة) جنسية تقريباً من عدم معرفته بما يفكر، ويختتم نقاشاً ما بعبارة "أوه، لا أدري" الملتوية، الانهزاميّة الساخرة، التي تتراوح نبرتها ما بين المهانة العقلية ولا مبالاة الفارس.

صدَمَ هذا حساسياتي العقائدية كما لو أنه قد أنهى كل جملة بـ "أوه، هراء" ختاميّة. والمكان الذي جئت منه كان هناك قضايا من شتى الأنواع التي من المهم أنْ يعرف المرء أين يقف على أساسها، وكان عدم معرفته ذلك يُعتَبَر نقصاً وليس فضيلة. لكنَّ غرينواي كان يرى أنَّ الثقافة أقرب إلى الجهل المُطبِق منها إلى المعرفة المتراكمة، وكان هو تجربتي الأولى مع أولئك الذين يعتبرون الحقيقة مسألة تافهة جداً. واليوم، يتسكعون في رواق كل قسم للغة الإنكليزية. بالنسبة إليه، الحقيقةُ ببساطة تسحق ومض العقل المُشرِق على العقل، والرأي على الرأي، حتى يغدو مسحوقاً يقتل الفرح. ورفضتُ هذا في ذلك الوقت للأسباب الخطأ، ولكن أيضاً للأسباب الصحيحة. وكونه قادراً على تحمُّل عواقب تجاهله لوضع العالم، في حين لم يستطع ذلك آخرون

أقلّ تميُّزاً، لا يستحقُ الذِكر. أو بالأحرى، يستحق الذِكر فقط بالنسبة إلى أشباهه، كنوع من جهل الذات يدعمُ ابتهاجه بالجهل. وعندما كان يتكلّم بذلك الأسلوب، كنتُ أرى الخادمة الأسبانية وكبير الخدم يكمنان بغموض خلف حديثه. و لم أعلم إلاّ لاحقاً أنَّ ذلك يُعرَف بمبدأ البنية التحتية والبنية الفوقية. لم أعرف أي شخص غيره جمع كل ذلك المقدار من المعرفة و لم يكن في حاجة إليها.

لم يكن غرينواى فقط مُحافظاً أزرق الدم، بل كان من المؤكّد تقريباً أنه يُجنّد متعاملين مع المخابرات البريطانية. وفي سنوات سابقة كانت الجامعة هي المنزل الأكاديمي لحلقة التجسس في كمبريدج، وكان طلاب السنة الثالثة لا يزالون يحضرون حفلات المقرّ الريفي الغامضة في سَسِكس قبل أنْ يختفوا داخل ما كان يُسمّى مع تشديد بوزارة الخارجية. أولئك الذين جمعوا بين الموهبة العقلية والقوة البدنيّة، وهو مزيج نادر بقدرٍ كافٍ، كانوا يميلون خاصة إلى التلاشي بهذه الطريقة. و لم يكن غرينواى متهوراً إلى درجة محاولة استخدام يساري مُشاكس مثلي، لكنه سدَّدَ طعنةً إليّ بالاتفاق مع صديقٍ لي تصادفَ أنْ ذَكَرَ له ذات يوم أنه لا يدري ماذا سيفعل بعد أنْ يتخرَّج. سألَ غرينواى "هل فكّرتَ في التجسُّس؟"، بنبرة صوتٍ ارتجالية لرجلٍ يسأل إنْ كان فكَّرَ في أنْ يُجرِّب نوعاً مختلفاً من زيوت الشعر. ولَمّا اعتقد صديقي أنَّ تلك نوبة فكاهة من جانب غرينواى، سأله ممازحاً إنْ كان عملاً خَطِراً. أجابَ غرينواى دون مزاح بأنه كذلك.

كانت لديهٌ غرفة مجاورة لاقتصاديّ ماركسيّ شهير، كنتُ أحبُ أنْ أتخيَّل أنه يُجنّد عناصر للـ KGB. لعلَّ الاثنين كانا يُقارنان سجلات يومهما على مائدة الغداء. ولاشك في أنَّ غرينواى كان في حاجة إلى هذا التفاخُر المتهوِّر ليُضفي لمسة مغامرة إلى ما كان خِلاف ذلك كياناً رصيناً بسرياليّة. بدا أنه يعيش حرفياً حسب كتاب الأصول – وفي هذه

الحالة، كان كتاباً رقيقاً يضمُّ أنظمة الجامعة يُعرَف بالكتاب الأبيض. وكانت لازمته الدائمة "هذا غير موجود في الكتاب الأبيض". وكان يمكن للمرء أنْ يتخيّله يُرتِّل هذه العبارة إذا حاولَ أحدٌ أنْ يهاجمه، أو إذا اقترحت عشيقة ممارسة جنسية جديدة غير مُحتشمة. فغير مذكور في الكتاب الأبيض أنْ تبصِق، أو تضرط، أو تيأس، أو تُغالي في الحماس، أو أنْ تُخطئ في التعرُّف إلى الكونياك، أو تشترك في نظرية هيغل في النفي أو أنْ تنسى أنْ تُخاطب أحد المشرفين بـ"سيدي". وقد كان خلال جزءٍ من سنوات تخرجنا المراقب الأكبر للجامعة، وهو دور يُغري المتطرفين في التقيُّد بالقانون. ولحسن الحظ، لم يحدث قط أني قابلته مصادفةً بعد الغسق وأنا بدون ردائي الرسمي، على الرغم من أني لو فعلتُ ذلك فأنا واثق من أنني كنتُ سأعامله بعدل وبكياسة خالصَين. لكنَّ صديقاً لي كان يقوم بالإشراف معه سألَ إنْ كان في الإمكان استشارته حول مقدرته كمراقب، وأقسمَ على أنَّ غرينواى أجبره على مغادرة الغرفة، وقرْعِ الباب والدخول من جديد. كان رجلاً كيّساً إلى أقصى مدى، ولكنْ كانت تنتج عن تركيبة تفكيره مذابح.

لكنني لم أتعلَّم. كانت ثقافتي مَضْيَعَةً للوقت. خرجتُ من كمبريدج وأنا أؤمن بالضبط، من الناحية السياسية، بما كنتُ أؤمن به وأنا في جمعية "الاشتراكيون الشبان" وفي سن السادسة عشرة، ولكن مع ازدياد مُحاصرة وِجهات نظري برؤية النظام من جهاتٍ أقرب. وحتى هذا اليوم، بعد مرور أربعين عاماً متنقلاً من مجموعة من أبراج الحلم إلى أخرى، دون أمل في إطلاق سراح مشروط أو إلغاء العقوبة لحسن السلوك، أجدني أعاملُ نوعاً معيَّناً من نماذج الطبقة وسط-العليا باليقظة العصبية لحارسِ حديقةِ حيوانٍ مسؤولٍ عن حيوانٍ سهلِ القياد ظاهرياً لكنه شرس في السر.

تجربتي المبكرة في منصبي كدون لم تكن أسعد التجارب. فقد

انتُخِبتُ وأنا في سن الحادية والعشرين كزميلٍ باحث في جامعة كمبريدج الضيِّقة الأفق، الضحلة الفِكر، المملوءة بأولاد الحرام الرثّين، وبخدَّام الزمن الأكاديمي وبُلُهاء الطبقة الراقية، التي بدا أنها زادت من مخزونها بسبب زيادة عدد مرات تناول الطعام على طاولة الأساتذة وليس بسبب جودة تعليم القراءة والكتابة. وعلى هذا الأساس واجه زملائي ورطةً عندما طالبتُ بترقيةِ زملائي كلهم، إذ على الرغم من أنني كنتُ قد نشرتُ كتاباً واكتسبتُ بعض الشهرة كمدرِّس، إلاّ أنني فضَّلتُ في العموم أنْ أمضغ قطعاً من الفحم ذي العُقَد وأشرب كؤوساً من الطين القذر في غرفتي على أنْ أقضي أمسية بين رجال دين شبه فاشستيين، خَرِفين، على مائدة طعام هيئة الإدارة وهم يتحدثون عن وثيقة غلادستون حول حكم أيرلندا نفسها بنفسها وكأنَّما لا يزال من الممكن تغيير ما جاء فيها بقليل من البراعة، ويناقشون استراتيجيات متنوعة من أجل إعادة استعمار الهند. وفي إحدى تلك الأمسيات حين تسلَّحت بالعزيمة لكي أحتمل تلك المراسم الموحشة، ارتعبتُ إذ اكتشفتُ أنَّ رئيس المائدة العالية الخَرِف قليلاً، الذي انتحرَ لاحقاً لمجرَّد إحساسه بالضجر، فشلَ تماماً في التعرُّف إليّ واعتقدَ خطأً أنني صبي المطبخ الذي وصلَ ليُبلغهم عن إجراء تعديلٍ في اللحظة الأخيرة على لائحة الطعام.

كان هناك تعقيدٌ إضافيّ. ففي تفجُّر غير مُتعمَّد من الغيريّة، سوف أندم عليها لاحقاً،أصبحتُ سائقاً لصالح جمعية ميلز أون ويلز، وكنتُ أُمضي صباحَ يوم في الأسبوع أنقلُ معي عاملاً مُساعداً وأوزِّع كمية من وجبات الغذاء الجاهزة الكريهة الرائحة في أرجاء المدينة. وهذا جعلَ مني امرأةً شَرَفيّة،.بما أنَّ العملية كانت تديرها جمعية الخدمة التطوعية للنساء. وكان آخر اتّصالٍ لي بتلك الجماعة وأنا طفل، حين انتقين أفراد عائلتي ليتلقّوا حزمة الطعام الأميركي بُعيد انتهاء الحرب. ويبدو بوضوح أننا كنا مؤهلين لنشكِّل جزءاً من الفقراء المستحقّين،

مع أنني منذ ذلك الحين، بما أنَّ الأمر يتعلَّق بالأميركيين، عضضتُ اليد التي أطعمتني مرّاتٍ عِدّة . إلاّ أنني تزوجتُ واحدة منهن وهذا ولاشك بمثابة الامتنان الكافي.

رفيقتي المتطوعة في ميلز أون ويلز، وهي زوجة بروفسور من نمطِ الليدي باونتيفول[٣٧]، استحوذت عليَّ جنسياً في لقائنا الأولِ قبل أنْ أقرّر بحِكمة أنني من شِدّة القبح بحيث يمكن لعين أنْ ترفَّ لمرآي. لم يكن لدى أي منا الكثير من حسّ الاتّجاه، وأحياناً كنا نصل بعد ذلك بثلاث ساعات أو نحوها إلى الشقة الحقيرة التي تخصّ عجوز متقاعد نهِم، متوقعَين بخوف أنْ نعثر على بقايا هيكله العظمي على السجادة نتيجة بطئنا. كان الأمر في الغالب مسألة وجبات عشاء متأخرة أكثر منها وجبات غداء منقولة على دواليب، ونحن نشق طريقنا المتعرِّجة الوعرة خلال عقارات المنازل المتاهية بحثاً عن أهداف إحساننا المراوغة. وكان بعض زبائننا كريهي الرائحة كالوجبات، وكانت رفيقتي تضع منديلاً مُضمّخاً بالعطر على أنفها وهي تنتقل جيئة وذهاباً حاملةً لحمهم المفروم، وجَزَرهم المطبوخ وحلوى الأرز، وتحاولُ ألاّ تتقيّأ.

لما كنتُ قد دُعيتُ لأكتب عمود الضيوف لمجلة غرانتا، مجلة الجامعة الأدبية، قرَّرتُ أن أكتب صورة وصفية مقارنة وساخرة بين النوعية الرديئة لوجبات ويلز أون ويلز والرفاهية الصارخة للمائدة العالية. وكانت جامعتي تنفقُ في كل عام على إطعام وجهها أكثر مما تفعل بكثير على مكتبتها. لكنَّ المقالة أعطت نتيجة عكسية بصورة كارثيّة. فعلى الرغم من أني شدَّدتُ على أنَّ نقدي لا يَطال بأي حال من

(٣٧) السيدة باونتيفول: شخصية روائية في مسرحية "الخدع الجميلة" للكاتب جورج فاركار (١٦٧٨ – ١٧٠٧) وترمز إلى السيدة المحسنة المتفاخرة.

الأحوال عمّال ميلز أون ويلز المثيرين للإعجاب أنفسهم، فإنَّ المنظمة كلها أبدت امتعاضها وطردتني بوصفي طابوراً خامساً متغطرساً اندسَّ بين صفوفهم لكي يُنزِل لعناته على حلوى الأرز التي صنعوها. ونُزِعَ عني القِناع وكأنني كيم فيلبي[٣٨] ميلز أون ويلز كمبريدج، وأدّعى عدد من زبائني العجائز بحكمة الإدراك المتأخِّر أنهم أحسّوا فساد أخلاقي، عاضّين اليد التي أطعمتهم بالقليل من الأسنان التي بقيت في رؤوسهم. وانهال سيلٌ من الرسائل من مواطنين غاضبين على صحيفة أخبار كمبريدج المسائية، يتساءلون عن الحق الذي سمح لهذا الدون المنفوش الريش، المنقوع بالشيري ليسخر من الجَزَر المطبوخ الذي تأكله العامة. في تلك الأثناء، أشارت الجامعة ببرود إلى اعتدائي على عاداتهم في الأكل في الوقت الذي كانوا يتألمون وهم يُقررون إنْ كانوا سيعيدون انتخابي أم لا. ووجدتُ نفسي واقعاً بين فخّي المدينة والرداء الرسمي، واللحم المفروم وطبق البط على طريقة Magret a la d'Artagnan، وخائناً بالنسبة إلى المعسكَرَين. وفي النهاية أُعيدَ انتخابي، ولكن فقط لأنَّ، أخشى، حتى العجائز المتهالكين الذين يرغبون في شنق الشاب غلادستون بتهمة الخيانة كانوا سيجدون من الصعب الاعتراف صراحةً بأنهم يُقدّرون استهلاك الرجل للجوز أكثر من مساهمته في العِلم.

كانت حادثة مجلة غرانتا مِثالاً واحداً على الطريقة التي، على الرغم من حيائي وافتقاري القاتل إلى الثقة في النفس، كنتء أتورّط فيه على الدوام في نوع المآزق التي يتوقّع المرء أن تقع لشخصيةٍ صخّابةٍ أكثر، وأكثر لفتاً للانتباه. و لم أعد أفهم منطق ما جرى أكثر من فهمي

(٣٨) كيم فيلبي، اسمه الأصلي هارولد إدريان رسل فيلبي، الشهير بكيم (١٩١٢ - ١٩٨٨): جاسوس بريطاني مزدوج خان بلاده لصالح الاتحاد السوفييتي

لطريقة عمل البنكرياس. لعلّه شيء متأصِّل فيَّ، بما أنه كان لدي قريب، خنوع، يميل إلى الورع، يعاني من الأعراض نفسها. وذات مرة أفاقَ بعد جلسة شرب هائلة ليجد نفسه متمدداً في مقصورة خالية في قطار مهجور بدا أنه متوقِّف على خط حديدي جانبي وسط التيه. وكان المدى مغطى كله وحتى الأفق بثلوج متراكمة، ولم يرَ أي أثر لحياة. ترجَّلَ من القطار وبدأ يخوض بخطى متعثِّرة في الثلوج، فلاحظ على البُعد وجود نارٍ صغيرة أو كانونٍ مُشتعل، وبعض الأشكال الغامضة تتجمَّع حولها. ومع اقترابه من الكانون استطاعَ أنْ يرى أنَّ الأشكال هي في الغالب لنسوة عجائز يتلفّعنَ بشالات سوداء، كنَّ يراقبن اقترابه بجمود. اقتربَ متعثراً، وهو يشعر بأنه أحمقُ قليلاً، وسأل إحدى النسوة عن اسم المكان، فأجابت إحداهن "وارسو". آخر ذِكرى كان يحملها هي وجوده في ليفربول. أيُعقل أنْ يكون قد حُمِلَ، دون وعي منه، على متن سفينة؟ ثم أدركَ أنَّ المرأة العجوز قد أجابت عن سؤال طُرِحَ بالإنكليزية بالإنكليزية، وأنها في الواقع قالت "والسول". إنَّ لَكْنة أهل ميدلند هي التي شوَّشَتْ ذهنها لحظة. ولكن حتى هذا اليوم ليس لديه أدنى فكرة كيف انتقلَ من ليفربول إلى والسول.

* * *

لطالما مارسَ دونات أوكسبريدج، حتى غير الخنثويين منهم، الطريقتين. إنهم فخورون باستقامتهم غير الأرضية، ومع ذلك هم أيضاً يثقِّفون حُكام الغد، وبهذا يتمتّعون ببعض السلطة البديلة وفي الوقت نفسه يحتفظون بنظافة أيديهم. كان الدون التقليدي حيواناً برمائياً، يتنقَّل بين حفل ماى فير والبرج العاجي كراهب ناكثٍ لتعهداته. كانوا يتلذَّذون بالشهرة وبالحياة الطيّبة، وفي الوقت نفسه يتأمّلون في دراساتهم حول تفاهة الرغبات الإنسانية والزوال الأبدي للأشياء. وحدهم المتوحدون كان يمكن للدنيويّ أن يُحلِّق بهم عالياً

بشكلٍ مثير للشفقة. وحتى اليوم، هم مستعدون لأنْ يرموا بمعاييرهم الثقافيةِ لتذروها الرياح حين يتعلَّق الأمر بتعيين أحد العاملين ذوي الذكاء المعتدل في إحدى شبكات الاتصال الاجتماعية بحضور إحدى وسائل الإعلام. لكنَّ الدونات أيضاً قيّمون على الحَسَنات الموهوبة بسخاء والمعروفة باسم الكليات، وهكذا يحصلون على الكثير من السلطة الخاصة بهم. وبعضهم يفضلون أكثر بكثير أنْ يبقوا في الذاكرة كأمين صندوق شيَّدَ مبنى جديداً على أنْ يكونوا كُتّاباً لدراسة عن بيزنطة تكسّر الأرض. والقيام بأحدهما قد يسمح للمرء دائماً بأنْ يعطي عذراً مناسباً لعدم القيام بالآخر.

هذه الشخصيات الأسطورية، المتوهجة، أضحتْ اليوم نادرة الوجود، تُلمَح أحياناً في إحدى أنحاء أوكسفورد أو يُعثَرُ عليهم بعد طول دفن تحت إحدى أرائك غرفة جلوس أحد المتقدّمين. لقد كانوا عصبةً حقيرة جديرة بالازدراء، من الوقحين، والنفّاجين، والحاقدين، والمتعجرفين، والمستبدّين والأنانيين بوحشية. وهم حتماً لم يكونوا يروِّجون للثقافة. وبما أنهم كانوا متحرّرين كمغنيات الأوبرا من أغلال الواقع المملة، كان يتوفَّر لديهم الوقت لكي يُعيقوا ترقية زملائهم، ويزودوا ببعض سِمات الرئاسة الفاتنة للجْنة كامل الكليات، أو حتى يذمّوا مجلّداً صغيراً من الشعر اللاتيني من عهد النهضة. كانت "ممل" هي كلمتهم المُشفَّرة للطبقات الدنيا، و "مُسلٍ" كان أعلى تعبير عن المديح يمكن أنْ يمنحوه، و كلمة "ولاء" كانت تَعني الكذب والمراوغة لصالح أقرانكَ في حين أنكَ توقع هزيمةً نكراء بأعدائك. كانوا يتباهون بمركَّب أوكسبريدج الواضح من الحذلقة والحماقة، والصِفة الثانية تستمد بعض الارتياح الخفيف من الأولى. وكلا الرذيلتان متّفقتان في مقتهما للنفعيّة؛ لهما وجهان رقيقان، صافيان، مُدلّلان، كرجلِ دينٍ ريفي يحاولُ أنْ يتصرَّف بكل حيوية أوسكار وايلد الشريرة.

إنَّ عبارة واحدة تكفي للصفح عن نقاط الضعف هذه: غرابة الأطوار. إذا بصق دونٌ في طعامكَ أو سمحَ لببغائه الأثير لديه أنْ يمزِّق عظام وجنتك، فهو ببساطة مفرط الحساسية بشكلٍ مُحبَّب. والعديد من الأكاديميات القديمة الطراز كانت تفضِّل أنْ يُقَال عنها مُبهرجة بدل أنْ يُقال صادقة. كان هدفها أنْ تكون رائعة وليس جيدة. وغرابة الأطوار، وهي عبارة مُبهرجة تعبِّر عن أنانية شنيعة، كانت بالنسبة إلى أوكسبريدج التقليدية تعادل عبارة الحالة السويّة بالنسبة إلى رقباء الشرطة. لقد عارضَ جون سبارو المثلي جنسياً إصلاح قانون المثليّة الجنسية على أساس أنّه يُفقِدُ كون المرء مثليّاً من رونقه. وكان هناك عجوز كاره للنساء يستمدُّ frisson (رعشة جنسية) حقيقية من معارضة الإصلاح الحكيم، هذا الحقود، التافه التفكير بامتياز، القيِّم على الأرواح كلها (أو الثقوب كلها، كما باتتِ الكلّية تُعرَف بعد أنْ رقصَ طرباً حين عثر على فِقرة عن اللواط في مؤلفات د.هـ لورانس) لم يكن لديه أي اهتمام بالأفكار، و لم يسجل أي إنجازٍ أكاديمي أو غيره مما يستحق الذِكر، وكان يرى أنَّ من المُسلّي المُزاح في موضوع قتل الأطفال المولودين حديثاً.

طفل مزعج آخر واسع المعرفة كان المؤرّخ في كمبريدج فريدريك سيمبسون، الذي أذكُرُه يمشي مترنّحاً في مساء كل يوم قاطعاً الفناء الكبير لشرب كأس شيري قبل تناول العشاء مع مدير الكلّية على المائدة العالية. وقد قيل إنه شرير ويُسبب المهانة لهيئة تدريس الكلية، وإسهامه في الحرب العالمية الثانية توقَّفَ على جمع العسل، مثل الدب، في الريف، وقد أكله لاحقاً. وليس واضحاً كيف حصل وأركعَ هذا الهتلر على ركبتَيه. و لم يكن لدى نظيره في كمبريدج جورج "دادي" رايلاندز، وهو عضو في قسم اللغة الإنكليزية، معرفة بتحليل الأعمال الأدبية إلاّ بقدر ما لدى زرافة، ولكنه كان يستطيع أنْ يقرأ المادة بصوتٍ عالٍ وجميل جداً، وقد تلقّى جوائز شرفيّة عديدة على ذلك.

وقد قيل إنَّ ممارسة الجنس مع هذا المتهوّر العاطفي أشبه بالاحتكاك المباشر في لعبة الرغبي. وكالكثير من دونات زمنه، كان رايلاند يتحرَّك في beau monde (عالم جميل) مُخادِع لكسالى الطبقة الراقية، متقلّب في الصداقة وفي مزاج متفجّر، لكنَّ أصدقاءه يضعونه في مرتبة "الأكثر حِكمة، وعدلاً، والأفضل".

وكان هناك أيضاً رئيس كلية المجدلية، في أوكسفورد، الذي دعا طالباً مُستجداً، وأميراً هندياً، لشرب كأس شيري، وقد قال له الأمير الهندي إنَّ اسمه يعني بالإنكليزية "ابن الله". أجاب المدير "آه، نعم، لدينا أبناء الكثير جداً من المشاهير في الكلية". وكان له زميل في أوكسفورد، وزميل في بريسنوز، مُعلّم خرّيج منذ عدد من السنين وقرَّرَ أخيراً أنْ يتخلّى عن الأمر بوصفِهِ عملاً سيئاً. لكنه لم يكن يرغب في التخلّي عن عضويته في هيئة تدريس الجامعة، فطلبَ من الكلية أنْ توجِد له منصِباً خاصاً، لكي يتمكن من نيل معاش الكلية دون أنْ يُعاني مهانة ممارسة العمل الفعلية. جمعَ أعضاء الكلّية مواردهم العقلية الهائلة وفي النهاية ظهر مع منصب رئيس غرفة كبار موظفي الجامعة لتناول حلوى بعد الطعام. والزميل المذكور أدّى واجباته على مدى سنوات عديدة بضميرٍ حيّ يُثير الإعجاب، بل وأقامَ نظاماً مُعقّداً من الغرامات لزملاء الإدارة الذين يتناولون حلوى بعد الطعام بالترتيب الخطأ.

أحد الذين درَّسوا لي في كمبريدج، أستاذٌ في مدرسة حكومية متقاعد يرتديّ بزّة من الجوخ وله شارب حيوان فظ، كان أحياناً يُلقي الشعر بصوتٍ عالٍ على طريقة رايلاندز، بما أنه لم يكن لديه شيء بارع ليعلّق به عليه. ولما لم يكن لديه ما يقوله عنه، اكتفى بإلقاء الكلام نيابة عنه. وفي نهاية نوبة من الإلقاء المطوّل، الذي يصمُّ الآذان، كان يسترخي جالساً، ويقبض على بطنه ويُعلِنْ برضا: "إنَّ المسألة كلها

تتعلّق بعضلات البطن، كما تعلمون". كانت دراسة الأدب الإنكليزي تتعلّق إلى حدٍ بعيد بعضلات البطن. كان جلياً أنَّ أحدهم ارتكبَ خطأ فأخبر هذا العجوز الغريب الأطوار والمسالم تماماً أنه وغد، وذلك لكي ينقل إلينا عنه مُتهللاً بعض التعليق المنطوي على قدرٍ معتدل من المخاطرة كان قد وضعَه عن شخص آخر، ربما قبل مضيّ ثلاثين عاماً. ثم يُقحِم لسانه حرفياً داخل خدّه ويرفع حاجبيه، ويدعونا دون كلام إلى أنْ ننفجر صارخين "أيها العجوز الخبيث!" أو "يا إلهي، كم أنت إنسان غريب!".

إنَّ أوكسبريدج مكان مولِّد عظيم للمحافظين الشبان. ذلك أنَّ مقابل كل دون هناك دون صغير، محدودب الظهر قبل الأوان، في الثانية والعشرين من العمر، يحمل غليوناً، ويرتدي صدرية قرمزية اللون، ويحملُ جمجمةً ضخمة وقلباً ضعيفاً، ويتّخذ سِمة الحذلقة كأنها ربطة عنق عسكرية. أحد أصحاب هذه الشخصية المتداعية قبل الأوان صديقٌ خرّيج اسمه غاليفر، الذي لولا حظّه الحسن الذي جعله أصلعَ الرأس قبل الأوان لانتزعَ كمية كبيرة من شَعره إلى أنْ غدا أقربَ شَبَهاً بكِبار الدونات الذين عليه أنْ يخدمهم. وأنا حتماً لم أكُنْ من ضمنهم. كان أحد القِلّة من الأفلاطونيين الذين قابلتهم، وآمنتُ بمبدأ أفلاطون في الأشكال-كما يؤمن الآخرون بالتمثيل النسبي أو بالآثار النافعة لعصير الجزر. كان يصل لإعطاء الدروس الخصوصية في فصل الصيف الحار مُرتدياً بزّة من ثلاث قطع من الجوخ الثقيل كرجلٍ مُثبَّتٍ إلى تابوته. كان يستطيع بسهولة أنْ يُمشِّط شعره بالنظر إلى حذائه، ويضع ياقة قميص حادة إلى درجة إسالة الدم. وكان أيضاً صديقي المتخرّج الوحيد الذي يرتدي العباءة الرسمية، إذا استثنينا هيبّياً أشقر الشعر فاتناً، هو الآن منتج في محطة تلفزيون بي بي سي، يرتدي عباءة لكنه أفسد التأثير بعدم انتعال حذاء أو ارتداء جورب معه.

الدقائق العشر الأولى من درس غاليفر الخاص تنقضي في طقس خلع عباءته. ومهما كانت حالة الطقس، يُعلّق بحذرٍ شديد مظلةً كبيرة تُطوى على مؤخر مقعده، قبل أنْ يُتابع بأناقة بخلع قفاز من جلد الجدي الصقيل، ووضعه بدقة متناهية على الطاولة بيننا، وبعد ذلك يُبرِز دفترَ مسوّدةٍ مغلّف بالجلد، يوحي بالثراء، وقلمَ حبرٍ برّاقاً. وفي إحدى المرات فكّرتُ في تسميم كأس الشيري الذي قدّمته إليه، ومن ثم رمي جثته إلى عمق وهد منحدر وكسر قلمه الحبر. وكان خطّه في الكتابة أشبه بفأر مُصاب بالإمساك. وكان ذلك النشاط التمهيدي كله مصحوباً بتيارٍ خفيّ من الابتسامات الكتوم وحركات الاستخفاف بالذات تمرُّ بيننا، بينما كنت أومئ له إلى كرسيه، وأهزُّ برأسي برفق باتجاه قفازه، وبشكلٍ عام كان يتصرَّف كحلاّق بحاجة يائسة تدعو إلى الرثاء إلى زبون. كان تأثيره عليّ شالاً بصورة غريبة، وسمعتُ نبرة أجشة، خانقة، تتسلل إلى صوتي وأنا أدعوه إلى أنْ يُزيح عن كاهله ثمار عمله في أسبوع كامل ويحمّلني إياه. وفي بعض الأحيان كنتُ أفضّل أكثر بكثير أنْ يُفرِغ فرس بحر محتوى أمعائه عليّ، لكنَّ الواجبَ يأتي أولاً.

عندئذٍ يتناول غاليفر مقالته من حقيبته بإيماءة هادئة واحدة، ويُعلن عن عنوانها بنغمة صوت بطيئة. وقد يفتح فمه ويقول ما يشبه "إنَّ بعض نقاط التنافر بين روايتين من تأليف الآنسة أوستن" أو "إنَّ بعض استخدامات كلمة "لطف" في قصة قصيرة للسيد فوستر". كان دائماً مهذَّباً حتى الوسوسة في تلميحاته إلى المؤلفين، وبدا أنَّ من الوقاحة الاستثنائية ألاّ يُشير إلى السيد سوفوكليس. ثم يقرأ بصوتٍ عالٍ أفكاره حول تلك المواضيع الطليعية المتهورة بنغمة ترتيل كهنوتي، وأحياناً كان يلتقط قلمه الحبر ليُجري بعض التصحيحات المنمنمة على نصّه. وكان يقرأ مقالاته بطريقة مجرَّدة، آليّة، وكأنه لم يرَها قبل ذلك، أو

يترجمها من السنسكريتية وهو يُتابع. كانت أعمالاً أنيقة، خاوية، ومن المستحيل نقدها كطاسٍ يحوي سمكاً ذهبياً.

ولكن في مناسبةٍ واحدة ألقى غاليفر كلاماً غريباً، غير مفهوم بأي حال. فعن سؤالٍ حول عنوان مقالته، أجاب "إنه بعض جوانب المجاز الملوَّن في "البحّار القديم" بقلم وليم ووردسوورث". كانت تلك غلطة لا تقلُّ فداحةً عمّا لو أنه خلعَ سرواله بدل أنْ يخلع قفّازه، وكان ينبغي طبعاً أنْ أتدخَّل على الفور وأصحّح الخطأ. ولكن كما في بعض التجارب الغريبة خارج الجسد، رأيتُ نفسي جالساً مشلولاً وعاجزاً على أريكتي حالما بدأ يمخضُ جُمَله المتناسقة برقّة. وأرسلَ فقرتين كاملتين، وضاعت لحظة التدخُّل إلى الأبد. وكنتُ قد فقدتُ السيطرة على أعصابي بجبن، و لم يعُد أمامي ما أفكِّرُ فيه إلاّ رؤيا كيف سأفضي إليه، بعد نحو عشر دقائق، بالنبأ المريع الذي هو أنَّ الذي ألَّف قصيدة "البحّار القديم"، هو كولريدج.

كانت المقالة في الواقع أفضل من المعتاد؛ أظهَرَتْ بعض صِلات الوصل المقبولة بين "البحّار القديم" وباقي شِعر ووردسوورث، وللحظة واحدة مجنونة تساءلتُ ما إذا كان غاليفر قد وقعَ على كنز القرن الأدبي. ولكنَّ لحظة الحقيقة كانت قد حانت، وتركته يعلم وأنا في أفضل وضعية للاحتضار، ودون أنْ أندفع في التصديق على وِجهة النظر عقائدياً، عن الإجماع العِلمي العام بشأن أسلوب تأليف القصيدة وكاتبها. وفي العموم استُقبِلَ ذلك الكشف استقبالاً حَسَناً. وانبجس دفقٌ بطيء وانتشر من ياقته الشبيهة بحد الموسى إلى خط شعره المتراجع، ولكن بدل أنْ يندفع إلى الخارج بحثاً عن هاوية مناسبة ليرمي بنفسه إلى قعرها رسمَ ابتسامةً، ابتسامة كئيبة. وفي إحدى لقاءاتنا الأخيرة، بُعيدَ تخرُّجه، سألته عن نوع المهنة التي سيختارها، أجابَ بأنه ينوي في النهاية أنْ يصبح كاهناً أنغليكانياً. لكنه أضافَ

أنه شعر بحاجة إلى اكتساب بعض الخِبرة في العا لم قبل أنْ يفعل ذلك، ولهذا كان يفتش عن منصِب في مكتبة بودليان.

على الرغم مما يسبّبه الدونات جميعاً من رعب، إلا أنهم كانوا عُصبة ذكية بصورة فظيعة. فالسير موريس باورا، الذي قال عنه جون سبارو معلّقاً إنَّ نثره غير قابل للقراءة وإنَّ شِعره غير قابل للنشر، لقَّبَ أعضاء أوكسبريدج اليساريين والمثليّين في عصره بالهومنترن Homintern، ولاحظَ في العالمة الفرنسية ذات الملابس المبهرجة إينيد ستاركي أنها كانت قد ظهرت في إحدى حفلاته "بكامل ألوان رامبو". وتعوَّدَ باورا العجوز أنْ يسأل "هل سمعتَ عن ميتاتٍ مُثيرة للاهتمام مؤخراً؟". وعلَّقَ حين كان يُعلِن عن خطبته امرأةً تميل إلى السذاجة، "البلهاء لا خَيَار لهم". وعلى الرغم من عادة باورا في الإرهاب بالصياح والعبوس، وكونه موالياً بطريقة عجيبة، وتوقه النهِم إلى نيل التشريف العام، إلاّ أنه ليبرالي أصيل من المدرسة القديمة، وبطل العدالة والحرية.

لقد كان دون أدنى شك بطلاً بالنسبة إليّ. وقبل سنين، أجرى معي مقابلة من أجل نيل مرتبة الزمالة في كلّيته، إلى جانب اللورد ديفيد سيسيل . وكان الرجلان على شفا الاستقالة، وكلاهما كانا أصمّين. وبدا أنهما لا يسمعانني ولا يسمع أحدهما الآخر، ولكن لم يبدُ أنَّ عيبهما ذاك يسبب لهما أي خجل وأخذا يثرثران بمرح. إنَّ أغلب المؤلفين الذين أتيتُ على ذِكرهم في سياق المقابلة بدا أنهم كانوا أصدقاء مُقرّبيْن منهما، أو في حالة باورا كانوا أحياناً شركاء في اللواط، بحيث أنَّ عبارات تعجّبهما كانت تتألّف إلى حدٍ بعيد من صرخات مثل "آه، يا للعزيز العجوز إيفلين!"، "مسكينة العزيزة فرجينيا!"، "هذا تصرُّف نموذجي من ويستان!" وما شابه ذلك. وحين أتيتُ على ذِكر تشوسر، كدتُ أتوقّع أنْ يهتفا معاً "يا للعجوز الطيب جوفري!".

بعد قليل تسرَّبَ الملل إلى باورا من الحوار وسألني إنْ كنتُ قد رأيتُ شجرة الزان النحاسية خاصّته. لم أكنْ متأكّداً مما إذا كانت تلك شِفرة خاصة بالمثليّين جنسياً، لكنه هبَّ واقفاً عل قدميه، تاركاً سيسيل يغفو بهدوء على أريكته، وخرجَ بي إلى حديقة الكلّية التي تضم أكبر شجرة زان نحاسية في إنكلترا. وقفنا بصمت كتفاً إلى كتف أمام الشجرة بينما الغسق يتجمَّع، ولابد أنني علَّقتُ بكلام شاعري أو بارع على الشجرة، بما أني حصلتُ على العمل. وأعتقد أنَّ سيسيل شعرَ بميلٍ إليّ، كما يشعر صاحب الأرض نحو المُنتهك لأرضه بتعاطفٍ سرّي. وتشابكت يدا بروليتاري متجهّم الوجه ونبيلٍ خالٍ من الهم من فوق رؤوس الطبقات الوسطى الملتزمة بالأعراف. وفزتُ بمنصب الزمالة والسبب يعود إلى حدٍ بعيد إلى رومانسيّة أحد أعضاء الطبقات الراقية والاهتمام الجنسي لآخر.

والحياة الأكاديمية في الولايات المتحدة، حيث الاهتمام الجنسي شيء يمكنك أنْ تتلقّى دورات دراسية فيه، مسألة مختلفة. وذات مرة دعاني عضو في جامعة مورمون في ولاية يوتاه لكي أعطيهم دروساً في الأيديولوجيا. وتدريس المورمونيين الأيديولوجيا يشبه عملية نقل الفحم إلى نيوكاسل، ويشبه إرشاد فريق سبايس غيلرز في العلاقات العامة أو تشجيع مايك تايسون على إظهار قدرٍ من العدوانية. هؤلاء، قبل أي شيء، هم الذين يؤمنون بأنّهم حين يموتون سوف يتحكّمُ كلّ منهم، أو على الأقلّ أفراد عائلاتهم، بعالمه الخاص المصنوع بطلبٍ منه كما يفعل الله أو بيل غيت، وزوجاتهم إلى جوارهم كنوعٍ من السيدة الله. ديانتهم في مُعظمها هي ردَّة فعلٍ فاضحةٍ لحقيقةِ أنَّ يسوعَ فاسدُ الذوقِ لأنه لم يولد في طبقةٍ وسطى بيضاء في أميركا، ولكنه لسببٍ لا يُعرَف كنهه اختارَ بدل ذلك أنْ ينضمَّ إلى حشود اليهود الوضيعين، الذين لا يتّبعون العادات الصحيّة أيام لم تكن فنادق الأربع نجوم قد اختُرِعَتْ بعد.

في وقتٍ متأخّر من ذلك اليوم سُمِحَ للأميركيين السود بالانخراط في سلك الكهنوت، وأُخضِعَ المثليون جنسياً إلى أشكالٍ تثير الجَدَل من العلاج، ومواقفهم من النساء لا تشبه كثيراً مواقف أندريا دووركن[٣٩]. واليوم، يقدّمهم المتحدثون باسمهم الأكثر براعة، مثل نقابيو ألستر، على أنهم أقلّية ما بعد الحداثة المُضحّى بهم. وكنقابيي ألستر، الذين انتقوا لغة أقسام الدراسات الثقافية، كانت لديهم الجرأة في تلك الأيام لتعريف بريطانيّتهم بأنها التزامٌ بمجتمعٍ متعدد الأعراق، وهكذا لاشك في أنَّ حفنة من المورمون تتكلّم الآن بطلاقة عن "تعدُّد الزوجات" أو عن "عمليات دمج الأجناس المتعددة المرنة" في حين أنهم يعنون بذلك تعدُّد الزوجات. و لم يكن يُسمَح للذكور من أعضاء تلك الجامعة، بمن فيهم هيئة التدريس، بتنمية لحي إلاّ إذا كانوا مُصابين بمرضٍ مُثير للتقزُّز في الفكّ، وحتى حينئذٍ كان عليهم أن يحملوا "بطاقة الإذن بتربية اللحية" لتشهد على الحالة. وبدا أنه لم تكن لديهم إلاّ فكرة مُبهمة عني، وحتى لو كانت لديهم فكرة أكثر وضوحاً لما دعوني ربما منذ البداية. ولكن بما أنَّ ضيفهم السابق كان اللورد داكر (هيو تريفور روبر)، فلعلَّهم لم يتمكّنوا من التمييز بين إنكليزي وآخر.

لكنّهم برهنوا على أنهم عصبة لطيفة بما يكفي، وبعد كل محاضرة من محاضراتي يحتشدون بلهفة لينضموا إليّ على مائدة الغداء. وقد علِمتُ لاحقاً أنَّ ذلك حدث لأنهم تلقوا نقوداً لكي يفعلوا. وباعتراف الجميع كان تصرّفاً أخرق أنْ أضطر إلى الانتقال بصورةٍ أو بأخرى إلى وسط الصحراء كلما رغبتُ في شرب كوب من القهوة، وتدخين السجائر،

---

(٣٩) أندريا ريتا دووركن (١٩٤٦- ٢٠٠٥): كاتبة ناشطة راديكالية ومُدافعة عن حقوق المرأة، أميركية يهودية. معروفة خاصة بانتقادها للإباحية الجنسية التي ترى أنها السبب في تفشّي الاغتصاب وممارسة العنف ضد المرأة . من كتاباتها الجريئة كتاب "الإباحية: الرجال يمتلكون النساء".

التي كنتُ مدمناً عليها حينئذٍ، كانت مسألة أكثر إزعاجاً. وبما أنه لم يكن هناك مكان في حَرَم الجامعة أستطيع أنْ أدخِّنَ فيه، وخاصة في الهواء الطلق، جلستُ القرفصاء كتلميذ مُذنب في المرحاض، وفي إحدى تلك المناسبات سمعتُ اثنين من المورمون يلِجان الغرفة وبدءا يشمّان الهواء. قال أحدهما للآخر، وهو على مسافة ست بوصات من كتفي، "هيه، هال، يبدو أنَّ أحدهم كان يدخِّن هنا!" لكنه قالها بنبرة صوت أقرب إلى المرح، والمُزاح، و لم يُحدث عند رفيقه أكثر من ضحك مكبوت مؤدَّب، بما أنه طبعاً لم يتصوَّر حقاً أنَّ أحدهم قد فعل ذلك، بل في الواقع في تلك اللحظة بالذات. لقد كانت فكرة إشعال سيجارة في المكان لا تُصدَّق كفكرة مشاهدة رئيس الجامعة يثبُ بخفّة في أرجاء الحَرَم وهو يضع ثدييّ امرأة مزيَّفين ويرتدي جورباً من شَبَك الصيد.

بعد قليل، بدأتُ أشعرُ كأني شخصية في رواية من الخيال العلمي حيث يبدو الناس من حولك عاديين تماماً إلى أنْ تتكشَّف لكَ فجأةً، من كلمة أو إيماءة شاردة، حقيقة أنّهم غرباء عنك. ولما قابلت مصادفةً أحدهم يبدو إنسانياً بقدرٍ معتدل، ينتهي به الأمر إلى أنْ يقول شيئاً مثل "أتعلمْ، أعتقدُ أنَّ رواية ميدلمارتش تشبه نصاً من تعاليم المورمون"، يُرجِّع صداه في ذهني ممزوجاً بنغمات أفلام الرعب المتنافرة. وشبانٌ دمثون كانوا يتحدثون معي بعقلانية عن الاشتراكية أو شكسبير ويتركون أحياناً خلفهم على كراسيهم نسخة من كتاب المورمون، مع علامة وُضِعَتْ عند قطعة ذات أسلوب مُدّعٍ بصورة استثنائية وملاحظة خجول تقول: "تيري، أنا أتحدّاك". لم يكن لدي أكثر من صديقَين لأستشيرهما حول تلك الألغاز، أحدهما مخلوق نظري لا يزال يحتفظ بشكلٍ موسوس بالمظهر الخارجي لشخص غريب بما أنَّ والديه كانا شخصيتين هامتين في الكنيسة، والآخر امرأة شابة تزوجتها منذ ذلك الحين. وعندما سألتُ عن معنى تلك الملاحظة، أخبراني أنها

تعني أنه إذا لم أتوصَّل إلى معنى الفقرة على الفور، فمصيري جهنم. وكانت جهنم ستكون فترة راحة مقبولة من بروفو، يوتاه.

بما أنَّ نقطة ضعفي هي الأماكن المظلمة الخارجية، لم يُسمح لي بدخول الأجزاء الأشد قداسة من معبد مدينة سولت ليك؛ ولكن سُمحَ لي بولوج التخوم الخارجية المُحرَّمة، حيث دُعيتُ لمشاهدة فيلم بعنوان "معنى الحياة". ولطالما اعتقدتُ أنه فيلم لمونتي بايثون، ولكنَّ اتّضَحَ أنه مُختَصَر وجيز بصورة سورياليّة لمعنى الحياة، معنى انزلقَ الآن من عقلي كليّاً، ونقلته مجموعة من المورمون تكشِّرُ بشكل مجنون في وجه آلة تصوير مع عائلات من الضخامة بحيث جعلت الأيرلنديين يبدون مُجدبين تماماً. وهمس صديقان مخلصان كانا جالسين على كلا جانبيَّ في دار السينما بمعلومات صغيرة مساعدة في أذنيّ: هذه المرأة التي تضعُ طفلاً على رُكبتيها، تحكي له كيف أنَّ في استطاعة الروح القُدُس أنْ يزيد حسابك المصرفي، وهي مُدمنة كحول عندها ميل إلى الانتحار، بينما كان الرجل يعبث بالكتاب المقدَّس وذو الشعر الكثيف يضرب زوجته، في الحقيقة كان يُكثِر من ضرب زوجته.

اتَّضحَ لي أنَّ الصعوبة التي سأواجهها هي رقَّتهما الأميركية القاتلة. فإذا حدَّثتهما عن شرور النظام الأبويّ، تحوّلا إلى كتلة من الايماءات والابتسامات؛ وإذا ألمحتُ إلى أنَّ الكنيسة المورمونية، بإخلاصها الكلبيّ للأثرياء وأصحاب النفوذ، هي مُحاكاة ساخرة غريبة للإنجيل المسيحي، اقتربا من بعضهما لكي يتفقا على رأي. الشيء الوحيد الذي لم يتمكّنا من تقبّله هو التدخين. وبعد أنْ غادرت، انفجرَ جدلٌ حامٍ حول زيارتي على صفحات صحيفة الجامعة، ولكن بدا أنه يدورُ أكثر حول مارلبورو منه حول الماركسية. لكنني كنتُ قد لمحت أردية المعبد، وكان ما رأيته كافياً بحدّ ذاته ليُضفي قيمة إلى رحلتي. كانت أردية المعبد نوعاً خاصاً من الملابس الداخلية يلبسها الرجال

من المورمون، وبالقائي نظرة مُختلسة إلى بنطلون شاب قصير متمدّد ليتشمَّس على العشب، انضممتُ إلى تلك المجموعة المُختارة من الملعونين الذين شاهدوهم فعلاً. والفكرة هي أنه حين سيأتي يسوع مرةً أخرى، فسوف يحرقُ تألّقه المقدَّس السراويل عن الناس؛ ولكن تلك الملابس الداخلية بالذات، بما أنها منسوجة من نوعٍ من الحرير الصخريِ الروحيّ، ستبقى ثابتة في مكانها، وفي الواقع سوف تُضيء لكي يتمكّن الرب من تمييز ثوبه الخاص. وحدهم رجال المورمون الذين أكملوا أدوارهم الخاصة في المهمّات - بمعنى، أولئك الموتى الأحياء من الشبان، المصقولين، ذوي البزّات السوداء، الذين يقضي عملهم بالتردُّد على منازل الملعونين على مدى عامَين ومحاولة الكفّ عن مضاجعة أحدهم للآخر - يتمتعون بمزيّة ارتداء تلك السراويل القصيرة، ولا يمكن لأي امرأة من المورمون تحترم نفسها أنْ تصاحب رجلاً لا يرتديها. وبعض رجال المورمون الذين لم يفوزوا بعد بسراويلهم الداخلية كانوا يرتدون عصابة من المطاط تحت سراويلهم حين يخرجون مع نساء، لكي يبدوا وكأنهم يرتدونها.

لم تكن زياراتي إلى الولايات المتحدة بغيضة. وقد طُلِبَ مني ذات مرة أنْ أخطب في جامعة فيِ وسط الغرب أمام صف تحت التخرُّج كان يشقُّ طريقه بكدٍ وشجاعة خلال أطول رواية في اللغة الإنكليزية، هي تحفة صموئيل ريتشاردسن في القرن الثامن عشر "كلاريسا". وكان الوقت يقترب من نهاية الفصل الدراسي الأول، وكان عدد طلاب الصف يتضاءلُ قليلاً، ورأى البروفسور الذي يُديره أنّه، بما أنني كنت قد نشرتُ حديثاً دراسة عن ريتشاردسن، فقد يكون استدعائي بمثابة فترة تسلية. تحدثتُ لبعض الوقت عن كتابي حول "كلاريسا "، ولاحظتُ أنَّ هذا أثارَ بعض التململُ واللّكز في الصفوف الخلفية. وبدأتُ أدركُ أنَّ بعضاً من الأقلّ ذكاء بين المجموعة ظنوا أنني أنا صموئيل ريتشاردسن. فقبل أي شيء إنَّ إنكليزياً يتحدثُ عن كتابه

ويحمل عنوان "كلاريسا"، لابد أنْ يبدو عجوزاً جداً لعيونهم، ولعلَّ إحاطتهم بالتاريخ لم تكن مثالية.

لكنهم لم يُثيروا ضجيجاً وهم يسألونني لماذا كنتُ مسؤولاً عن ترنّحهم تحت ثقل تلك القطعة الأدبية ذات الطول الاستثنائي، بما أنَّ الطلاب الأميركيين دمثون في كل الأحوال. وكذلك، أيضاً، الطلاب الصينيون، على الرغم من أنهم أيضاً أشدّ حياءً بكثير. وفي إحدى رحلاتي إلى بكين، حيث قدَّموا لي بشكل احتفاليّ لدى وصولي مجموعة من الترجمات المقرصنة لأعمالي، ولما كان الطلاب من شدَّة الحياء بحيث يطرحون أسئلةً علناً بعد الانتهاء من إلقاء محاضراتي، دوَّنوها على قطع صغيرة من الأوراق وسلَّموها إليّ. وانتهى الأمر بطاولة مكتبي وقد امتلأت بالطلبات التي عليّ أنْ أنتقي من بينها، وأول واحدة فتحتها كانت تقول: "أي كاتبة أعظم، جورج إليوت أم أغاثا كريستي؟" وكمحتال يُدير عملية اليانصيب، أخفيتها في راحة يدي وانتقيتُ أخرى. في أثناء التدريس في الصين في منتصف الثمانينات كان صعباً معرفة ما كانوا يعلمون من الثقافة الغربية وما لا يعلمون. كان اسم "فرويد" لا يُثير أي ردَّة فعل، ولكن قد يسألني أحدهم عن أحوال شعراء ليفربول. وقد ألقَتْ رفيقتي في ذلك الوقت محاضرةً عن المساواة بين الجنسين فطلبَتْ منها امرأة صينية شابة أنْ تشرح لها معنى الإباحيّة. اعتقدُ أنَّ مثل ذلك النوع من الجهل قد سُوّيَ أمره الآن بفعاليّة.

•

- ٧ -

أرستقراطيون

ليس كل لقاءاتي مع الطبقات الراقية كانت ودّية مثل حواري مع باورا وسيسيل. وتجربتي مع الملكة، مثلاً، لم تكن خالية من الصعوبات. فقد كنتُ أتمشّى في أوكسفورد ذات يوم حين لاحظتُ جمعاً صغيراً من الناس واقفاً على الجانب الآخر من الشارع، يمدّون أعناقهم بلهفة نحو أحد منعطفات الطريق. في تلك اللحظة لاح للعيان موكبٌ من سيارات الليموزين السوداء ومرافقان راكبان من رجال الشرطة، آخر سيارات الليموزين كانت تحمل جلالتها. أعتقد أنها كانت تزيحُ الستار عن لوحة ما في مكانٍ ما. كان رعاياها المخلصون على طول الطريق يلوّحون لها بأيديهم ويهتفون، والملكة تلتفت من مجلسها لتعبّر عن امتنانها لهتافهم. ثم، بحركة بافلوفيّة[٤٠] لا إرادية، وبنزاهة سامية يتوقّعها المرء من ملكة، التفتَتْ بجمالٍ إلى ناحيتي من الشارع أيضاً. ولسوء الحظ كنتُ الشخص الوحيد الواقف على ذلك الرصيف، ولم تكن سمعتي السياسية تسمح لي بالتوقف وإرسال قُبلة إليها. لذلك تجاهلتُها وتابعت طريقي بتحدٍ، متوقعاً في أية لحظة يداً ثقيلةً تسقط على كتفي لأجد نفسي أُقادُ مغلولاً إلى برج لندن. وربما لاكتشافه هذه الإهانة الموجَّهة إلى والدته، أو بالأحرى لأنه يستهجن الأكاديميين

---

(٤٠) نقول بافلوفيّة: نسبة إلى راقصة الباليه الروسية الشهيرة آنّا بافلوفا (١٨٨٥ – ١٩٣١). والمعنى أنّها قامت بحركة التفاف رشيقة وسريعة. (المترجم)

الذين يرون أنه لا بأس في أنْ يتكلّموا بلكنة العامة، علّقَ الأمير تشارلز ذات مرة لبعض مثقفي أوكسفورد رودس بأنّه يأمل في ألا يقوم "ذلك الفظيع المدعو تيري إيغلتن بتدرسيهم".

لقائي الكبير التالي بشخصية أرستقراطيّة وقعَ في ظروفٍ أكثرَ رصانة. فأحد ألمع طلابي المُشرفين على التخرُّج، ومنتسب سابق إلى مدرسة إيتون واسمه جستن، كان ينحدر من وسطٍ مضطرب قاده في نهاية المطاف إلى الانتحار قُبيل تقديم امتحاناته مباشرة. كان ابن كونتيسة أوروبية وقريب لورد اسكوتلندي، وشاب مثله ذو نسب عريق لا ينتقي عادةً أنْ يقرأ الإنكليزية في جامعة أوكسفورد، وحتماً ليس مع مدرِّس يساري سيء السمعة في جامعةٍ متميِّزة اجتماعياً وذات اسم شائع كمخزن بيع التجزئة. لكنَّ جستن كان يتّصفُ بالعزم والاستقلالية اللذين يتميَّز بهما نوعه، بالإضافة إلى أنه مثَّلَ الضمير الاجتماعي لأغلب الأرستقراطية الليبرالية التفكير؛ وكان يمرُّ بعملية تحوُّل مؤلمة إلى يساريّ حين عصفَ به موته المبكّر.

أرسلتني الجامعة كممثلٍ لها إلى جنازته التي أُقيمَتْ في اللولاندز الاسكتلنديّة، وفي مطار إدنبورغ انتقتني امرأةٌ ضخمة الجثة، قصيرة القامة، وصافحتني بقبضةِ مُحمِّلٍ للسفن وأعلنتْ أنها مضطربة. وأدركتُ بعد برهة أنَّ ذلك ربما كان يعني أنَّ اسمها دوتي (مخبولة)، ومن ثم قدَّمتني إلى زوجها ذي اللقب هوبي، وكان رجلاً في منتصف العمر وذا طولِ قامةٍ مُثير للسخرية حتى أنه كان رخواً عند المنتصف كرقاقة من البطّاطا مُشبَّعة بالماء. وكان هوبي من شدة الغموض حتى أنه بالكاد كان يتكلّم، ولكن في المناسبات النادرة التي نجح فيها في الارتفاع إلى مستوى تحّدي النطق الواضح، تكلَّمَ بكل هشاشة وجفاف نبيذ Muscadet sur lie . وعند نقطةٍ ما ترجّلَ من السيارة لكي يتبوَّل بغزارة عند حافة الطريق، كاشفاً عن عضوه بلا مبالاةِ

فارسٍ أمام تحديقِ الرَعاع المارّين. وقد استغرق منه الخروج من السيارة وقتاً طويلاً بحيث أني بدأتُ أتساءلُ إنْ كان "هوبي" يقصد أنْ يكونَ ساخراً.

قادتنا الليدي دوتي بالسيارة خلال اللولاندز وكأننا ممسوسون، نرمش بعيوننا كحسيري البصر ونحن ننظر من خلال حاجب الريح ونتجاوز بسرعةٍ عالية منعطفات ضيّقة تجعلنا نعضُّ على شفاهنا. وحين كانت تضطرّ إلى التخفيف من سرعتها بسبب وسيلة نقل مُطيعة بشكلٍ مُثيرٍ للامتعاض للقانون كانت تراقب حدود السرعة، فتلتفتُ إلى هوبي الجالس على مقعد المسافرين، وتلمُّ شفتها وتبصق الكلمات التالية "هاه! يا له من سائق حريص!" في وجهه كالتجديف. ويومئ هوبي برأسه برصانة، ويستقيم ظهره، ويصبح رأسه على بُعد سنتيمتر واحد من سقف السيارة. ويُخيَّلُ إليّ أننا في الطريق للسير في أكثر من جنازة واحدة. ودار حديث قصير، ولكن عند نقطةٍ ما بينما أنا أجلسُ متراخياً، وأشعر بغثيان خفيف من أثر قيادة دوتي المجنونة للسيارة، في الكرسي الخلفي، نبحت في وجهي فجأةً "أتعرف اللورد كريتشتن؟" أجبتُ بأني لا أعرفه، فردَّت ساخرة "إنه خلفك" كممثلة في فن الإيماء. وتساءلتُ برهةً عما إذا كان هناك أحد النبلاء يجلسُ القرفصاء في المقعد الخلفي للسيارة، أو لِعله يكمنُ في صندوق السيارة، ثم أدركتُ أنها تقصد خلفي على الطريق. التفتُّ فرأيتُ من خلال نافذة السيارة الخلفية شاباً ذا فكّين بارزين، مرتعشين، جديرين بكلب مطاردة المجرمين، جالساً وراء مقود السيارة التي تلاحقنا. رآني أنظر إليه فأومأ لي بحركة غامضة، إما تحيةً أو سخرية.

أخيراً وصلنا إلى قرية اسكوتلندية صغيرة تحمل لقب عائلة جستن. وبعد أنْ طفنا حول المنزل الكبير، الذي كان مكسواً بألواح الخشب لتوفير تكاليف مُدمِّرة، توقفنا عند صفٍ مُسيَّج من أكواخ عمّال المزارع

في العزبة، بُنيَتْ على عجَل لتشكِّل منزلاً بديلاً للعائلة. لفتَ رجل شرطة واقف عند البوابات الانتباه إلى نفسه وحيّانا لدى مرورنا. إما أنه تعرَّفَ إلى ليدي دوتي أو أنه كان نصيراً لنظرية أدبية. وبدا أنَّ نصفَ الأرستقراطية الاسكوتلندية قد انحشرتْ داخل أكواخ الكادحين. وكان الأثاث قد تداعى في الأوقات العصيبة، على الرغم من أنَّ الويسكي كان وفيراً. ولاحظتُ مدى رثاثة ملابس الضيوف، النسوة الحقيرات، الممشوقات القوام اللائي يرتدين التنانير الزريّة، والجريئة، والبلوزات، مع ربما وشاح أسود مُلقى بإهمال على أكتافهنّ كعربون تشريف للمناسبة. رجالهنَّ المتلعثمون، الضِخام الأيدي، كلهم يبدون متشابهين بصورة غامضة مع ذقونٍ مُرتدّة ووجوهٍ متطاولة، يجلسون متكاسلين وهم في كامل ملابسهم مما أوحى بأنهم كانوا عائدين من زراعة اللفت أو من تنظيف المجاري. كنتُ ببزّتي السوداء المُستأجَرة والصدرية المُثبّتة بأزرار بإحكام، صاحب أفضل ملابس دون أدنى شك بين أعضاء الجنازة، والبرجوازي الحقير المُلتزم بالأعراف التقليدية بين طبقة الفرسان. إنَّ الذين يمْلُون الصيغ الجاهزة يستطيعون أنْ يستغنوا عنها. وأغلب الناس هناك كانوا يتمتّعون بظُرف أولئك الذين تسمح لهم ثروتهم ووضعهم الاجتماعي بالعيش دون غطرسة.

على أساس فترة تبادلنا النظرات الوجيزة على الطريق، انخرطتُ في حديث مُتكلِّف مع الشاب اللورد كريتشتن، الذي بدا أنه لا يتجاوز الثانية والعشرين. سألته إنْ كان قد درسَ في أوكسفورد أو كمبريدج، وأنا أعلم أنَّ هذا تقليد قَبَليّ في أسرته، وبعد فترة صمت مطوَّلة، أشبعَ خلالها السؤال تفكيراً، أجاب ببطءٍ بأنه لم يفعل، وهي حقيقة أكّدتْها بصورةٍ أو بأخرى الصعوبة التي واجهها مع سؤالٍ بسيط. نطقَ كلماته القليلة كمَنْ يجرِّبُ لغة صعبة صعوبة شيطانية ولم يجروْ بعد على استخدام معرفته السطحية بها عَلَناً. ثم أخذَ يُحدِّقُ عبر النافذة إلى اللولاندز فترةً طويلة، لكي يُشير إلى أنَّ ليس لديه شيء مُعيَّن يقوله لي

لكنه لم يعتبر نفسه مُقيَّداً بقدرٍ كافٍ بالصيغ الاجتماعية بحيث يُخفي هذه الحقيقة بالانغماس في لغوٍ تافه.

كان جليّاً أنه توقَّع مني أنْ افهم ذلك وألاّ أكونَ مملاً كسكان الضواحي بحيث أستاء من ذلك، وسرعان ما ستغدو حقيقة أنّه على الرغم من صمتهِ لم يحمل أية ضغينة بيّنة. وكنت منذ بعض الوقت أعبث داخل جيب سترتي بعلبة سجائر كنتُ مشتاقاً إلى أنْ أُغيرَ عليها، بما أنني كنتُ في ذلك الحين مُدخّناً، لكنَّ التقاليد تحرّم ذلك. كنتُ واثقاً من أنَّ عبثي كان فقط معتدلاً ومُختلَساً، ولكنني فجأةً وجدتُ نفسي أحدِّقُ إلى سيجارةٍ كان اللورد كريتشتن قد استلّها بمهارة فريدة من جيبه كما يستلُّ مسدَّساً، ويُقدّمها بصمت إليّ. أشعلنا السجائر معاً دون أي ننطق بأية كلمة، في لحظةٍ من الحاجة المشتركة حُفِرَتْ بأناقة، مثل كاثرين وهيثكليف، في الزجاج. لم يعترض أحدٌ من حولنا؛ في الحقيقة انتابني شعور بأنهم ما كانوا سيعترضون لو كان ما قدَّمه إليّ شيئاً أكثر إدهاشاً من سيجارة.

بعد ذلك تمَّ تقديمي إلى رجل ضخم الجثة، يميلُ إلى قِصَر القامة متقدِّم في السن، بشرته حمراء اللون داكنة بفعل عقودٍ كثيرة من الحياة المستهترة. دعاني إلى مخاطبته بميكي، على الرغم من أنَّ ذلك لم يكن في الواقع اسمه، وقد اكتشفتُ لاحقاً أنه يمتلك قسماً كبيراً من أبردينشاير. مرةً أخرى سألته، كنقلة افتتاحية في الحديث، إنْ كان قد التحقَ بأوكسفورد، فأجاب بأنه التحق بالمنزل، وهو أسلوب قديم في الإشارة إلى مدينة كرايست تشيرش. سألته عن الموضوع الذي درسه هناك، فإذا بي أجد أنَّ ذلك السؤال البريء أغرقه في الارتباك كما لو أنني طلبتُ منه أنْ يُصنِّفَ لي حوارات تانزانيا المتنوعة حول المميزات الجيولوجية لبراندنبرغ. وبعد بعض التململ والتلعثم المُلتبس، أجاب بحذر بأنه درس القانون، ولكنْ تكوَّنَ لديَّ انطباع بأنَّ ذلك كان

نوعاً من التخمين. ثم تحدَّثَ قليلاً عن حياته في مجلس اللوردات، قبل أنْ ينتقل بسرعة إلى مناقشة كنيتي. سألَ "اسمٌ اسكتلندي، أليس كذلك؟"، فوافقته على ذلك. أردفَ "أعلمُ هذا في الواقع، يا بُني، لأنَّ أحد أعزّ أصدقائي يُدعى إيغلتن". وبما أنه كان يتكلَّم للتو عن اللوردات، سألته إنْ كان يعني واحداً منهم بعينه. أجاب "يا إلهي، كلا، إنه خادمي". في مكانٍ ما من أبردينشاير هناك حارس طرائد قد يبدو شبيهاً لي قليلاً. لعلَّه لا يوجد كبير اختلاف بين حرّاس الطرائد وحرّاس البوابات.

ثم نطقَ ميكي بأفخم مُعطِّل للأحاديث سمعته. فقد ألقى حوله نظرة سريعة إلى ضيوف الجنازة، وأعلنَ بصوتٍ عالٍ: "الانتحار أمرٌ غريب. إنَّ زوجتي وابنتي انتحرتا". أدلى بهذه المعلومة بنبرة صوت رصينة لشخص يُعلِّقُ على تغييرٍ صغير طرأ على حالة الطقس، قبل أنْ يواصل الكلام عن أمرٍ مختلف تماماً. ومنذ ذلك الحين أتساءلُ أحياناً ما الذي كان سيكون الرد المناسب على ذلك. كان الرد بـ "ماذا، كلتاهما في وقتٍ واحد؟" سيكون رداً جليّاً، مع أنه لو كان أقلَّ كياسة لجازفتُ بسؤاله "هل فوجئت؟". ولكنه حينئذٍ كان يخبرني بأنَّ أحد أبنائه كان يترشَّح للبرلمان. وكبحتُ نفسي في الوقت المناسب عن سؤاله عن أي حزب سياسي.

بعد قليل، أدركتُ أنَّ الرجال طِوال القامة بصورة مُثيرة للسخرية لأنَّ معظمهم إما كانوا عندئذٍ أو قبل ذلك بزمن ضباطاً في الحَرَس الاسكتلندي. في الواقع، كان كل شخص في المكان، بمن فيهم النساء، ينضحُ بما يُشبه العَبَق العسكري. وأخذ نافخ مزمار اسكتلندي يعزف لحناً حزيناً ورتيباً بجوار القبر، وألقى رجل الدين طويل القامة، ومن الواضح أنه حارس اسكتلندي متخفٍ، عِظته التي وصفَ فيها حياة جستن، القصيرة والأليمة، كمُعادل لِما يدعوه الجيش "العمل

الشاقّ". وبعد أنْ أنجزَ الفتى تكليفه على الأرض، عادَ الآن إلى قاعدته السماوية. وبعد ذلك، في أثناء قيادته السيارة في طريق عودته إلى مطار إدنبرغ مع دوتي وهوبي، سألني هوبي عن رأيي في الموعِظة، وبدا عليه الأسى حين علِمَ أنني وجدتها كتلة من الهراء. ومن مجلسي في المقعد الخلفي سألتُ بغضب، مدعوماً هذه المرة ببضع كؤوس من ويسكي غلنمورانجي القوي، أينبغي أنْ ينظرا إلى كل شيء بمنظار الجيش؟ غمغمَ هوبي، وكان جلياً ضلوعه في فلسفة المجاز، "إنه مجرَّد أسلوب في التعبير، يا عزيزي". وفكّرتُ في أنْ أسأله في هذه الحالة إنْ كان لا بأس في تأويل كل شيء على أساس الانقلاب الثوري على الأرستقراطية، ولكنني بدل ذلك راقبتُ المشهد الاسكتلندي يمرُّ بسرعة البرق المرعبة وتساءلتُ ماذا كان سيكون رأي جستن بعملية دفنه الخاصة. ونجحَ هوبي مع دوتي ببراعة في التخلّص مني في المطار، على الرغم من أننا كنا مسافرين على الطائرة نفسها إلى لندن. لعلهما كانا قد أجريا أول لقاءٍ لهما مع شخص ليس من حزب المحافظين، وبعد أنْ أدّيا واجبهما نحوي بالأسلوب الـ noblesse oblige (الذي تقتضيه النبالة) لم يكن في نيّتهما أنْ يُطيلا من أمد الأسى بالجلوس إلى جانبي في الطائرة.

كان صديق أعرفه قد قابلَ جستن في طفولته وتكهّنَ في ذلك الوقت بأنه سينتحر؛ وعلى الرغم من شكي في ذلك التكهُّن، وأيضاً في نموذج برايدزهيد للأرستقراطية الهالكة، بدا أنَّ ثمة جوّاً قاتماً من الدمار الذاتي يُحيط به، منضفراً بشكلٍ معقَّد بشغف فكري وأخلاقي مكثَّف. إنَّ الأرستقراطية هي نوع من الطبقة التي لا معنى لها، لا فائدة منها بصورة رائعة كعملٍ فنيّ؛ وعليه كان لأشباه جستن صِلة سرّية بالمحرومين. كان في استطاعة المشرَّدين والمحرومين أنْ يتّحدوا من خلف ظهور المُضاربين في البورصة الناهقين والماديين المحافظين ذوي الوجوه الحارة. كان بين صاحب الأرض ومُنتهك حُرمة الأراضي ميثاق قديم، يفتري على آل إيغلتُن أو حرّاس الطرائد في هذا

العالم. إنَّ الذين يملكون الكثير بحيث لا يحتاجون إلى التفكير في هذا يستطيعون أنْ يبذّروا على غِرار الذين ليس لديهم ما يخسرون.

إن دافع الموت يتّصف بمثل هذا النوع من الإفراط، وهو واضح عند ذلك الغندور الإنكليزي الدجّال، أوسكار وايلد. فعلى امتداد رحلة وايلد في ارتقاء سُلَّم المجتمع الراقي يشعر المرء بالضبط بهذا الإحساس المُقزِّز بالتقلقل، بهذا الرجل ذي الكبرياء الشديدة المُغالي في الانطلاق عالياً هكذا بطموحه، وفي توهّجه، ويبدو أحياناً وكأنه يكاد يستجلب الكارثة عن عمد. وكما هَدَمَتْ طبقته الأنغلو-أيرلندية الخليعة، غير المسؤولة، في أرض الوطن، السقف على رؤوسها في نهاية المطاف، في نوبةٍ شديدة من الإحساس بالذنب والانتقاص من الذات، كذلك يبدو استهزاء وايلد المشين بالأخلاقيات التقليدية سباقاً نحو دمار الذات، وكأنه يُغري المجتمع الإنكليزي لتقديم أسوأ ما عنده. وطبعاً وجد نفسه مثله، قادراً على مقاومة كل شيء ما عدا الإغواء.

هذا الاندفاع نحو دمار الذات يظهر غالباً عند المندمجين والمنعزلين عن المجتمع - عند أولئك (اللا) سادة الذين، مثل وايلد، يصبحون مُحاكاة ساخرة مثالية أكثر مما ينبغي للحقيقة بحيث لا يُثيرون إعجاباً تاماً. لقد علِمَ وايلد إنه زائف، دجّال، يضعُ قناعاً؛ لذلك كان يقوم بانتقامه الاستعماري بإظهار أنَّ الهويّة برمَّتها ما هي إلاّ مسألة انتحال هيئةٍ وشخصيةٍ مسرحيّة، وكل الصيغ الاجتماعية عابرة ومؤقّتة. والمستعمِر لا يعرف مَنْ هو، بينما السيد المحترم لا يأبه. فإنْ كان وايلد سطحياً، فقدْ كان عميقاً أيضاً، وكلما اقتربَ أكثر من الحقيقة أصبح واعياً بسخرية لزيفه الخاص. والمنعزل المزدوج جنسياً، واجتماعياً وعرقياً عن دوبلن (كما كان جيمس جويس ينطق اسم المدينة)، الذي لم يكن يستطيع أبداً أنْ يسمّي نفسه بأي قدر من الثقة، كان يصبح ما يشبه الطابور الخامس في معسكر الأعداء، مميطاً اللثام عن فرديتهم

الاستبدادية الراضية عن ذاتها لصالح الوهم الذي هو حقيقتهم، متهكّماً وأيضاً مقرّظاً صِيَغهم الاجتماعية والفنيّة وذلك بتوزيعهم بإتقانٍ أشد مما يفعلون هم أنفسهم. ولكن في تلك الأثناء كانت صورته الذاتية تتعفّن في عليّة يلفّها الصمت[٤١]، وكانت الحقيقة، التي ضمرَ وايلد لها ازدراءً كازدرائه موضة الصدرية في الموسم الماضي، تقبض أخيراً على ياقته بأصابع ثقيلة وتقوده إلى العمل الشاقّ[٤٢]. لقد كان مصيراً قاسياً لرجل كان جهده الجسدي السابق الوحيد، كما لاحظَ، هو لعب الدومينو خارج مقهى فرنسي، وتجربته السابقة الوحيدة في الخشونة كانت مع العمال الأجيرين. وكالعديد من المنعزلين كان قد تخطّى الحدود، وفشل في قبول دور الأيرلندي كمُهرّج مُجازٍ في البلاط الإنكليزي، وهو إلهاءٌ ليسَ خطراً عن عمل حُكّامه كمولّدين. فإذا تبنّينا كلمات ذكي دبلنٍ شون ماك ريموين، انتهى به الأمر كالإحصاء الأيرلندي الرسمي، مُحطّماً بفعل التقدُّم في السن، والإفراط في ممارسة الجنس والدين.

ربما ليس من المُدهِش أنني وجدتُ نفسي أكتبُ غالباً عن هذا الاشتراكي الأنغلو-أيرلندي الأوكسفوردي، وقبل-بعد البُنيويّ، بجمعِهِ بصورة غريبة بين شخصيتَيّ النبيل والأيرلندي، وتركيبته الكلتيّة من الطيش مع الجدّية. لقد فرَّ هارباً من مستعمرة راكدة على الطريقة الأيرلندية التي تقدّس الوقت لا يتسلّح بغير مهاراته اللغوية، بينما أنا، كالعديدين غيري، لم أكن أمتلك إلا رصيدي اللغوي لكي أرتفع من حمأة الطبقة العاملة. إنَّ اللغة لا تكلّفُ شيئاً، وما دام الأمر يتعلّق بالكلمات هناك دائماً المزيد. لكنَّ وايلد أيضاً أثار اهتمامي بمقته المُثير للشفقة تقريباً للابتذال، وهو أحد آثار الاستعمار. وإذا كان مثلياً

(٤١) الإشارة هنا إلى ما يحدث في رواية وايلد، صورة دوريان غراي "المترجم".
(٤٢) هنا إشارة إلى الحكم بالسجن مع الأشغال الشاقة على وايلد "المترجم".

جنسياً، فذلك جزئياً لأنَّ اشتهاء الجنس الآخر بدا أمراً مبتذلاً بشكلٍ لا يُطاق. كان يكفي أنْ يلمح عُرفاً اجتماعياً حتى يشعر بإلحاحٍ يكادُ لا يُطاق لكي يتجاوزه، وهنا، وليس في غرف الفنادق الرخيصة، يكمن انحرافه الحقيقي.

اتّصالي الأول مع شبيه أنغلو-أيلندي لوايلد حدثَ في أول جولة لإلقاء محاضرات في أيرلندا في أوائل ستينات القرن الماضي. كنتُ قد دُعيتُ إلى المشاركة في مناظرة من قِبَل جمعية طالب كلية الثالوث للعاديات الرائعة، ووصلتُ إلى المطار لأجد في انتظاري شابٌ أيرلندي ضخم الجثة، متورِّد الوجه، اسمه نايجل. ولا أحد في أيرلندا كلها اسمه نايجل. كان يضعُ رُقعاً غريبة من مادة بيضاء فوق حذائه، اتَّضحَ أنها غِطاء للكاحِل. وكنتُ قد قرأتُ عن غطاء الكاحل في الروايات الفيكتورية، لكنني افترضتُ أنها انقرضَتْ مع انقراض الأرداف المُستعارة، ودراجات الربع بنس . (بالطريقة نفسها، كان ريموند وليامز قد أخبرني أنَّ ف. ر ليفيز مرَّ به مُهروِلاً في كمبريدج في صباح أحد الأيام تحت المطر الغزير، ثم عاد أدراجه بعد ذلك بنحو عشرين دقيقة بكياسةٍ لا مثيل لها، وهو منقوع بالماء حتى العِظام، لكي يعتذر لأنه "تجاوزه". و لم يكن وليامز قد مرَّ بالكلمة قبل ذلك إلاّ في قصص أيام المدرسة الرسمية) ولكن اتَّضحَ أنَّ نايجل شخص مُحبَّب، وقدَّمني إلى زملائه من أعضاء اللجنة، الذين يحملون أسماءً مثل جوليان، ومارك. ويكاد لا يوجد في أيرلندا كلها أحداً يحمل اسم جوليان أو مارك. كان هؤلاء شباناً أنغلو-أيرلنديين محترمين، كلية الثالوث بالنسبة إليهم بمثابة إحدى جامعات أوكسفورد قائمة على ضفاف نهر ليفي . دار النقاش بملابس المساء، وكان هناك عدد من التلميحات المحترمة إلى "كاتب المقالات الشهير"، الذي حسِبتُ أنه أحد أعضاء الجمعية المحترمين، الذين توفّاهم الله منذ أمدٍ بعيد ولكن اتَّضحَ أنه أنا.

* * *

إنَّ القصيدة الوايلدية الساخرة تتناول الابتذال الإنكليزي وتمزّقه شذراً، تقلبه رأساً على عقِب، توقِفه على رأسه. والموضوع الاستعماري، كالقصيدة الساخرة، هو نوع من الانحراف، جزء من المدينة الكبرى نُفِّذَ بغير إتقان، تعرَّضَ للمحاكاة الساخرة، أصبحَ فجأةً ملتوي الشكل؛ ولكن شيئاً مُشابهاً يصحُ قوله على الفطنة الأرستقراطية، وعند وايلد يجتمع الأمران بحميميّة. وغرابة الأطوار هي المعادل للانحراف الاستعماري. الطبقات الراقية تتمتع بحريّة شديدة الترَف بحيث أنها تُحلُّ من واجب الامتثال لتقاليدها، ناهيك عن تقاليد أي إنسان آخر. وسلوكهم هو ألاّ يتقيّدوا بأي شيء كئيب ورخيص كالواقع. وحين كنتُ دوناً مستجدّاً في أوكسفورد، وجدتُ نفسي ذات مرة جالساً إلى جوار زميل يُبدو عليه شيءٌ من الانزعاج في اجتماع للكليّة، ولمجرَّد فتح حديثٍ معه سألته كم لديه من الأولاد. ساد الجمع المحيط قدرٌ من البرودة، حين أدركوا أنني مارست انحرافاً مريعاً وذلك بإخضاع زميل لهم للمراقبة المبتذلة. إنَّ من الصعب الإجابة عن مثل ذلك السؤال بينما المرء يفتش في الوقت نفسه عن الفرق بينه وبين موظفي المحامين ومرتادي دور السينما. لكنَّ زميلي لم يكن مُكرهاً. أجاب بحيوية "أوه، آلاف وآلاف". وفي المنزل، في أثناء تنظيف المكان من رقائق الذرة المشبّعة بالماء، اضطرَّ إلى أنْ يكون من زمرة الرؤوس المستديرة[٤٣]؛ هنا على الأقلّ يستطيع أنْ يكون فارساً. كان المنزل مُخصصاً للطيّبين، والجامعة للرائعين. سألَ زميل على المائدة العالية الفيلسوف غيلبرت رايل، الذي أشارَ إلى أنَّ

(٤٣) الرؤوس المستديرة: في التاريخ الإنكليزي هم الذين دعموا البرلمان في وجه تشارلز الأول في أثناء الحرب الأهلية في منتصف القرن السابع عشر. واللقب يُشير إلى الطريقة التي كانوا يقصّون بها شعورهم قصيرة جداً "المترجم".

"الإدلاء بملاحظة عقلية" يعني عدم الإدلاء بأية ملاحظة في المطلق، متى يأمل في صدور كتابه التالي، فأجاب رايل "تستطيع أنْ تأمل في أي وقتٍ تشاء".

إنَّ عِلم الاجتماع، وهو دراسةُ ما هو مُبتذل، ويتكرَّر حدوثه وقابل للتوقُّع في الحياة الإنسانية، هو في الأساس دراسة المقولات المبتذلة. ولذلك ليس من المدهش أنَّ الطبقات الراقية تعارضُ الانضباط بعناد. إنه طعنة نجلاء توجهها الطبقة المتوسطة إلى غرابة أطوار الطبقة الراقية. وحقيقة أنَّ الطوابير عند نقاط التفتيش في المجمّعات الاستهلاكية ستكون تقريباً بالطول نفسه هي مسألة تتعلَّق بعلم الاجتماع. وقول "أحبك" هو عِلم اجتماع صِرف، مهما قالها المرء بصدق. بالنسبة إلى الرومانسيين، من المأساة أنْ نُجبَر على التعبير عن مشاعرنا الشخصية الأشد فرادة بعبارات باهتة استهلكها ملايين آخرون؛ وبالنسبة إلى الإنسان العصري، فقط باستخدام مثل هذه العبارات نستطيع أنْ نعبِّر عن مشاعرنا لأنفسنا. وذات مرة سمعتُ عالم اجتماع يحكي كيف دخل إلى قسمه في الجامعة فوجدَ سكرتيرته تذرِف الدموع. وبعد أنْ بذل أقصى جهده لمواساتها، خرج ليتمشّى على طول الرواق فألقى نظرةً على غرفة مكتب أخرى، فإذا به يجد سكرتيرة أخرى تبكي. فعلَّقَ قائلاً "إنَّ سكرتيرة واحدة تبكي هي مأساة. أما اثنتان فعِلم اجتماع". وكان جديراً بالدكتور غرينواي، كما سنرى بعد قليل، أنْ يوافق دون تردُّد على ذلك، على الرغم من أنّه ليس واضحاً لماذا لا تُضاعف سكوتيرتان تبكيان المأساةَ بدل أنْ تُخفِّف من تأثيرها.

إنَّ للعبارات المبتذلة أنماطها التاريخية، كباقي حديثنا. والأميركي الساخر توم ليرر، الذي أعلنَ أنه تخلّى عن السخرية كلها عندما مُنِحَ هنري كيسنجر جائزة نوبل للسلام، وعلَّقَ قائلاً إنه حين كان طالباً لم يكن في استطاعتك أنْ تقول أشياء معيَّنة أمام الفتاة. أما الآن، أضاف،

فتستطيع أنْ تقول كل ما تشاء ما عدا كلمة "فتاة". كان السياسيون الإنكليز يقولون أشياء مثل "أنا لم أتودَّد أبداً إلى الجماهير"، أمّا العبارة التي يردّدونها أكثر من غيرها في هذه الأيام فهي "واضح جداً"، بما أنهم يعلمون أنَّ ثمة شك في أنهم مراوغون.

تساءلَ صديقٌ لي ذات مرة عما إذا كانت هناك فقرة في العقد الذي يوقعه كتّاب السيناريو في هوليوود يُطلب منهم فيها أنْ يُقحِموا عبارة "حاول أنْ تنال قسطاً من النوم" إلى كل سيناريو يكتبونه. إنها نصيحة تتردَّد بصورة ملفتة في الأفلام السينمائية، أقلّ روعة من "الرجال يزدادون توتّراً" أو "الجو ساكن... أكثر مما ينبغي"، لكنها أوسع انتشاراً في هذه الأيام من عناوين الشاشة المبتذلة التي أتذكّرها من أيام الطفولة، مثل "أنت تؤلم ذراعي" و "اذهب إلى غرفتك"، الثانية يوجهها الأب إلى الصبي السَاعي. إنَّ تغيير البُنى المألوفة جعل من هذا النظام عتيق الطراز، بما أنَّ هذا سيصبح مكانها أساساً في هذه الأيام، وسيعاملون أقرانهم ببرودة متجهِّمة. والعبارة الوقور "فقط المس الجرس إذا احتجتَ إلى أي شيء" كانت أيضاً من ضحايا التغيُّر الاجتماعي، مع أنَّ عبارة "ليست هذه هي الطريق المؤدية إلى المطار!"، المنطوقة بنبرة قلقة من المقعد الخلفي لسيارة أجرة تتبعها لقطة مُقرَّبة لسائق يبدو عليه المكر، قد ماتت من فرط التعب.

كانت هناك مقاطع كاملة من الحوار تبرز فجأةً على الشاشتين الكبيرة والصغيرة بتكرار صاعق، مثل "تفضَّل اجلِس"... "شكراً لك، أفضِّل أنْ أبقى واقفاً"... "كما تشاء"، أو "لكنَّ هذا ابتزاز!"... "فلنسمّه مجرَّد إجراء لإدارة الأعمال". إنَّ أغلب الغربيين يُضمنّون شرعياً التبادل الميتافيزيقي التالي: "عليك أنْ تكفَّ عن الهروب. ممَّ تهرب أساساً؟"... "لا أدري. ربما – من نفسي". وقد اندثر أغلبها الآن، لكنَّ قوالب سينمائية أخرى كانت أكثر عِناداً. فمراكز الشرطة

الإنكليزية على الشاشة، كل مَنْ هو فوق رتبة رقيب يكونٍ دائماً في حالة أسى عالمي مزمنة، ويميل بمكر إلى المزاح مع أقرانه ويتهكّم بضجَر من صغارهم. إنَّ المزاح الساخر هو عُملة دكاكين الشرطة الروائية كلها. ولا يزال من السهل التعرُّف إلى كبار العلماء الباحثين في وكالة المخابرات البريطانية: وحين تلج مكتبهم تجدهم دائماً منهمكين في تسلية ممتعة وغريبة كإطعام أفعى عاصِرة فأراً، وسوف يهمسون دون أنْ يرفعوا أبصارهم "غريبٌ أمرها، هذه الزواحف..." كإجابة على إعلانك الحماسي أنَّ الصينيين قد غزوا فنلندا للتو.

الجواسيس، والقَتَلَة ومختلف أنواع المهووسين المقبوض عليهم، سيصفهم جيرانهم دائماً لضباط الشرطة بأنهم يعيشون حياةً هادئة ولا يختلطون بأحد، بينما لا يزال المضطربون عقلياً يميلون إلى التحدُّث بنبرة صوت ناعمة آلية، مشوْومة. ولكن لم يعد يُحيط بهم بالضرورة ذلك الجو المجنون، بما أنَّ آخر عبارة مبتذلة هي أنَّ عاشقي الأطفال والقتلة بالجملة يشبهونك ويشبهونني، يشترون طوابع ويقولون أشياء مثل "يبدو أنها ستُمطِر". من ناحية أخرى، المجرمون على الشاشة لا يزالون غالباً مخلوقات شديدة النرفزة، وثرثارة، بأعصاب متهرئة على الدوام، غير قادرة على رفع كوب من القهوة دون فقدان الصبر يفضح انحلالها الخلقي. والعمليات الإجرامية المعقَّدة تتطلَّب بعض التعاون الدقيق – كحفر الأنفاق تحت مصرف إنكلترا، مثلاً – تُنفَّذ على الشاشة بأيدي رجال يتعاملون مع بعضهم البعض وهم في حالة من الاضطراب الذُهاني، بدل أنْ يتم ذلك، كما ينبغي حتماً أنْ يكون عليه الوضع في الحياة الواقعية، بفعاليّة دقيقة وهادئة جديرة بحفّاري قبور. وحين يستجوب رجال الشرطة المشبوهين، يصرُّ اتّحاد كتّاب السيناريو على أنَّ قطعة الحوار التالية هي: "مهلاً، لماذا تطرحون عليّ كل هذه الأسئلة؟" "مجرد إجراء روتيني"... "لكنكم سبق أنْ طرحتم عليَّ الأسئلة نفسها للتو"... "دعنا نراجعها فقط مرة أخرى، أوكيه؟"

الآن في أفلام الإثارة القديمة الطراز وحدها تميط الشخصية اللثام عن وجهها حين يقول القاتل "هل المقصود من هذا أنْ يكون ما يشبه النكتة؟" أو "لابد أنكَ قد فقدتَ عقلك!". لكنَّ الشخصيات السينمائية التي تعلم مُسبقاً أنَّ زوجها، أو عشيقها أو صديقها الحميم هو جاسوس، أو مُغتصِب أو خنّاق تهتفُ مع ذلك: "ولكن هذا مستحيل! أقصد، لا يمكن أنْ يفعل شيئاً كهذا. أنا أعرفه...". وبما أنَّ الكل يعرفون شخصاً ما، فإنَّ هذا سيبرِّئ السكّان كلهم. لكنَّ لصوص المصارف في الحياة الواقعية كفّوا تماماً تقريباً عن الصياح "حسن، فلينبطح الجميع على الأرض! فقط نفِّذوا ما نأمركم به ولن نؤذيكم" لكي يوفّروا على أنفسهم حرجاً اجتماعياً خطيراً. والأوغاد المقبوض عليهم الذين لا يزالون يقولون "إننا نُلقي القبض عليك" أو "لقد قبضتَ على الرجل الخطأ" هم ساخرو ما بعد الحداثة.

إنَّ الناس في دراما الشاشة وهم في قبضة انفعالٍ قويّ يكونون غير قادرين على ممارسة الحس السليم، يكونون في حالة توازن زائفة من المشاعر القوية مع اللاعقلانيّة. "اسمع، أيها المفتِّش، إنَّ ابنتي مفقودة وكل ما تستطيع أنْ تتكلَّم بشأنه هو إعداد فريق بحث لعين". والضحايا المذهولين يميلون إلى اعتبار استعراضات المطابقة أو التحقيقات الميدانية نشاطات بيروقراطية تمارس ببرودة فظيعة. ولا يزال المحققون السريون الذين يحققون مع المشبوهين يميلون إلى المشي حتى الباب، وبعد أنْ يضعوا أيديهم على أكرة الباب يستديرون ويغمغمون "أوه، بالمناسبة، ثمة أمر آخر"، وذلك قبل أنْ يُطلِق سؤالاً مُدمِّراً.

الهواتف على الشاشة تبقى مصدراً جدّياً للوهم. الشخصيات التي ترفع سماعة الهاتف دائماً تتردَّد برهةً وجيزة أطول مما يحدث في الحياة الواقعية قبل أنْ يقول ألو، في حين يُسمَح للهواتف أنْ ترن مدةً مُحطِّمة للأعصاب أطول مما يحدث في العائلة العادية المملة أو المتميزة

بالفضول. ولكن الرقم المطلوب دائماً يُجيب على الفور بشكل غير منطقي، حتى وإنْ كان رقم مكتب استعلامات سكة الحديد البريطانية. وتُصَبّ كمية معقّدة من المعلومات في الهاتف بسرعة مذهلة، لاستباق ملل الجمهور. وحين يُغلق المُتَّصل الهاتف في وجهك بعد حديثٍ غاضب، عليكَ دائماً أنْ تُحدِّق إلى السمّاعة قبل أنْ تعيدها إلى مكانها، وكما في أيام ما قبل التكنولوجيا كان عليك أنْ تحرّك السماعة إلى أعلى وإلى أسفل وتهتف "ألو، ألو!" حين ينقطع الخط في وجهك، وكأنَّ هذا سيُعيد الاتّصال بسحر ساحر.

قد تكون العبارات المبتذلة حقائق بائتة، ولكنها عادة حقائق مع ذلك؛ وهي تساهم في تحريرنا بجعل توقُّع الحياة الاجتماعية أمراً ممكناً، وتؤتْمِتُ أجزاءً منها بحيث نصبح أحراراً في أنْ نولي اهتمامنا بأخرى. وهناك مقتطفات لا يُعرَفُ مصدرها: لا أحد يفكر في سؤال مَنْ أول مَنْ قال "هناك أشياء أنفس بالنسبة إليّ من المال" أو "ارفع يدكَ عنها، أيها الحيوان الخسيس! "لكنَّ عبارات الأمس المستهلكة قد تغدو حقائق الغد، تماماً كما أنَّ الآن آخر كلمة في عالم ما بعد الحداثة هي أنْ تجلس مع رفاقك في دار للمسرح وأنت ترتدي زي بائعة حليب أو جندي ألماني وتغني مع أغاني فيلم "صوت الموسيقا". والعبارة التي سيرددها مفتش الشرطة الجديد هي "إنها مجرد مسألة روتين"، وسيمتلئ الجمهور بالإثارة لدى سماعه الصرخة المجنونة "لا مهرب من هذا المعسكر!"، وسيكون ممتعاً مرةً أخرى للأوغاد أنْ يهتفوا "حركةٍ واحدة أخرى مشبوهة وسأملأك بوابل من الرصاص".

* * *

الرجل المشرف عليّ في كمبريدج الدكتور غرينواي كان شخصية تافهة، ولكن ليس أحمقَ. وبأسلوبه المُحافظ النموذجيّ لم يكن يحترم الكائنات البشرية كثيراً، وكان يُفضِّلُ في العموم الأعمال الفنية

والحواجز العشبية على الكائنات البشرية؛ ولكنه كان على الدوام كيّساً ومراعياً لمشاعر الآخرين، حتى حين أرقْنا خمرنا المتبَّلة على ساقه الشبيهة بالجنّية في حفلاته، بل يفضّلها حتى على ثوريّ شاب مُشاكس مثلي. خلال عامي الأول كطالب لم يتخرَّج كان يُخاطبني بـ"إيغلتن"، وفي عامي الثاني بـ "تيرانس"، وفي عامي الثالث بـ "تيري". وربما لو أنني أطلتُ مكوثي في جامعته إلى ما بعد سنوات تخرُّجي، لبلغت تلك الحميمية المتصاعدة نهايتها الطبيعية بـ "الزواج". كنا نمضي أغلب أوقاتنا في مناقشة ماركس أو لينين في حين كان ينبغي أنْ نتحدث عن ووردسوورث أو سوفوكليس، وقد تبيَّنَ أنه يعرف معلومات مدهشة عن أولئك الرجال، ومعلومات كثيرة عن كل شيء. وطبعاً لم يكن يتَّفق معهم، ولكن أيضاً لم يُزعج نفسه بمخالفتهم الرأي، بما أنَّ ذلك كان سيفضح وجود شراكة غير مهذبة. كان عالمه الاشتراكي آمنا يسوده الهدوء حتى أنه لم يكن يشعر بأية حاجة إلى دحض المبدأ الاشتراكي، وهي حركة كانت جديرة بأنْ تسِمُهُ بواقعيةٍ لا يستحقها. لم تكن هناك من فائدة لدحض الاشتراكيين إلاّ بقدر ما لدحض الشكوكيين.

في الواقع، تكوَّنَ لديَّ انطباعٌ في مستوى عميق بأنه لم يصدِّق حقاً أنَّ أي مخلوق عاقل يمكن أنْ يضمر مثل هذه الآراء؛ عاملني وأنا أتكلَّم عن مثل تلك المسائل وكأنني أدفع إلى الأمام فرضيّة حمقاء، أو أُطلِقُ طائرة ورقيّة. وبعد ذلك بسنوات، حين أصبحتُ أكاديمياً، كنتُ أبيعُ صحيفةً اشتراكية في أحد شوارع أوكسفورد حين مرَّ زميلٌ لي في كلية اللغة الإنكليزية ونظرَ إليَّ مباشرةً. وتعرَّفَ إليّ، لكنه لم يعترف بحقيقة ما شاهد. وانتشرت الفرضية بسرعة لكي تُعمي البصيرة. وكأنهُ لمحني وأنا أرتدي زي رجل شرطة وأوجِّه حركة المرور، أو كأنني ظهرتُ أمام طاولته في المطعم كنادل. صحيحٌ أنَّ بيع الأشياء في الشارع هو أفضل طريقة لضمان التخفّي. إذا أردتَ أنْ تكون مجهول الهوية تماماً وأنت بين الناس، فإنَّ أضمن طريقة هي أنْ ترتدي زي مهرِّج وترقص جيئة

وذهاباً على الرصيف وأنتَ تتأبّط حزمة من الكرّاسات. لكنني واثقٌ أنَّ زميلي رآني ولم يرني، كما يصدِّق عُطيل ولا يُصدِّق أنَّ ديدمونة هي عاهرة. أنْ ترى يعني ألاّ تصدِّق.

على الرغم من عدم تصديقه، كان غرينواي راغباً تماماً في مناقشة الاشتراكية، كما يُناقش المرء نظام التهوية في اسبارطة القديمة أو متوسط وزن خنزير بري عمره أربع سنوات. هذه المواضيع كلها كانت تثير اهتمامه، لأنها جميعاً مثَّلَتْ ما سمّاه "الازدهار الحيوي للحياة". فرؤوس الملفوف تمثل الازدهار الحيوي للحياة، وكذلك نظرية لوك عن الماهيّات، وكذلك حرب القرم(٤٤). فلكلٍ منها مكانه في لحاف الواقع المتعدد الألوان، والمهم كان جعلها متناسقة، وليس إقحامها من أجل تضييق أفق أحكام القيمة. وكل ما كان يُترَك لنكران الحياة هو التطهريين البورجوازيين الحقيرين. وكان يحتفظ بمجلَّد "رباعية الاسكندرية" للورانس دريل، ثم آخر كلمة متهورة في موجة الطليعة، موضوعة باعتباطية زائفة على رف المدفأة، لا ريب لكي تُفشي كامل انفتاحه الذي لا وجود له على الجديد. وقد علَّقَ أحد أصدقائي بجفاف بأنّه قبل كتاب دريل ربما كان يضع "يوليسيس" لجيمس جويس. كان خبيراً في الحياة، وعندما تقاعدَ من الجامعة أصبحَ في الواقع تاجر خمور. ولا أعني أنه كان يُدير حانة قذرة من دون رخصة كوالدي. بل أعني أنَّ سيارات نقل صغيرة يتوهَّج اسمُ أستاذي المُشرِف على جانبها تنطلقُ حول كمبريدج حاملة صناديق غلَّة الخمر إلى أشد السكان المحليين ثراءً وفِطنةً. وبمعنى من المعاني خرج لكي يُعلِنَ على الملأ ما كان يُمارسه في السر طوال الوقت. ذلك أنه عن طريق تجارة

(٤٤) حرب القرم: دارت رحاها في شبه جزيرة القرم بين ١٨٥٣ و ١٨٥٦ بين روسيا من جهة، وتركيا وفرنسا وسردينيا وبريطانيا على الجبهة المضادة.

الخمور تعرَّفَ إلى الأدب، كان يُردِّدُ قليلاً من أشعار تنيسون، ويحمل في صناديق شعر القرن السابع عشر الثانوي، ويجد جورج أورويل بغيضاً بصورة جليّة و د.هـ لورانس شديد التهوُّر. وكان أحياناً يعجز عن الوقوف بثبات بعد تناول جرعة مطوَّلة من أوفيد(٤٥).

درستُ معه صحيفة التراجيديا في مدرسة اللغة الإنكليزية، وصادفنا كوارث مفاهيمية في أثناء ذلك منذ البداية. وكان غرينواى يعتقد أنَّ التراجيديا هي طقسٌ نادر، شبه ديني لم يعد في الإمكان أنْ يوجد في العالم الحديث، في حين أنني رأيتُ أنَّ لديَّ سبباً ممتازاً للاعتقاد أنه لا يزال هناك قدر كاف منها. وكانت نقاشاتنا حول المأساوي مشوبة منذ البداية باختلافٍ أساسيّ في الرأي: أنا رأيتُ أنَّ التراجيديا هي شيء سيئ، في حين رأى هو أنها جيدة. ويقترح عليَّ مقالات ذات عناوين مثل: "على الرغم من كون إبسن كاتباً مسرحياً متميزاً بوضوح، إلاّ أنَّ أعماله لا تصل إلى مرتبة التراجيديا"، وكأنَّ الكفاح لبلوغ سُدَّة الحالة التراجيدية والفشل في ذلك أشبه بالطموح إلى العزف على آلة الأوبوا لكنَّ الفشل في ذلك يُجبر المرء على الرضا بالصافرة القصديرية. بالنسبة إليه، الكلمة التي تعني البؤس والفقر المدقع كانت إيجابية بسموّ، وبمستوى كلمة "فروسية" أو "محار قليل النضج". وافترضَ أيضاً أنَّ التراجيديا دائماً أعمق من الكوميديا، في حين أنني لم أفهم كيف كان تنيسي وليامز بالضرورة أعمق من دانتي.

لكنَّ المشكلة الحقيقية كانت أنَّ كُره غرينواى للأفكار جعله عاجزاً عن التعبير عن حالته، وكان ذلك فيه غريزة كتذوقه لأنواع الجبن. وعلى هذا الأساس اضطُررتُ إلى طرح قضيته نيابةً عنه لأردَّ عليها،

---

(٤٥) أوفيد (٤٣ ق.م - ١٧؟ م): شاعر روماني. له "التحولات" و "فن الحب" - المترجم.

كالمتكلِّم من بطنه مع دمية مُجادلة. وقد اتَّضحَ أنَّ ذلك عملٌ مُرهِقٌ، كمحاولة أنْ يقومَ المرءُ بدور شريكه في لعبة كرة المضرب. لقد اعتقدَ غرينواى أنَّ من الحمق إرادة الحياة، كما فعلتُ أنا، في مجتمع تجاوزَ مرحلة التراجيديا، بما أنَّ فقدانَنا للحس التراجيدي يعني فقداننا حِسّنا بالقيمة.

ولكن لا بد أنه كان يعرفُ عمّا كنتُ أتكلَّم. كان يعرف؛ كان موجوداً هناك في ذلك الوقت. فكيف يمكن ألاّ يعرف أنَّ في حوزتي الدليل الذي يدحض قضيته؟

إنَّ التراجيديا بالنسبة إلى غرينواى كانت إلى حدٍ بعيد قضية أدبية. لعله كان ينطوي على جُرح سرّي أو عانى من خسارة مُهلِكة، لكنَّ ذلك كان مُستبعَداً. بدا أنَّ الجهود المتضافرة للساقي، والخادمة، والبستاني، والحمّالين وخدم الجامعة، قد حمته من حفنة من أسوأ المصائب كالتي وقعَت لأغاممنون. في الواقع، بهذا الخصوص لم يكن على خِلافٍ كبير مع صديقاتي الكرمليت. وكليات أوكسبريدج هي أشبه بهجين من دير وفندق أربع نجوم، مزيج غريب من أديرة وكافيار. وكان غرينواى، على الرغم من شكّي في أنه كان يرتدي سروالاً نسائياً قصيراً للإحماء ويستيقظ عند الفجر لكي يُصلي، بعيداً جداً، على طريقته الخاصة، عن عالم مرابع الرقص وطعام الأطفال بُعد الأخت أنجيلا عنه. كلاهما كانا يعرفان الكثير عن الوحشية واليأس، ولكن حصراً بطريقة غير مباشرة. وفي ذلك الوقت كانت الجامعة إمارة مقتصرة على الذكور، كما كان الدير يقتصر على الإناث . وحين أصبحتُ للمرة الأولى زميلاً في الهيئة الإدارية في جامعة كمبريدج، كانت هناك مؤسسة تُعرَف بـ "عشاء الزوجات"، وكانت المرة الوحيدة التي يُسمَح فيها لزوجة العضو بتناول الطعام كضيف على المائدة العالية. لكنها لا تستطيع أنْ تكون ضيفتكَ أنت. فذلك

جديرٌ بأنْ يكون أليفاً بكآبة أكثر مما ينبغي. وبدل ذلك، كان الزملاء ينغمسون في عملية مقايضة الزوجات التقليدية في المناسبة، وكلٌّ يقوم بدور المضيف لزوجة زميله.

كان غرينواى عازباً حين قابلته للمرة الأولى، على الرغم من أنه كان قد بلغ أواخر الأربعينات من عمره، وبدا راضياً بواقعه؛ لكننا عدنا من إحدى العُطَل الصيفية لنكتشف أنه كان قد تزوَّجَ فجأةً. كان صعباً تصوُّره متزوجاً كصعوبة تصوُّره مُصارعاً في الطين، ولكننا تبادلنا التحدي حول مَنْ يجرؤ على فتح الموضوع معه، والطالب الذي استقرَّ عليه القيام بالمهمة كان من الشجاعة بحيث يُهنّئه على الحَدث. وكان ردّ غرينواى هو "كل شيء فيه مُثير"، وكأنه يتحدَّث عن تجربة فيزيائية أو سردٍ فاتن جداً للفلسفة الوضعية المنطقية.

ولكن لعلّه لم يكن منفصلاً تماماً عن مثل تلك الأمور الجسدية كما بدا. وذات مرة توجهتُ إلى مسرح كمبريدج للفنون لأشاهد عرضاً لمأساة يونانية اتَّضَحَ أنَّ الجوقة فيها تتألّف من مجموعة من الصبايا لدنات القوام، رشيقات الحركة، بملابس رقيقة كنَّ يُلقين أدوارهنَّ بأنينٍ شبيه بالرعشة الجنسية. وحين وصل الأنين إلى ذروته، تصاعدَ من الصف الأول من المقاصير صوتٌ خفيفٌ منتحب، وشاهِق وامتزج معه. وتحول الشهيق إلى نوبَة سعال متشنجة، والتفتُّ لأرى غرينواى تقوده رفيقة له حمراء الوجه، على طول الممر الذي يفصل بين المقاعد، وقد انحنت انحناءة كبيرة، إما بسبب نوبة من الربو أو من الشبق الجنسي.

ألم، مأساة، غرفة الدرس، تضحية، صدمة: أين تتجمَّع كل هذه الأشياء؟

كنتُ جالساً في غرفة مكتب غرينواى خلال زيارتي الأولى لكمبريدج، في انتظار استجوابي من أجل مكان إقامة اللا متخرّجين.

كان في الإمكان سماع نهيق أولاد المدرسة الحكومية من خلال زجاج نوافذ القرن الثامن عشر، ممزوجاً بصوت مياه النافورة حيث كان بايرون يُقيّد دُبّه المُدجّن. وعلى امتداد السنوات التي أمضيتُها في كمبريدج كنتُ أسمع ذلك النهيق العالي وهو يتعدّل إلى نمطٍ شعبيّ أكثر، مع تعاقُب حقبة الستينيات الشعبية، والسبعينيات اليسارية، والثمانينيات التسويقية، وبينما أولاد الأثرياء يكافحون بشجاعة ليُخشّنوا حروفهم الصوتية ويُعطّلوا حروفهم الساكنة، ويُقحمون فترات التوقُّف المزماريّة الغريبة في مسار كلامهم كمَنْ يتوجّع على سرواله الجينز الجيد حقاً.

كانت فقط رحلتي الثانية إلى جنوب واتفورد، والأولى كانت زيارة مُجهضة إلى لندن. كنتُ قد فزتُ بمنحة لقضاء أسبوع في ستراتفورد، وهناك قابلتُ صبيّة، من أيام الصف السادس في سَري، وصَفَتْ نفسها لي برصانة بأنها "انتقائيّة". لم أكن واثقاً إنْ كان ذلك ديانةً، أم منطقة جغرافيّة، أو اضطراباً طبيّاً أم ميلاً جنسياً، ولكننا نحن الاثنان وقعنا على الفور فيما كان يحمل مظاهر الحب الزائف كلها. جذّفت بشجاعة القارب الذي حملنا على نهر أفون، وأول زغب لحيتي الجديدة ترتعش في وجه النسيم، وبينما طيور التم تنساب على الفيض الذي يزداد حِلكة كلّمتها برصانة عن بلاهة الوجود الإنساني الجوهرية. وفي أثناء شرب كوب من الخمر في حانة "البطة القذرة" أفضَتْ إليّ بالتزامها بفلسفة د.هـ لورانس، التزام اتَّضَحَ أنه يفوق قدرة ذوقي على تحمّله، بينما شرحتُ لها فِكر نيتشه، الذي كنتُ ألفظ اسمه كني تش، وحاولنا ألاّ نختنق بسيجار صغير. جلسنا وأيدينا تتشابك بعفّة في مسرح ستراتفورد نشاهد شبيهاً لبيتر أوتول ذا سبعة وعشرين عاماً، قادماً حديثاً من غرب أيرلندا، وهو يؤدي نسخته الخاصة، الفخمة بتزمُّت، الكئيبة، الحَلقيّة من شخصية شايلوك . وأعددنا لقضاء بضعة أيام معاً في لندن، وقابلتني في مطعم محطة سكة الحديد. سألتني عن المشروب المرطّب الذي أرغبه، فسمعتُ نفسي أُعلِن بنبرة صوتي

الشمالية الكئيبة "سأشرب buun". ضحكت لي ضحكة رنّانة مرحة جديرة بضواحي لندن وشهدتُ ذبول علاقتنا أمام عينيّ . كانت علاقتنا أشبه بعلاقة دوقة بحارس طرائد. هي كانت تمتطي صهوة الجواد، وأنا أمتطي دراجة. لكنها كانت امرأة ذكية رائعة، ولطيفة، وقد سمعتُ لاحقاً أنها أصبحت موظفة ذات منصب عال. أحياناً أتساءل إنْ كانت قد وضعَتْ يدها على ملفّي السياسي.

كان هناك مُرشّحان لإجراء المقابلة ينتظران في غرفة مكتب غرينواي، واحد شاب مُحافظ يرتدي بزّةً قاتمة اللون تنمُ عن الجدّية يتكلّم بنبرة صوت محسوبة، عاقلة بصورة مزعجة، والآخر شاب نحيل، أصهب الشعر يرتدي بزّة مُخطّطة بخطوط عريضة مُبهرَجة كناشر كتب للأطفال. كانا عميقين في حديثهما، على الرغم من أني لم أعلم إنْ كان يعرف كلّ منهما الآخر مُسبقاً، بل لعلهما كانا رفاق مدرسة واحدة، أو ما إذا كان المنتمون إلى هذه الخلفية الاجتماعية ينخرطون هكذا بعفوية في حديث مشترك حين يلتقون، كضحايا تليّف المثانة أو كمهاجرين لاتفيين إلى بلدة أوماها. وراهنتُ على أنّ المُحافظ الشاب سيحظى بالمقعد الدراسي وعلى أنّ الناشر النحيل لن يحظَ به.

فجأةً فُتحَ باب الغرفة الداخلية وولجَ غرينواي. كان قصيراً وهزيلاً، ولكن مع بطنٍ صغيرةٍ أنيقة تتناسب مع صدرته ذات اللون الخمري، وعينيه البرّاقتين، وقَسَمات أنفه المعقوف كانت تشبه قَسَمات منقار طائر نيّق[٤٦]. كانت حركاته متوترة لكنّها دقيقة. قفز الشابان الآخران واقفين على الفور، فبوغتُّ ووجدتُ في ذلك استجابةً لا مُبرّر لها ولكنني اعتبرتُ أنّ من الحِكمة تقليدها. نظرَ غرينواي مباشرةً إليّ ونطقَ اسمي بنبرة خشنة وجافة، على الرغم من أنني كنتُ أعلم أنّ

(٤٦) نيّق: أي صعب الارضاء

المُرشَّحَين الآخرَين يتقدمانني حسب الأحرف الأبجدية لإجراء المقابلة. وتساءلتُ كيف عرِفني من بين الموجودين، بما أننا لم نكن قد تقابلنا من قبل، إلاّ إذا كان الاثنان الآخران، بفعل اختراقٍ فاضح في مُحاباة الأقارب الشائعة في أوكسبريدج، من أقاربه. لعلني كنتُ الذي فشل في اجتياز امتحان الدخول، على الرغم من أننا كنا حتى ذلك الحين قد أطلقنا صحيفتين، إحداهما صحيفة خاصة بالترجمة ليست ذات أهمية. لعلَّه كان يزيحني من الطريق لكي يتمكن من شرب نخب الاتّفاق مع الاثنين الآخرَين. وبدا كأنه غير مُقدَّر لي منذ البداية أنْ أكون صاحب مؤسسة.

قادني غرينواي إلى الحَرَم الداخلي، ولوَّح بيده باتجاه إحدى الأرائك، وحدَّقَ إليّ لفترة طويلة مُحرِجة وإصبعه مُقحَم بشكلٍ جانبي في فمه. كان يعضّ الإصبع بقوة وكأنه يمنع نفسه من الصراخ، ولو لم أكنْ أنا نفسي متوتر الأعصاب لأقسمتُ على أنه هو أيضاً كان متوتر الأعصاب. ثم أخرج إصبعه من فمه وقال: "صديقي العزيز، لديَّ أخبار سيئة جداً وأخرى حزينة جداً". لاحظت التناغم حتى وأنا أشعر أنَّ بطني تهيج. إذاً لقد فشلتُ في الامتحان. أإلى هذا الحد كانت ترجماتي رديئة؟ ولكن بضربة حظ، كنتُ قد ترجمتُ في المدرسة فقرةَ اللغة اللاتينية التي لم يسبق ترجمتها، لذلك اعتقدتُ أنني نفّذتها بصورة جيدة. ولكن ورقة اللغة الإنكليزية التي كنتُ قد أخذتها حتى الآن يمكن أنْ تكون تحت المستوى المطلوب.

"لقد توفي والدك ليلة أمس. أنا في غاية الأسف"، وأقحَمَ إصبعه مرةً أخرى في فمه، يعضّها بقوة وعيناه مملوءتان بالرعب والتوهّج، وكان جلياً أنه يخشى بقوة أنْ أطلق صرخة. وكأنه يومئ إلى أنه ببساطة غير مُهيّأ لمواجهة التفجّرات العاطفية، وكان يتوسل إليّ بصمت كي لا أنهار. لكنني لم أشعر إلا بهذا، في لحظة من الخِدار دفعتُ ثمنها

غالياً في وقتٍ لاحقٍ من حياتي. فقد كان أبي يحتضر عندما غادرتُ الدكان، وكان التكهُّن السائد دائماً أنه لن يعيش طويلاً بعد غيابي. وكنا قد تناقشنا حول ما إذا كان ينبغي أنْ أبقى في المنزل إلى أنْ يموت، أم أنْ ننفِّذ ما أراده لأجلي وذلك بمحاولة الحصول على مقعد دراسة في كمبريدج. لقد مات الآن على أي حال، و لم أفعل إلاّ أقلّ القليل في امتحان القبول لأحظى به.

سألني غرينواى أنْ كنتُ أرغبُ في الاتصال بالمنزل، وغادرَ الغرفة بحذر. ردَّ بواب على الخط وسألني ارتياب إنْ كان الدكتور غرينواى على عِلم بأني أستخدمُ هاتفه. تحدّثتُ مع أمي، لكنها لم تكن في حالةٍ تسمحُ لّها بتقرير ما إذا كان ينبغي أنْ أعود إلى المنزل لحضور الجنازة أم أنْ أبقى لأنهي امتحاني. هنا تدخَّل المدير - وهو الخليفة الأكثر إنسانية للأخ دميان - وأمرني بالعودة إلى المنزل، وهو قرار فرحتُ به من ناحية وأسفتُ له من ناحيةٍ أخرى. كان ثمة ما يغريني بالبقاء لإكمال امتحاني، لكنني لم أكن متأكداً مما إذا كان ذلك إيثاراً أم أنانيّةً. هل أتخلّى عن والدي أم أفي بوعدِي له؟ ربما لن أنفِّذ الأمر الثاني إلا بعد أن أقوم بالأمر الأول؛ ربما كان ذلك جزءاً مما عناه.

ذهبتُ إلى المنزل لأواجه الشيء القذر، الصادم، ولكن بدل ذلك واجهتُ مديري في خلفية الكنيسة حيث وُضِعَ تابوت والدي. همستُ بغضب قائلاً إنه لا يحق له أنْ يتطفَّل، وإنَّ والدي كان سيرغب في أنْ أبقى في كمبريدج، وإنه كان ببساطة يُعلّي من شأن الطقس فوق الواقع بأسلوبٍ بابويّ خسيس. وبتعبيره عن ثنائه لوالدي كان يدمّر بطريقته المتخبطة، الخرقاء بالذات الشيء الذي كان والدي يرغب فيه. ألم يفهم أنَّه كان ينبغي أنْ أبتعد عن والدي لكي أعودَ إليه؟ لقد كان المدير، رجل الدين، مُطيّباً للخاطر وهادئاً، ويُعاملُ غضبي الشديد ولاشك كانعكاس صِرف للحزن. وما بدا لي أنه مفارقات

الوضع بدا له تناقضات الحرمان. قال لي إنه كان عليَّ أنْ أضحّي من أجل والدي، فصرخت فيه قائلاً إنَّ هذا هراء، وإنني لو فعلتُ ذلك لجعلتُ على الفور من التضحية التي قدَّمها والدي مثاراً للسخرية. أعتقد أنه في إحدى اللحظات ظنَّ أنني سأضربه، مما كان ربما سيعني بالنسبة إلى جدّي وجدّتي الورعَين أنْ أتحوَّل إلى حمار على الفور أو على الأقلّ أنتهي بذراع مكسورة. ربما كنت سأنغمس في نوبة من الضحك الشيطاني، أو أنْ أستيقظ لأجدني وسط دخانٍ ميتافيزيقي. ولكنني لم أدرِ هل أتعارك معه، أم مع كمبريدج، أم مع والدي.

بعد ذلك بضعة أسابيع وصلتني رسالة من غرينواى يقول فيها إنني قد فزت بمقعد دراسي على أنْ أدفع نفقات طعامي، ويعبِّر عن أسفه لأنَّ فشلي في إتمام امتحان القبول يعني أنه لا يمكن انتخابي لنيل أية إعانة تعليمية أو أية منحة دراسية. كان الأمر أشبه بمواساة شخص برأ لتوّه من العمى لأنَّه سيبقى هناك قدرٌ بسيطٌ من التوتّر في العين. لا أعتقد أنَّ غرينواى تصرَّفَ بدافع الشفقة أو التعاطف. لقد كان يُناصر تكافؤات العدالة الصارمة، وليس إيماء التبذير. لابد أنَّ أطروحتي الإنكليزية الوحيدة كانت أفضل مما تصوَّرت. ومع ذلك، انفجر تصرفه في وجهي كنوعٍ غريب من الغفران. لقد سمحَ لي حارس البوابة بالدخول، على الرَّغم من أنَّ والدي هو الذي أدار المفتاح. كان غرينواى قد قبِلني كنموذجٍ أدبي؛ فهل فعل والدي مرةً أمراً كهذا؟ لعلَّ هذا أحد الأسباب التي جعلتني أتصادم مع غرينواى بعد التحاقي بكمبريدج. لقد كان عالمه هو القانون الذي أدَّى إلى دمار والدي، لكنه قانون كان والدي قد طلبَ مني أنْ أحبّه.

كان غرينواى قد ركب ما اعتقدتُ أنها إحدى المخاطر النادرة في حياته المتعقّلة بصورة خارقة؛ وعلى الرغم من أني أحطتُه بهالة من المجد الأكاديمي الساطع، بل وفزتُ في الوقت المناسب بالإعانة التعليمية

وبالمنحة الدراسية اللتين لم أتأهّل في أول الأمر لنيلهما، لعله ندم لاحقاً لاتخاذه ذلك القرار. كان قد غذّى في صدره أفعى ماركسية، خرجتْ في نهاية المطاف إلى العالم لكي تُسمّم كل ما اعتبره نفيساً. عند هذه النقطة يتغلّبُ عليك كرمُك مع الطبقات العاملة. ولاحقاً، في أثناء بحثي عن عمل، نصحني أحدهم بهدوء بأنْ أكفّ عن استخدامه كحَكَم. كان جديراً بتلميحاته أن تكون صادقة ومُنشّطة. لكنني كنتُ دائماً شاكراً له، وحين تقاعدَ كتبتُ لأُخبره بهذا. لم يُجبني، مُفضّلاً ذلك ربما بما أنه لم يُغادر غرفته ليُحيي فيتغنشتاين المُحتضر.

لكنَّ هذا حدث لاحقاً. ودفنّا والدي في صباح أحد أيام شهر كانون أول المُصقِعة، وبعد ذلك جاءت أمي إلى المنزل عائدة من فناء الكنيسة وفتحت الدكان.

انتهى

فهرس

مؤلف الكتاب ٥

في ذِكرى نورمَنْ فلتس.................. ٧

المؤبّدات ٧

مفكّرون ٥٥

سياسيّون ٨٥

فاشلون.......................... ١١٢

الدونات ١٣٣

أرستقراطيون ١٦٣

تيرينتس فرانسيس ولد في ٢٢ شباط ١٩٤٣ في مدينة سالفورد.

هو أحد أهم الباحثين والكتّاب في النظرية الأدبية ويُعدّ من أكثر النقّاد الأدبيين تأثيراً بين المعاصرين في بريطانيا. وهو أستاذ الأدب الإنجليزي حالياً في جامعة لانسيستر وأستاذ زائر في جامعة إيرلندا الوطنية، جولواي. وقد كان قبل ذلك أستاذاً للأدب الإنجليزي في جامعة أكسفورد في الفترة (١٩٩٢–٢٠٠١)، كما كان أستاذ الأدب الإنجليزي في جامعة مانشستر حتى العام ٢٠٠٨.

وقد كتب إيغلتن ما يزيد عن ٤٠ كتاباً.


ISBN 284306255-1
9 782843 062551